القصة الحقيقية لبطل
المسلسل المثير للجدل
"فارس بلا جواد"

اعترافات حافظ نجيب

وقائع جريئة مدهشة
وقعت في نصف قرن

إعداد: ممدوح الشيخ

اعترافات حافظ نجيب

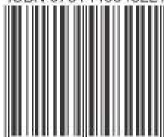
الرواية الأكثر إثارة في تاريخ أدب الاعتراف المكتوب بالعربية

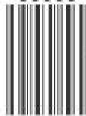
قصة: الضابط.. الجاسوس.. الشاعر ..المحتال الراهب المسلم ..الخادم الأخرس

وقائع جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن

إعداد: ممدوح الشيخ

ISBN 9781449948221





تقديم ودراسة وإعداد:
ممدوح الشيخ

اعترافات حافظ نجيب

مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن



Arab Diffusion Company

اعترافات حافظ نجيب

مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن

تقديم ودراسة وإعداد:

ممدوح الشيخ



ص. ب. 113/5752 ر. ب. 2070 1103

Email: arabdiffusion@hotmail.com

www.arabdiffusion.com

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ٢٠٠٣

المحتويات

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

لنشر هذه الاعترافات قصة أحب أن يعرفها القارئ، فقبل ما يقرب من عشرة أعوام تعرفت عن طريق الباحث الفلسفي المتميز الصديق العزيز الأستاذ «صلاح الدين عبد الله»، على مؤرخ أدبي وناقد من طراز خاص هو الأستاذ «أحمد حسين الطماوي»، وهو خبير بتاريخ الثقافة المصرية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وهو تلميذ من أنجب تلاميذ الأستاذ العقاد الذين تلقوا عنه حب المعرفة والدأب الشديد، وفي لقاء من لقاءاتي مع الأستاذ أحمد حسين الطماوي في منزله عرفت للمرة الأولى اسم «حافظ نجيب»، وسمعت منه جانباً من قصته.

ومرت السنوات والاسم عالق بذاكرتي دون أن أتوقع أو حتى أتخيل اقتناء الرواية، ولكنني بمجرد اقتنائها قررت إعادة نشرها فكانت الكتاب الوحيد الذي نشرته على نفقتي الخاصة، وذلك عام ١٩٩٦. وقبل ما يقرب من عام أخبرني صديق صحافي أن الممثل المعروف محمد صبحي يعد مسلسلاً تلفزيونياً «فارس بلا جواد»، مأخوذاً عن الرواية وآثرت الانتظار حتى تنشر معلومات كافية عن المسلسل، فإذا بالدنيا تنشغل انشغالاً هستيرياً بالعمل ويصبح موضوع مطالبات وضغوط دولية من

الكيان الصهيوني والولايات المتحدة الأمريكية تستهدف منع عرضه. ونفدت النسخ التي بقيت من الطبعة الأولى سريعاً فقررت إعادة نشره في دار «الانتشار العربي»، لثقتي في قدرتها على تقديمه للقارئ العربي الذي ينتظر بشوق معرفة السيرة الحقيقية للمغامر «حافظ نجيب».

وقد ترددت كثيراً في تحديد الشكل النهائي لهذا الكتاب وبخاصة أن به الكثير من الأحداث والشخصيات والتساؤلات التي تحتم وجود دراسة تساعد في إضاءة زوايا هذا العمل المثير، كما أن الراحل حافظ نجيب دوَّن مذكراته حتى عام ١٩٠٩ وتوفي عام ١٩٤٦ وبين هذين التاريخين كثير من الأحداث لم يدوّنها، وهي أحداث لا نريد أن يجهلها القارئ، وبخاصة أن بها مفاجآت لا تقل روعة عن مفاجآت الجزء الذي دوّنه حافظ نجيب بنفسه.

ولما كان التعرض لما في اعترافاته من قضايا هامة لابد أن يؤدي إلى استباق القراءة وإضاعة فرصة الدهشة على القارئ فإن كل ما يمكن التعليق به على هذه الاعترافات هو موضوع دراسة ملحقة بها.

والآن عزيزي القارئ ...

أدعوك لقراءة اعترافات حافظ نجيب:

الضابط،

الجاسوس،

رجل الأعمال،

المحتال،

المدرس،

الكاتب المسرحي،

الراهب،

بائع حلوى الأطفال،

البارون،

الفيلسوف.

وأولاً وقبل أي وصف.. الإنسان

ممدوح الشيخ

١٩٩٦/٤/١٢ - ٢٠٠٢/١١/١٥

الباعث

أرغمت الأستاذ حافظ نجيب على نشر اعترافاته في حياته بدلاً من نشرها بعد مماته، لأمكن الناس من تكذيب ما لا يصدقونه، ولأمكنه من الرد عليه فلا ينهشون لحمه وهو جثة كما نالوا منه بنشر الأكاذيب والخرافات وهو مطارد عاجز عن الدفاع عن نفسه.

إن جلجلة صوت الحق تدمغ الباطل وتفزع الجبان.

سعدية الجبالي
دبلوم المعهد العالي ـ تربية بدنية

الإهداء

إلى ابنتي العزيزة المحترمة سعدية الجبالي

لم أنهج في تربيتك مناهج الناس، فلم تسمعي مني إرشاداً بصوت الأمر، ولم أقيّد حرية عقلك وسلوكك، وإنما تركت لك الاستقلال التام فأصغيت لنصائحي بدافع من الرغبة، وأطعت إرشادي بباعث من الثقة وحسن الظن.. ..

وها أنت صبية ناضجة العقل تامة الإدراك، يحليك الأدب ويميزك على الغير عزة النفس، والمحافظة على الكرامة، ويزيد في قدرك صفاء القلب وتنبه الضمير وحسن الخلق، وتحميك حصون من الإيمان والتقوى واحترام التقاليد. فإذا تحدثت إليك فإنما أتجه إلى عقلك لا إلى عاطفتك.

وانزلي إلى أعماق صدرك، وارجعي إلى لوح ذهنك وفتشي عما تركته فيهما معاشرتي من الأثر، فإذا لم تجدي في المخبأين ما يدعو للمحاسبة وللتبرم، فسيدعم حكمك علي مسبباً بما سمعت أذنك من لساني ورأت عينك من فعالي، ثم قارني معرفتك المسببة بما تسمعين عني من الناس يتيسر لك إدراك حقيقة وزني ووصفي وأينا كان الظالم والمظلوم.

لقد بلغ حناني عليك حداً كنت أشعر معه بذوبان فؤادي وأنا أرى ابتسامتك أو أسمع صوتك، وبتأثير هذه الحال العاطفية المستمرة زماناً

طويلاً صرت لي حاسة سادسة، وتحولت في نظري إلى ملاك أقدسه.

زالت من نفسي جميع المؤثرات فيها السارة والضارة، لأنها امتلأت بك وحدك ولم يبق فيها مكان إلا للحنان عليك والانشراح بك.

وقد وجهني هذا النوع من الحصر للاعتصام لأكتسب احترامك وصداقتك، ولأملأ قلبك بالاطمئنان ونفسك بأسباب الارتياح. وحين أموت فلن آسف على الحياة وما اشتملت عليه من أسباب حب البقاء، وإنما سيكون تألمي لفكرة تركك في خضم الحياة محرومة من صداقتي وإخلاصي.

* * *

ومن مستودع الأرواح «أين نكون»، ستطل روحي ويرف حولك حناني، وأباركك وأسأل لك من الخلّاق الكريم الرحيم الهناءة في الحياة، والعافية في البدن والوقاية من شرور الناس.

والدك ـ أو صديقك

حافظ نجيب

١٢ ـ ٤ ـ ١٩٤٦

كلمة صريحة

لكل إنسان مقياس ووزن في مقاييس الناس، ولكن موازينهم تطفف حتى في كتابة التاريخ، أما وزن الإنسان نفسه وهو في خلوة فإنه التقدير الصحيح لقيمته الذاتية.

وقد خلوت إلى نفسي وذاكرتي مرات وعرضت على العقل والضمير حياتي الماضية وما مرّ بي من الأحداث، فاقتنعت بأنني بددت الحياة في سفه، وضيعت ما كان يجب أن يكون لها من الثمرات، ومكّنت الناس من هدر كرامتي. ومن المغالاة في القول علي حتى بنشر الخرافات عني، فخلقوا بالكذب والمغالاة والتخريف شخصية خيالية ثبتت في أذهان الناس، واستقر فيها الوصف الخيالي على أنه الصورة الصادقة للمخلوق.

والشهرة التي ذاعت لهذا الإنسان الشاذ الخرافي أعظم مما أستحق، لأنني وثقت في وزني الصحيح أنه دون ما يرضى به الفرد العادي.

وفي ماضي كثير من الأخطاء وقليل لا يشرف ذكره ولا

يفيد الناس عرضه، وحب الذات يقتضي كتمانه ونسيانه ومحوه من ألسنة الناس بمرور الزمن، ولكن أولادي يلحون علي لكتابة اعترافاتي.

وقد عصيت هذا الإلحاح زماناً طويلاً لأنني أنفر من نبش الماضي، ولكن الإلحاح المتكرر وصل إلى حدّ الضغط الشديد والإكراه ثم لجأوا إلى شتى الوسائل لإرغامي، ومنها غمري بحنان واضح، فذاب جلدي من حرارة العطف، وتلاشت قوة الإرادة، فخضعت وأطعت.

وليس يهمني رأي الناس إذا عرفوا الحقيقة، لأنني قسوت على نفسي بحكمي، ولأن هؤلاء الناس ضلوا في وصفي وضللوا مدى نصف قرن، فلما يعطلني ما أذاعوه عن شق طريقي في الحياة العملية الشريفة. ولم تمنعني الشهرة السيئة عن امتصاص الرزق الحلال من بين مخالب الوحوش وأسنان الأفاعي.

استخففت برأي الجماعة وأنا في الحياة وفي حاجة إلى الناس، فمن البديهي أنني لا أحسب حساباً لآرائهم حين أفقد الشعور والحس والحياة.

ولست أكتب اعترافاتي لهؤلاء إنما أكتبها لأولادي إجابة لرغبتهم، وليتقوا الأخطاء التي ضيّعت حياتي وثمراتها. لأن التجارب دروس تعلم الإنسان، ولكنها قاسية يدفع المجرب ثمنها من حياته وهنائه، وربما بلغت شدتها حداً يسوئ الحظ ويحطم المستقبل والحياة ذاتها، فمن العقل إذن الإفادة من تجارب الغير بدلاً من التضحية للحصول على المعرفة المكتسبة من الاختبار.

أسأل الله لأولادي التوفيق والسلامة طول شوط الحياة

ليكونوا نافعين لأنفسهم وللجماعة، وليتركوا وراءهم ذكراً أفضل مما تركت.

٢٩ - ٣ - ١٩٤٦

حافظ نجيب

أبـــي وأمـــي

١

كان جدي لوالدي الحاج حسن السداوي تاجراً، وكانت له دكانة فى شارع العقادين[١] يبيع فيها الحرير المصبوغ والقباطين، وكان له ولد صغير يدلله فيأخذه معه إلى دكانته، فيقضي الصغير الوقت باللعب أمامها فى الشارع المزدحم بالمارين، كان يلعب بنحلته يوماً فطاحت منه إلى وسط الشارع، فأسرع إليها ليتناولها في غير محاذرة فوقع على الأرض، وكادت تدوسه عربة وجيه تركي كان عائداً بها من صلاة الجمعة، وقفت العربة، وأنقذ الصبي من بين أرجل الخيل، فاستشاط التركي غضباً من إهمال الجهلة أولادهم، وأمر خادمه فحمل الصبي إلى العربة.

ورأى أصحاب الدكاكين الحادثة فصاحوا ينبهون الحاج حسن إلى خطف التركي ابنه الصغير، وكانت العربة قد وصلت إلى «سبيل العقادين»، ولا تزال ظاهرة قبل انعطافها إلى اليمين، فأسرع الوالد يجري خلفها يريد اللحاق بها، وكان يصرخ بكل قوته، «يا تركي سيب الواد».

(١) بمنطقة الأزهر بالقاهرة القديمة.

كان قصر الباشا بعد حي السيدة زينب (بعد مطاحن الرمالي الموجودة الآن[1]) سرايا من طابقين فقط، ووراء البناء حديقة كبيرة غناء بها صنوف من أشجار الفاكهة، وأمام السراي خندق عليه قنطرة متحركة ترفع بالسلاسل لمنع العبور عليها وترد إلى مكانها عند الضرورة، وكان الفضاء من هذا المكان إلى حي فم الخليج صحراء جرداء ليس بها بناء سوى ضريح صغير واقع أمام السراي، وقد بقيت آثار هذا القصر إلى ١٩٠٥ لأنني رأيت أنقاضه تنقل في ذلك الحين.

وصلت عربة الباشا التركي وبها الغلام إلى القنطرة فعبرتها واختفت داخل السراي ثم رفعت القنطرة، ووصل الحاج حسن السداوي ومعه بعض ذوي العطف والمروءة إلى الخندق أمام باب السراي والرجل يصرخ بطلب ولده والناس يضجون معه. ووصلت الضجة وأصوات الصراخ إلى سمع الباشا التركي، وسأل خدمه عن السبب فأبلغوه إليه، فأمر باستدعاء والد الصبي المخطوف ولمّا مثل في حضرته سقط على قدمي الباشا يغمرها بقبلاته.. وجعل يتوسل إليه ليرد له ولده وترجم ردّ الباشا عليه قائلاً: «أنت أهملت في الحرص على سلامة ولدك الصغير، وعرضه الإهمال إلى الوقوع تحت حوافر عربتي، فأنت لم تحسن الاحتفاظ بالنعمة التي منّ الله بها عليك، وسيكون عقابك الحرمان من ولدك إلى حين. لقد أخذته لأعلمه وأربيه ليصير شاباً قادراً على العمل نافعاً في الهيئة الاجتماعية، فيعود إليك رجلاً، ومن حقك أن تزوره هنا كل يوم جمعة إذا أردت».

ولم يقتنع الحاج حسن بما سمع، واستفزه الغضب بسبب

(١) نشرت الرواية للمرة الأولى عام ١٩٤٦.

خطف ولده ومحاولة الباشا التركي استبقاءه في قصره، فتحول من التوسل إلى الصراخ ثم إلى التهديد بالشكوى إلى أفندينا (الخديوي إسماعيل) وأثار الصراخ غيظ التركي وغضبه فأمر خدمة فألقوا الحاج حسن السداوي على الأرض، وضربوه بالجريد حتى أغمي عليه، ثم طرد ونسي الجميع أمره.

ونشأ محمد الصغير في رعاية الباشا، وسموه في المدرسة (محمد نجيب) بدلاً من محمد حسن السداوي، وسمحوا له بمقابلة والده في السراي بين حين وآخر ثم أذنوا له بعد شهور بقضاء ليلة الجمعة في بيت أهله، وألحق الشاب بعد دراسة قصيرة بالمدرسة الحربية، وتمت ترقيته إلى رتبة الملازم ثاني وألحق بحرس الخديوي إسماعيل ثم عقد له الباشا على ابنته الصغرى ملك هانم، وأقام معها في جناح خاص بسراي والدها.

ولم يطل عمر هذه المعيشة لأن الفتى أخطأ خطأً عظيماً لم يكن في المقدور مغفرته، أثار حماته فاستدعت الخدم وطردته من السراي، وقبل ظهر النهار الثاني أبعد إلى السودان فبقي فيه ستة أعوام ولم يؤذن له فيها بالعودة إلى مصر، ولم يتمكن من العودة إلا بعد موت الباشا.

ومما يؤسف له أن ملك هانم كانت حاملاً في شهورها الأولى، ولم يكن لوالدها الباشا أي رأي في إدارة البيت أو تصريف شؤونه، وكانت السلطة المطلقة لحرمه الهانم الكبيرة وبسبب حنق هذه الدكتاتورة على محمد نجيب زوج ابنتها قررت إسقاط الحامل، فكانت تضرب على بطنها أحياناً وتوضع عليها الرحى، وتعذب عذاباً طويلاً منوعاً على هذه الصورة بدون رحمة من الأم، فكانت تدأب في خلوتها على البكاء الحار من

تأثير الألمين: الألم من التعذيب، والألم من فراق الزوج الذي تحبه، وشاء الله ألا يتم الإجهاض فاستعصى الجنين على شتى وسائل التعذيب حتى تمت شهور الحمل، ثم وضعت الحامل المعذبة طفلها (حافظ) سليماً مكتمل الصحة والعافية، فصدق المثل المشهور: «عمر الشقي بقي».

وبلغت القسوة حدها الأقصى عقب الوضع، فانتزع الطفل من أمه وسلم إلى جارية سوداء لإرضاعه، وعزل عن أهل البيت ووضع في مسكن الخدم وصدرت أوامر الهانم الكبيرة بعدم اتصال ابنتها بابن الفلاح إطلاقاً، أرادت أن تلاشي حنان الأمومة من فؤاد الأم بعزلها عن فلذة كبدها. ولكن الطبيعة الإنسانية حولت هذا التصرف الوحشي إلى عكس الغرض منه، فزاد حنين الأم إلى طفلها، وضاعف التألم والحزن قطرات دموعها، فلم تكن ترى إلا باكية، وزاد غضب الهانم على ابنتها بسبب بكائها على الطفل وفراق أبيه، فجلدتها وجردتها من مركزها في العائلة كابنة، وأمرت رئيسة الخدم بمعاملتها كجارية فتؤدي عمل الخدم، وترتدي ثيابهن، وتنام في القسم المخصص لهن.

كان التعذيب يصب على بدن تلك المسكينة وعلى نفسها، وشدة الألم تدفعها إلى التفريج عن النفس المكروبة بالبكاء وإرسال الدموع الغزيرة، فبقيت على هذه الحالة من المذلة والشقاء والحزن والدأب على البكاء حتى فقدت بصرها، ولم يبعث العمى الهانم الكبيرة على الإشفاق على ابنتها أو الرفق بها بل زاد في حنقها وغضبها، وأمرت بأن توكل إلى الضريرة عملية تغذية مواقد الطبخ بالخشب.

وتوالت الأعوام وملك هانم في هذا الوضع القاسي، وولدها

بين الخدم، حكم عليه بالبقاء على الدوام مع البستاني وأولاده في نهاية الحديقة، وحدث مرة أن المعذبة تمكنت من مقابلة زوجة البستاني فارتمت على قدميها باكية منسحقة النفس، وتوسلت إليها أن تمكنها من مقابلة ولدها حافظ، فدفعت الرحمة المرأة إلى مخالفة أمر الهانم الكبيرة فحملت الغلام إلى أمه ومكنتها من ضمه إلى صدرها ومن غمره بحنانها ودموعها.

وشاء الحظ السيئ أن ترى هذا المشهد المؤثر جارية، فنقلت الخبر إلى مولاتها تبتغي التقرب إليها ونيل الحظوة عندها، فاستشاطت الهانم غيظاً وحملها الغضب على الإسراع بالمعاقبة، سيقت إليها العمياء الشقية وولدها، فطرحت الأم ابنتها على الأرض وجلدتها خادم بالسوط، بينما كانت الدكتاتورة تضرب الغلام بيدها وتركله بقدمها وصياحه يتعالى مع استمرار عملية التعذيب، والهانم لا تسمع الاستغاثة ولا ترحم المعذبين إنما كان التألم والصراخ يزيدان الغضب والعناد فتزيد في التعذيب.

وأراد الله إنقاذ الغلام وأمه من هذا العذاب فوصلت الأصوات الصارخة إلى سمع الباشا فحضر فطأطأت حرمه رأسها وهدأ غضبها احتراماً للزوج الهادئ الساكن، الحليم، وكفّ الحاضرون عن عملية التعذيب.

٢

كان أهل القاهرة يعنون عناية عظيمة بالمولد، وكان الباشا رحمه الله يعنى مثلهم بمولد النبي (صلعم) وبمولد السيدة زينب، فيقيم حفلات دينية يقرأ فيها القرآن، ويطعم الناس ويوزع الصدقات لحوماً وخبزاً وكساء ونقوداً تنثر على الرؤوس في الليلة الختامية للمولد.

وفي أحد هذه المرات في الحفلة الختامية لمولد السيدة زينب كانت ملك هانم في المطبخ تغذي نيران المواقد بالخشب، وحدث مفاجأة، علت الضجة لقدوم موكب الاحتفال فتركت الخادمات المطبخ وأسرعن إلى النوافذ ليمتعن عيونهن برؤية الطبول والأعلام وتركن العمياء في المطبخ، وأرادت قدرة الله أن تضع حداً لعذابها، فعلقت النار بثوبها وأكلت بطنها وفخذيها، فصرخت الشقية من آلام الاحتراق ولكن صوتها لم يصل إلى الآذان، فانطرحت على الأرض وتمرغت تحاول إخماد اللهب.

ولحقها الخدم قبل أن تلفظ الروح، فحملت إلى غرفة وألقيت على حشية فوق سجادة، وبلغ النبأ إلى الباشا فأمر باستدعاء

طبيب عسى أن ينفذ المحترقة، وطلبت البائسة رؤية ولدها، فأمر الباشا بحملي إليها..

دخلت غرفة أمي المحترقة فوجدتها ملقاة فوق الحشية وجسمها تغطيه الضمادات البيضاء فوق قطن كثير، وأخذني الخوف من هذا المشهد، وكنت أعرف أنها أمي، وأنه محكوم علي وعليها بعدم الاجتماع لسبب لا أعرفه ويعجز عقلي عن إدراكه، وسمعت صوتاً صادراً من هذا الجسم المطروح على الحشية، كان صوتاً رقيقاً جداً إنما له صوت موسيقى روحية جذبتني إلى صاحبته، فاستقويت على الخوف ودنوت منها وحاولت الجلوس عند رأسها، فجذبتني إليها وقبلتني، ولكنها أنّت من التألم الناشئ من الحركة.

أذكر أنني أشفقت على المتألمة، وسالت دموعي في صمت، وحدثتني ولكني لا أذكر ما قالت وكان انفعال نفسي وإشفاقي وحيرتي يحول بيني وبين فهم ما أسمع، وطلبت إليّ أن أدنو من فمها فأطعت، فسمعتها تقول بصوت خافت: «هل تعرف في الحديقة مكان شجر البرتقال؟».

قلت: «نعم».

قالت: «أسرع.. وأحضر لي برتقالة لأن لساني جاف».

فأسرعت إلى الحديقة وأحضرت لها البرتقالة، وطلبت سكيناً فأطعت، وشققت البرتقالة. وطلبت أن أعصرها في فمها، ففعلت.. فتململت وأنّت، ثم قالت لي:

«هذه نارنجة يا حافظ.. شجر البرتقال أبعد قليلاً من هذه الشجرة»،

فنزلت مسرعاً وأحضرت البرتقالة وشققتها، وفتحت فمها

فعصرت نصف البرتقالة فيه، وسقط مع العصير قطرات من دموعي، وفي هذه اللحظة جذبتني أمي إلى صدرها وضمتني إليه، ثم سكنت حركتها وأنا لاصق بذلك الصدر.

وجاءت جارية ورأت ذلك المشهد، فانتزعتني من صدر أمي. وسمعتها تقول:

«ماتت المسكينة».

وصل الخبر إلى جدتي فحضرت في مثل تعاظمها العادي، ووقفت أمام الجثة صامتة تحدق فيها، ثم رأيتها بعد برهة تسقط جاثية وتنحني على ابنتها تضمها إلى صدرها ودموعها تسيل غزيرة، ولما نهضت من مكانها بقيت واقفة حتى غطيت المتوفاة بغطاء من الحرير الأبيض، ثم حملتني بين ذراعيها وهي تذرف الدمع في صمت، واتجهت إلى جدي حتى وصلت إليه في قاعة فسيحة، وكان جالساً على كرسي فوضعتني بحنان على ركبتيه، وتكلمت معه بالتركية، ولم أفهم ما قالت.

وضمني الشيخ الوقور إلى صدره وأسند رأسه على كتفي وسالت عبراته صامتة هادئة، فلزمت السكون بين الذراعين النحيلين واطمأننت للحنان البادي من هؤلاء الذين اعتدت الخوف منهم والفرار عند سماع أصواتهم فرار الأرانب محاذرة ورعباً من كل طارق جديد عليه. لست أذكر كيف نقلت إلى فراش جدتي، إنما رأيتها في الصباح حين استيقظت تضمني إلى صدرها وتغمرني بالقبلات ودموعها جارية.

وحملوني إلى جدي في الحديقة، كان جالساً على كرسيه وجهه إلى الباب الخارجي، والباب المؤدي من مدخل السراي إلى تلك الحديقة مفتوح كله، ورأيت في الفسحة التي تلي الباب

الخارجي خلقاً كثيرين من أصحاب العمائم، كانوا الفقهاء الذين سيتقدمون النعش بالقراءة، وأجلسني جدي في حجره، وانحنى علي في حنان يضمني إليه ويغمرني بالقبلات، وشجعني الاطمئنان على التحقق من وجه هذا الشيخ الوقور لأول مرة.

كان شيخاً قصيراً يرتدى ثوباً أسود، وله لحيه بيضاء طويلة الشعر مرسلة على صدره، وكانت دموعه تنحدر على وجهه وتبلل هذه اللحية، لم يتكلم ولزم السكون بينما كانت الميتة تجهز لحملها في النعش. ورأيت حركات القوم زادت سرعة، ثم نهض الجالسون احتراماً للنعش الذي ظهر من باب الحريم، ولكن جدي لم يتحرك من مكانه كان يضمني إلى صدره ورأسه مسنود على كتفي، وجاء أفندي طويل وانحنى أمامه وحدثه، ولم تبد من الشيخ حركة فاجترأ الأفندي وهزه ثم صرخ يقول:

«مات الباشا»!

نزلت من حجر ذلك الشيخ الوقور الذي لم أعرفه إلا من ليلة واحدة، وضعت بين المتزاحمين، وسمعت في شتى أنحاء القصر الصراخ والعويل، ثم رأيت الهانم الكبيرة تأتي من باب الحريم مسرعة بقدر ما سمح لها جسمها البدين المترهل، كانت تصرخ وتندب، ثم ارتمت على جسد زوجها فاقدة الوعي. كانت الضجة عالية والصراخ يتوالى والارتباك شديداً، وجاءت جاريات سود فألقين غطاء أبيض على الهانم وحملت إلى الطابق الثاني، ورأيت النعش المزين بالزهور وفيه ترقد أمي ملقى داخل باب الحريم منسياً من الجميع لأن الكارثة الجديدة طغت على ما سبقها.

مرت بي الحوادث تباعاً من مغرب شمس النهار السابق بدون أن أدرك قسوتها علي ولا تعليل ما وقع، وأخذتني الضجة والصياح من كل النواحي فتولاني الذهول والانكماش والكآبة والحيرة، ورأيت جميع من يقع عليهم بصري يبكون ويولولون فبكيت معهم بكاء أخرس، ثم أخذني النوم فنمت.

واستيقظت في عصر ذلك النهار على صرخات كثيرة داوية، ورأيت نساء كثيرات يلطمن الخدود يودعن بالصراخ نعشاً جديداً يخرج محمولاً من باب الحريم، ثم حمل الأول وراء الثاني وانطلق به حاملوه إلى الباب الخارجي. حاولت الخروج مع الخارجين بالنعشين، ولكن واحداً من أولاد البستاني جذبني من يدي وساقني إلى الحديقة فتلقتني أمه وهي باكية فاحتضنتني واستبقتني مع أولادها في المسكن الحقير الذي عشت فيه إلى ذلك اليوم.

قضيت النهار كله بدون طعام فشعرت بالجوع، وشكوت أمري إلى تلك المرأة الطيبة التي ألفت مناداتها بلفظ «خالتي»، فأطعمتني ودمعها ينحدر في صمت، وكانت من برهة إلى ثانية تنحني علي وتضمني إلى صدرها وتقبلني في عطف وحنان، ثم تتبع دلائل عطفها بعبارات تحدث بها أولادها علق بذهني منها إلى الآن كلمة: «يتيم من الأب والأم»، ولم أعرف معنى عباراتها حينذاك.

وكانت المرأة تعتقد كغيرها من ساكني تلك الدار أن والدي قتل في السودان، وهي إشاعة أذاعتها الهانم الكبيرة نكاية في أمي لتزيد في آلامها، فأخذت هذه الكذبة لدى الجميع قوة الحقيقة حتى في اعتقاد أمي كما علمت بعد زمن غير قصير. لم

أرد لداخل السراي تلك الليلة فنمت حيث كنت، ولما استيقظت في الصباح رأيت نفسي في فراش الهانم الكبيرة.

٣

ظلت دار الحريم في حداد طويل، يلبس الجميع الثياب السوداء، وظلت الهانم الكبيرة تلازمني وتعنى بنفسها بكل شؤوني، تطعمني بيدها، وتحنو علي حناناً واضحاً حتى كانت ترغمني على النوم في حجرها إذا غلبني النعاس بالنهار، وكانت تأخذني معها في العربة كل صباح إلى مقبرة بها قبران متجاوران، ثم تشير إلى القبرين وتقول لي:

«نينتك نايمة هنا صبّح عليها..».

وكانت تجثو عند كل قبر وتذرف الدموع غزيرة، واحتضنت مرات شاهد القبر الذي ترقد فيه أمي، وقالت بالتركية ما ترجمته:

«أنا التي قتلتك بجنوني بسبب الفلاح قليل الأدب».

وكنا نعود إلى السراي بعد هذه الزيارة تدأب الهانم الكبيرة على البكاء طول النهار، ولا تكف عنه إلا إذا كنت إلى جانبها تتولى إطعامي أو قضاء حاجة من حاجاتي. وكنت حين أنام على حجرها تغني لي بالتركية فلا أفهم معاني الغناء، ولست

أدري إلى الآن أكان غناء أم ندباً، وكل ما استبقته ذاكرتي أن صوتها كان حسناً وخافتاً وله نغمات موسيقية مؤثرة كانت تدفعني إلى الارتياح ثم إلى النوم العميق. كنت أحن للحديقة ولزوجة البستاني فأقضي مع عائلتي التي نشأت فيها ساعات قبل الظهر وأخرى بعده.

ولحظت حينذاك أن هناك غرفتين متجاورتين على يسار الداخل من الباب الخارجي للسراي، الأولى كبيرة أعدت لاستقبال كبار الزائرين. أما الثانية فكانت قبل الفاصل الكبير المصنوع من الخشب والزجاج الملون ليفصل الردهة عن الحديقة، وكانت هذه الغرفة للجلوس. رأيت في هذه الغرفة بعد موت الباشا فقيهين يأتيان من أول النهار لتلاوة القرآن بالتناوب، وأحدهما هو الذي ذكر لي أن والدي مات في السودان. ولم يحزنّي هذا الإسرار لأنني لم اعرف معنى «والد»، لم أره أبداً ولم أسمع عنه شيئاً إطلاقاً إلا بعد الكوارث التي توالت على أهل هذا القصر، فكنت أصغى لحديث الفقيه الأعمى الثرثار كأنه يقص علي «حدوتة».

دامت حياتي على هذا المنوال زمناً لا أعرف مداه، ولكنني أذكر الآن أنه الزمن المفرد الذي تمتعت فيه بحنان الهانم الكبيرة ورعايتها وتدليلها. وكنت بعد تناول طعام العشاء لا أستطيع النوم إلا إذا جلست إلى جانبي في الفراش وجعلت تمر بيدها على جسمي وتغني لي بصوتها الموسيقي الحنون سواء أكان ما تلحنه غناء أو ندباً.

٤

كنت جالساً بعد ظهر أحد الأيام إلى جانب الهانم الكبيرة على مشربية تطل نوافذها على الحديقة، وكانت كعادتها المألوفة ترسل الدموع وهي تغني بصوت ضعيف تكاد الأذن لا تسمع منه سوى نغماته. وسمعنا فجأة صوتاً جهورياً يرتفع إلينا من فجوة السلم الكبير المؤدي إلى الطابق الثاني، ودام الصوت العالي يرسل عبارات لم أفهمها ولم تفهمها الهانم أيضاً، فاستدعت جارية وأمرتها أن تسأل صاحب هذا الصوت عن سبب صياحه.

وعادت الجارية بعد برهة، وقالت لمولاتها إن الذي يصيح رسول من بيت القاضي يعلنها بالحضور أمام المحكمة الشرعية «بيت القاضي»، في حي النحاسين لتسمع الحكم عليها بردّ الغلام حافظ ابن محمد نجيب أفندي من ملك هانم إلى والده لأن عمره تجاوز سبع سنوات، أصغت الهانم لهذا البيان فتحول وجهها من وداعة الحزن إلى غضب هزّ جسمها هزاً في رعشة عنيفة، وتحول صوتها الناعم الحنون إلى صوت أجش، وظهرت

في عينيها القسوة الوحشية المكبوتة. وصدر منها إلى الجارية أمر قصير موجز:

«أحضروا هذا الرسول».

وظهر الرسول أمامنا بعد برهة مسوقاً إلى حضرة الهانم.. كان رجلاً نحيفاً طويلاً يرتدي جلباباً أزرق، وفي يده عصا طويلة تكاد تقرب من ارتفاع كتفيه، وفي رأسها مخروط من النحاس الأصفر. لم تعرف المحاكم الشرعية في ذلك الحين الإعلان المكتوب ولا المحضر الذي يعلن الإعلانات لأصحابها، فكانت الرسل ترسل إلى البيوت لتبلغ بالنداء تلك الإعلانات لأصحابها.

سألت الهانم الرسول عن سبب دخوله بيتها وصياحه فيه بصوته المنكر وترجمت عباراتها إلى الرسول فأجاب بمثل ما نقلته الجارية إلى الهانم، وترجمت لها إجابته. فصدر منها فحيح كفحيح الأفعى، وقالت:

«الفلاح.. قليل الأدب.. عاوز ابنه!.. عاوز الهانم قدام القاضي!.. قلة أدب.. ما فيش تربية... فلاح.. فلاح بدون عقل.. بدون أدب».

وبلغ الغضب حده الأقصى فتناولت الحصان الخشب الذي كنت ألعب به وألقته بعنف من النافذة إلى الحديقة.. وجذبتني بقسوة وحشية فألقتني على الأرض تحت المشربية وقالت للرسول بصوت مثل زئير اللبؤة:

«خد ابن الفلاح.. ارمه لأبيه... الجميع إلى جهنم..».

ورفض الرسول استلامي، وشرح للهانم أنه منوط به تبليغ الإعلان لا أخذ الغلام، فزاد غضبها وهياجها.. وصاحت في جارية سوداء تقول لها:

«مرجانة.. كرباج».

ومرجانة هي الجارية التي تتولى جلد التي تخطئ وتأمر الهانم بجلدها.. والكرباج لا يفارق يدها، فأطاعت أمر الهانم ونفذته بسرعة البرق، فبدأ الكرباج يلهب ظهر الرسول.. فوجئ الرجل بآلام الضرب بالكرباج فصرخ من الألم وحاول الهروب فسد الطريق في وجهه، وقالت الهانم:

«الكرباج.. أو تأخذ ابن الفلاح للقاضي المجنون..»،

لم يطق الرسول آلام الضرب فحملني على كتفه وخرج من السراي إلى غير عودة.. ولما صار في الشارع واطمأن إلى النجاة من أيدي أولئك المجانين ألقاني إلى الأرض وأمسك بيدي وجرّني من أقصى حي السيدة زينب إلى الجمالية، كنا قريبين من الغروب، وبيت القاضي مغلق، فقادني إلى القسم وقصّ على المعاون قصته وشكواه، ثم تركني هناك وانصرف.

نمت من تأثير التعب على الأرض تحت الحراسة، وأيقظوني في الليل ثم سلمني المعاون إلى ضابط قصير، فخرج بي من القسم وامتطى جواداً أشهب كان في حراسة جندي من الزنوج، ثم حملني الجندي ووضعني أمام الضابط على صهوة الجواد.

كان ذلك الضابط القصير الملازم محمد أفندي نجيب والدي الذي سبّب ما ذاقته أمي من عذاب وما لقيته أنا من هوان في بيت الجدين، وكان أيضاً السبب في طردي أخيراً من النعيم الذي كنا فيه، ثم في عذاب الجحيم الذي تولاني في بيت والده الحاج حسن السداوي بشارع الدراسة في سفح جبل المقطم..

رحم الله الجميع.. وسامحهم.. وغفر لهم..

دعاء حار من أعماق صدري.. لأن أخطاء المخطئين أدرك

الآن وأنا ناضج العقل أنها كانت مع حسن النية وبتأثير الجهل والحماقة..

ثارت الهانم الكبيرة على زوج ابنتها لأنه عاد ليلة إلى السراي مخموراً ومخدراً ودخل بدون وعي الجناح الخاص بالباشا وحرمه، واعترضته جارية فعربد، فاستيقظت الهانم ورأت ذلك المشهد المستهجن فأمرت برده بالقوة إلى مسكنه فاعتدى عليها وأوقعها على الأرض. عربدة لم تر مثلها طول حياتها، فغضبت وثارت واستدعت الخدم وأمرتهم بحمله وطرده وإلقائه في الطريق، ففعلوا.

وحملها التألم من الحادث على الجزم بقطع كل علاقة له ببيتها وأهله، ولم يجرؤ أحد على محاولة تلطيف غضبها أو مناقشة حكمها فصار نهائياً نفذته بالوسائل التي بعثها عليها غضب بلغ حد القسوة الوحشية على ابنتها، لأنها خالفت قرارها وأظهرت عطفها الحار على زوجها المغضوب عليه، وكانت النتيجة فقدها البصر ثم الحياة، فماتت شهيدة الإخلاص لمن لا يستحقه.

وحين فوجئت الهانم برسول المحكمة الشرعية ليعلنها بالمثول أمام القاضي لتسمع الحكم بتسليم الغلام إلى والده الأحمق رأت في هذا التصرف اجتراء جديداً عليها، وقررت تحت تأثير الغضب والثورة النفسية تسليم الغلام لوالده في الحال لتقطع جميع الأسباب التي تصل ذلك الرجل بها، فضحّت بالغلام مع حنانها عليه لأن احتقارها للوالد أعظم من حنانها على الولد، ولأن رغبتها في المحافظة على كرامتها أقوى من رغبتها في الاحتفاظ بالغلام اليتيم لتفصله بالتربية عن الوسط الذي نشأ فيه والده.

وبلغ تأثرها من الكوارث التي توالت عليها بسبب هذا الرجل أنها هجرت قصرها وانتقلت إلى الآستانة مع ابنة لها ترملت، فانقطعت صلتها بمصر وبمن فيها، وانقطع خبرها عن أهل هذا البلد إلى الآن.

٥

غلبني النوم وأنا في حضن ذلك الضابط على ظهر الجواد، واستيقظت في الصباح بين جماعة من الناس لم أر وجوههم من قبل، ولم يكن الضابط بينهم لأنه ذهب إلى عمله مبكراً. جلست بجواري جارية حبشية طويلة بدينة، عرفت وقتئذ أن اسمها حبيبة، وتولت خدمتنا جارية سوداء قصيرة اسمها حليمة، جاء بهما والدي من السودان، فكانت الأولى زوجة شرعية والثانية خادمة ملكاً له.

ونزلت امرأة جدي من الطابق الثالث لترى ابن «نجيب أفندي»، ودار حولي أولادها الخمسة، ثلاثة غلمان وطفلتان: توفيق، وعلي، وعبد الرحمن، وفاطمة، وأمينة. كانت المرأة فارعة في الطول بدينة إلى حد يدعو إلى العجب، وهي زوج جدي لأبي الحاج حسن السداوي وليست أم والدي.

لم تكن هذه الجماعة في المستوى الخلقي لكل من عاشرت في سراي الباشا، حتى زوجة البستاني وصغارها فهؤلاء كانوا أوضح وأحسن خلقاً وأعظم اعتصاماً في التصرفات. كان

الصغار في مثل قذارة أولاد الشوارع وأخلاقهم، فكانوا كقطيع من الماعز حركاتهم جري ووثب وصراخ ومشاجرات وبكاء وضحك، وأمهم مسترسلة في حديثها مع الجاريتين لاهية عن أولادها الأشقياء راضية عن كل ما يحدث منهم رضا التي تعتقد بأن هذه التصرفات طبيعية لا تنتقد.

ودفعتني الوحشة والسآمة إلى الاشتراك معهم في اللعب والعبث فتشبهت بهم وعدتني أخلاقهم وعشت معهم كأحدهم، وكنا ننام جميعاً على حشيتين فوق حصير ثم أذهب من الغلمان في الصباح إلى الكتّاب. وكان الكتاب في طابق أرضي بمنزل بشارع أم الغلام أمام ضريحها، نتناول فطورنا في البيت ثم يعطى لنا الخبز ونصف قرش (لنا جميعاً) لطعام الغداء.

وهكذا يأتي كل صبي ومعه خبزه وقرش خردة، فيستلم سيدنا كل ما يصل إلى الكتاب من الخبز والنقود، فيضع الخبز في مقطف إلى جانبه ويرسل النقود إلى جيب القفطان، وكنا نجلس على حصر بالية على أرض الحجرة إلى جانب جدرانها، ومن يزيد من الصبيان عن هذا المحيط يجلسون صفوفاً وسط المكان، ويعاون سيدنا في التعليم عريف لكل عشرة. فيجلس أمام كل غلام ويسمع منه ما حفظه على اللوح الصفيح فإذا انتهى منه يكتب له اللوح الجديد ويقرأه له مرات ثم ينتقل إلى الصبي الذي يليه حتى يتم دورته على العشرة.

فإذا انتهى من هذه العملية يعود لتكرارها على صورة جديدة. فيجلس أمام الصبي الأول ويضع يده على قفاه فيتأرجح الغلام وهو يتلو ما في اللوح بصوت مرتفع ليحفظه عن ظهر قلبه، ثم ينتقل العريف من غلام إلى غلام حتى ينتهي من جميع صبيانه،

ويذهب بعد هذا كله إلى سيدنا فيقرأ له عن ظهر قلب كما حفظه في النهار السابق. ويعلو صياح الغلمان وهم يحفظون وسيدنا في مجلسه العالي على دكة يراقب الجميع، فإذا لمح غلاماً لا يتأرجح، أو ظن أنه غير نشيط في صياحه يضربه بجريدة طويلة تبلغ إلى أقصى حدود الغرفة.

فإذا جاء الظهر يقف بعض المقربين إلى جانب سيدنا ويقطعون بعض الخبز في قصعتين من الخشب حتى يتم امتلاؤهما إلى الحافة، ثم يحمل القصعتين غلامان كبيران ويرافقهما ثلاثة أو أربعة من الصبيان للحراسة، ويقصد الجميع إلى المسمط فيصب صاحبه المرق من وعاء كبير ماؤه في حال الغليان حتى يغمر الخبز غمراً، ثم يعود حملة القصاع وحراسهم بالثريد إلى الكتاب. ويجلس سيدنا إلى قصعة ويدور حولها الغلمان جلوساً على الأرض، ويجلس العريف الأول إلى القصعة الثانية ومعه الجماعة، ويفتتح سيدنا الغداء بقوله بسم الله الرحمن الرحيم ويصيح الصبيان بتلاوة البسملة في نشاط ثم تمتد أيديهم إلى الثريد وينقلون ما في القصعة إلى بطونهم متعجلين بسبب ما يشعرون به من الجوع.

ويختتم سيدنا الغداء بحمد الله ويردد الجميع عبارته، ثم يخرجون إلى شارع أم الغلام للراحة أو للعب ساعة، ثم يعودون لما كانوا عليه في الصباح حتى يتم حفظ اللوح، وينصرفون إلى بيوتهم بعد صلاة العصر. وفي يوم الخميس يحمل كل صبي إلى سيدنا نصف قرش أو قرشاً كاملاً وهو أجر التعليم في الأسبوع، وكلما انتهى الغلام من حفظ سورة يمتحنه سيدنا بتلاوتها أمامه، فإذا اقتنع بأنها حفظت جيداً تكتب خاتمتها على لوح من

الخشب المدهون بالطلاء الأبيض تحت رسم باللون الأحمر أو الأخضر، ويحمل الصبي هذا اللوح إلى أهله ليفرحوا بنشاط ابنهم، ثم يردونه في الصباح ومعه ما يجودون من النقود لسيدنا المحترم من الجميع.

٦

أبليت الثوب المفرد الذي كان يسترني حين طردت من سراي الهانم الكبيرة فعوضني عنه والدي جلابيب من الغزل، ورأيت أعمامي يلعبون في الشارع وفي الحارة بدون نعال فأهملت نعلي وألفت الحفاء مثلهم، وكنا نرى عربة تسير في الشارع ترشه بالماء فكنا نتعرى إلى الفخذين ونجري خلفها نتلقى الماء المرسل من أنابيبها على أفخاذنا، وندوس في الو-حل في مرح، ثم نعود للعب في التراب إلى غروب الشمس. ويحين وقت العشاء فنصعد إلى البيت ونتناول طعام العشاء جلوساً حول طبلية من الخشب اختفي سطحها تحت بقايا الطبيخ الذي يتساقط عليها منا ثم يجف بدون غسلها، فإذا انتهينا من الطعام ننتقل إلى حيث ننام نحن الستة على الحشيتين.

وكنت أرى والدي نادراً، بل أهرب من مقابلته بسبب قسوته علي، فكان أمري كله موكولاً إلى زوجته حبيبة الحبشية، فكانت تعنى بي على مثال عناية زوجة جدي بأولادها، فتتركني ألهو وألعب معهم حافياً ثم أنام وعلى قدمي الوحل الجاف.

لست أدري كم من الوقت قضيت في هذا البيت، ثم انتقل والدي إلى قنا عضواً في مجلس القرعة فانتقلنا معه، وهناك دخلت مدرسة أهلية أنشأها المرحوم الخواجة بسادة ليتعلم فيها أولاده وأولاد اخوته. وكانت المدرسة حجرة واحدة متسعة مستطيلة الشكل، ومقاعد التلاميذ مرصوصة بجانب الجدران، ولها معلم واحد طويل، فينتقل المعلم طول النهار من فصل إلى فصل يعلم التلاميذ القراءة والكتابة والحساب ومبادئ اللغة الفرنسية. وزاملت في هذا المكتب حمدي سيف النصر (باشا)، لأن والده كان رئيس مجلس القرعة برتبة صاغ، وكان والدي برتبة ملازم أول.

انتهى المرحوم عمي حسن كامل من دراسة الحقوق، وعيّن في قنا بوظيفة مساعد نيابة فأقام معنا في البيت في جناح خاص، والذي أدل عليه بكلمة جناح غرفتان متجاورتان إحداهما بدون نوافذ ولم تعرف إطلاقاً ضوء الشمس ولا الهواء النقي المتجدد، واقترن عمي بابنة خالته وأحضرها إلى قنا وسكنت ذلك الجناح المحبوس، لأن حجرته الأولى تطل على فناء البيت. ولأول مرة رأيت من يحنو علي بعد انتقالي إلى رعاية والدي.

كانت عطلة المدرسة في يوم الأحد فكنت أذهب مع والدي إلى الغرفة التي يسميها مكتبه، وهي إلى جانب مركز البوليس وفي مستواه، وأمام هذا البناء الطويل يقوم بناء المديرية وبين البناءين ميدان فسيح به أشجار اللنج العالية ذات الظل الوارف، فكنت ألعب أحياناً في ظل هذه الأشجار.

ولم تعرف في ذلك الحين وظيفة «مأمور المركز»، إنما يرأس قسم البوليس ضابط برتبة يوزباشي له لقب معاون البوليس،

فيرتدي هذا الموظف ثوب ضابط من الجوخ أو الصوف الأزرق، وعلى كتفيه الأزبليطة التي ترص فوقها النجوم الدالة على الرتبة، وحول هذه الأزبليطة شريط من النسيج المقصب ذات لون ذهبي، وعلى جانبي البنطلون شريطان من هذا النسيج الزاهي اللون. وكان طول الزمان والمؤثرات الجوية تؤثر في هذا النسيج البراق فتصدأ أجزاء منه وتبقى غيرها زاهية لامعة فيتشوه مشهد الثوب غير الجديد.

وحدث مرة في الشتاء أنني رأيت مشهداً عجباً على الدرجات القليلة التي ترتفع من الأرض إلى بناء المركز، رأيت حضرة المعاون بثوبه الرسمي جالساً على أحد هذه الدرجات ورأسه في حجر عسكري، وطربوشه فوق طربوش الجندي، وهذا يبحث بإصبعه في شعر حضرة المعاون ليصطاد القمل ثم يقتله بظفره على بلاط الدرج. مشهد كان مألوفاً في ذلك الحين البعيد، ولكنه لا يزال على لوح ذهني يتجدد تصوره كلما دخلت فناء قنا. ولم نكن نعرف المشط في ذلك الزمن، وكان القمل يسكن رؤوسنا، وكانت الحبشية زوجة أبي تدهن شعري بالبترول، وتبقيني في الشمس الحارة وقتاً ما ليتألم القمل من البترول ثم من تأثير حرارة الشمس فيه، فيحاول الهرب من مخابئه في جذور الشعر ويسرح إلى ما حوله من الفضاء، فيظهر لعين الحبشية فتصطاده بسهولة وتقتله.

وحدث مرة أنهم جاءوا بحمير كثيرة فركبناها من فناء المديرية وقصدنا إلى النيل، وكان الركب خليطاً من كبار الموظفين وأعضاء مجلس القرعة، فلما بلغنا شاطئ النهر نزلنا إلى سفينة «دهبية»، ونزلنا فريقاً بعد فريق لنفاجأ برؤية المصباح الذي

لا يدخن، منعت الدخان زجاجة للمصباح، ولم يكن الناس يعرفونها إلى ذلك الحين، فقد كان في كل حجرة من حجر البيت فجوة يوضع فيها مصباح من الصفيح تنير ذبالته ويتصاعد منها دخان يحبسه سقف الفجوة.

٧

كان مجلس القرعة ينتقل في مراكز المديرية لإتمام عملية الاقتراع، ويقيم في كل مركز وقتاً يطول أحياناً أو يقصر، فإذا كانت الإقامة طويلة تنتقل عائلات أعضاء المجلس معه، وكان بين الضباط أعضاء المجلس ضابط سكندري يدعى محمد أفندي دسوقي وعمله أثناء الاقتراع قياس المقترعين، وكان جريئاً ومرحاً على الدوام وكانت له زوجة وابنة منها تدعى جميلة، وكنا نسكن متقاربين، فكنت أرتاح لهذه الفتاة لأنها كانت تجود علي بالسكر الأحمر أو بعيدان القصب أو بقدح من الشربات كلما قصدت إلى بيت والدها لألعب معها.

كانت وديعة وظريفة وتغمرني بحنانها، كانت في بعض الأحيان تتأرجح معي في مرجيحة مصنوعة من حبال مربوطة في شرائح النخل التي تسقف مدخل البيت، ثم تربط طرفي الحبلين في كرسي قصير جداً من الخشب فتجعله مقعداً للمرجيحة كنت أبتهج جد الابتهاج بهذه التسلية الجديدة التي لم أعرفها من قبل. وكنت أحنّ على الدوام لزيارة هذا البيت لأتلذذ بما

يعطى لي من الحلوى وبما يتجدد من أنواع اللعب. كذلك كانت أم الفتاة تتودد إلى حبيبة الحبشية زوج والدي، وكانت هذه الجارية وديعة هادئة قليلة الكلام ولا تحسن النطق باللغة المصرية كجاريتها حليمة لأنهما عاشا الشطر الأول من حياتهما في السودان الجنوبي في الجهة الشرقية منه حتى اشتراهما والدي وجاء بهما إلى مصر.

سألني والدي يوماً عن ست جميلة، سألني عن طولها وعن جسمها وعن لونها وعن أجزاء وجهها: العينين والأنف والفم، فكنت أجيبه إجابات يطمئن لها ويرتاح ويكافئني من الحلوى، وكنت أذكر لصديقتي الكبيرة أسئلة والدي وإجاباتي عليها فتضحك وتزيد فيما تهديه إلي من الحلوى أو الشراب المسكر، ورفعتني مرة إلى صورة مثبتة في الحائط لحسناء نحيلة وسألتني:

«هل بيني وبين هذه الصنيورة شبه؟».

فوكدت لها أن الشبه بينهما تام. لم أكن أكذب أو أداجي إنما كنت أعتقد أنني أصدق في الحكم، وكان الشبه بين الاثنتين موجوداً إنما في النحافة وحدها!!.

وكانت في بيتنا مثل هذه الصورة، لأن جميع أعضاء المجلس اشتروا من نوعها في وقت واحد من قنا من بائع واحد، ويظهر أنني كنت على يقين من والدي أنه يرتاح لكل ما يذكر عن ألست جميلة وخاصة عن وصفها، ورأيت مرة في يده علبة من الخشب الأحمر الرقيق ملأى بحلوى تسمى ملبن أعطاني منها قطعة واحدة، ولكنني كنت أطمع بأكثر منها، وكان نائماً في القيلولة على سجادة وأنا أروح له، والصورة مثبتة فوق رأسينا،

فهداني شيطاني للانتفاع بهذه الصورة لأرضي والدي وأستخلص منه شيئاً من الملبن فقلت له:

«بابا.. شايف الصورة المعلقة فوق رأسك؟»

فقال: «ما لها يا واد»، (ونظر إلى الصورة).

فقلت: «تيزة جميلة زيها تمام».

فنهض والدي من ضجعته وأمعن النظر في الصورة برهة، ثم حملني على ذراعه وسألني:

«صحيح يا حافظ.. هي تشبه للصورة دي؟».

فقلت «زيها تمام يا بابا..»

وكانت هذه العبارة طلسماً فتح علبة الملبن فأخذت منها أكثر من قطعة.

خطبت تيزة جميلة إلى والدي وتمّ العقد وجاءت ليلة الزفاف في مدينة دشنا.. فرصت أمام منزل العروس دكك من الخشب جمعت من الدور، وصنع الصيوان من برد النساء، وعلقت في سقف الصيوان الصغير فوانيس بداخلها المصابيح الكبيرة ذات الدخان. والبردة نسيج من غزل الصوف تستر به المرأة كل جسمها، وتطرح جزءاً منها فوق رأسها ينزل إلى صدرها، وتترك شقاً صغيراً بين حافتيها ترسل منها نظراتها إلى الطريق، وتخفي هذه الفرجة بسرعة إذا صادفت أمامها رجلاً مقبلاً لناحيتها، وتتدلى البردة إلى الأرض لتخفي القدمين، ويجري ذيلها على الطريق كمكنسة فيثير وراءه الغبار.

جلس المدعوون على هذه الأرائك، أما المدعوات فكن في الحريم يستمعن إلى طبلة تطبل عليها امرأة محترفة لترقص على

نغماتها راقصة من أهل الصعيد ثم تتعالى الزغاريد. غلبني النوم من طول السهر فنمت على حشية في غرفة نوم عميقاً، ونبهتني من النوم الحبشية زوجة أبي لأنه كان يلح في طلبي، فقادوني إليه يغلبني النعاس. ورش والدي على وجهي ماءً لينبهني ثم سألني:

«هل عند كوبيا حمرا؟»

وأخذني إلى بيتنا فسلمته صندوقاً من الصفيح فيه الكوبيا التي يسأل عنها، ففرح به وجرني من يدي إلى فناء مسور به المواقد التي يطهى عليها الطعام، وسلم الصندوق إلى الطاهي وقال له:

«أدي الكوبيا الحمراء يا أسطى، لوّن بها البالوظة أحسن دهبية المدير رست في البلد.... وعرف أن فيه حفلة زفاف وسيشرفنا الآن.... فاعمل البالوظة الملونة بالعَجَل»[1].

ومن هذا الوصف الموجز تدرك نوع حضارة الموظفين، أرقى طبقات المصريين في ذلك الزمن..

أقامت العروس مع العريس أسبوعاً في منزل والدها ثم انتقلت إلى بيتنا وخصصت لها أحسن الغرفتين اللتين يتكون منهما الطابق الثاني من البيت وجعلت الغيرة تدب في الزوجة الحبشية، ودلت عليها مرات دلالات واضحة كانت تؤدي إلى ثورة والدي عليها.. ولما عدنا إلى قنا بنى على السطح غرفة فسيحة لزوجته الجديدة ليعزلها عن الأولى، ولكن هذه العزلة لم تمنع الحبشية من الاستمرار على الغيرة الشديدة، وكنا نجتمع عادة بعد

(١) أي بسرعة من التعجيل.

العشاء في غرفة فسيحة من الجناح المخصص للحبشية، عمي وزوجه ووالدي وزوجتاه ثم يوزع علينا ما أحضره من الفاكهة أو البندق أو اللوز أو التين المجفف أو الملبن.

أما نحن فيأكل كل منا نصيبه، وأما جميلة هانم فلا تأكل وتترك نصيبها إلى جانبها على الدوام، وتنصرف إلى النوم دون أن تأخذه معها. ووالدي يلاحظ عليها أنها لا تأكل. وفضحت الحبشية سر هذه القناعة مرات. كانت تصعد إلى السطح بعد نوم الجميع أو في الفجر وتحضر قشوراً كثيرة لمثل ما أكلنا بعد العشاء وتلقيها أمام عمي وزوجته وتقول:

«شوفي يا كويا... اللي بيقول عليها مش بتاكل!»،...

وكانت نتيجة هذه الغيرة أنها طلقت وأرسلت إلى القاهرة وأنا معها لألتحق بالمدرسة القريبة[1]، وفرض لنا للمعيشة ١٥٠ قرشاً كل شهر منها أجرة السكن.

---

(١) بأحد الأحياء القديمة بمدينة القاهرة.

٨

أُلحقت بالسنة الثالثة وكنت في سن أو في رعونة لا تهديني الآن إلى تذكُّر من كانوا زملائي في تلك المدرسة مدى عام دراسي كامل. سكنَّا في غرفة بمنزل في حارة برجوان، غرفة على سلم البيت مظلمة لا يدخلها نور الشمس ولا منفذ لها لتجديد الهواء سوى الباب، وكان النور ليلاً ينبعث ضئيلاً من مصباح له زجاجة، لأن العالم عرف زجاج المصابيح. أذهب صباحاً للمدرسة في جلباب، ومعي لطعام الغداء رغيف من الخبز ونصف قرش لشراء الإدام، فكان على الدوام طول العام: سلطة وطعمية. ولست أذكر أنني استذكرت دروسي في البيت إطلاقاً، لأن الغرفة ضيقة لا تتسع إلا للسرير، ومائدة الطعام: الطبلية، وفي رعاية دادا حبيبة عرفتني النظافة والشدة في منعي من اللعب في الحارة ومن الغياب عن البيت.

ولكن جدي الحاج حسن لم يكن راضياً عن وجودي بعيداً عن بيته، وكان يسعى في إصرار لنقلي إلى رعايته لا بتأثير العطف علي أو الرغبة في العناية بي إنما للحصول على الـ ١٥٠

قرشاً التي ترسل للدادة من والدي في كل شهر، وعاونت زوج أبي (جميلة هانم) ذلك الجد لتحقيق رغبته، فأطاع والدي مشورتها وأمر بنقلي إلى منزل جدي فاختل نظام حياتي من جديد، وعدت إلى اللعب حافياً وإلى القذارة العامة في ذلك البيت.

وبلغ بي الأمر إلى حدّ الغياب عن المدرسة أياماً كثيرة متوالية، فآخذ الرغيف وأودع الكتب في دكان بائع، ثم أنطلق إلى الكوبري الأعمى[1] غرب كوبري قصر النيل، فأقضي النهار في الاستحمام في مجرى الماء الذي يقوم عليه ذلك الجسر، وألعب مع أمثالي من الهاربين من المدارس أو الدكاكين التي يتعلمون فيها الصناعة، فإذا قرب موعد الخروج من المدرسة أكرّ راجعاً إلى البيت ماراً من شارع الغوري وهو الشارع الموصل بين المدرسة وطريق البيت.

لم تسأل المدرسة عن غيابي بسبب اضطراب النظام في ذلك العهد ولم ينكشف سر هروبي المزمن إلا مصادفة، كنت ماراً بشارع الغورية[2] متجهاً إلى شارع السكة الجديدة لأصل منه إلى المدرسة الذي يقوم البيت في نهايته.

وبينما كنت في الطريق وأمام الدرب المؤدي إلى حي الكحكيين فوجئت بيد تقبض على عنقي بعنف وبصوت يقول لي: «جاي منين يا واد» لقد أخطأت في تقدير وقت انصراف التلاميذ من المدرسة، وتصادف مرور جدي في ذلك المكان وقت مروري منه فعجب لخروجي من المدرسة قبل موعد الانصراف وأدرك أنني تغيبت عنها ذلك النهار. كانت المفاجأة

(١) الآن كوبري الجلاء بين منطقة الجزيرة ومنطقة الدقي بمدينة الجيزة.

(٢) بمنطقة الأزهر أحد أقدم أحياء القاهرة

مزعجة وخيمة العاقبة وهي علقة حامية طبعاً، فهيأ لي الخبث أن أضلل ذلك الشيخ بصورة تبعثه على الشك في شخصيتي، خطرت لي الفكرة في سرعة ونفذتها بجرأة. صرخت في وجه جدي قلت له:

«مالك يا عم !.. عاوز مني إيه؟»

واستشاط الشيخ غضباً وانهال علي بيديه يضربني في غير محاذرة: فصرخت من الألم فاجتمع حولنا الناس، كعادتهم في التكأكؤ[1] على مكان كل حادث، فقلت:

«حوشوني يا ناس الراجل ده سماوي وعاوز يخطفني».

تكررت حوادث اختفاء بعض الغلمان، وكان الجهال ينسبون غيبة الغائبين لأحد سببين: الخطف بواسطة السماوي أو بواسطة اليهود ليعجنوا فطيرهم بدم الغلام المخطوف. وصدق الحاضرون دعواي وانهالوا على جدي تقريعاً، وامتدت أيدي المتحمسين إلينا تحاول إنقاذي من يدي جدي ولم يصدقوا دفاعه وأنني ابن ولده، وقال أحدهم:

«من المستحيل أن تكون جده لأنه ينكرك ويتهمك بمحاولة خطفه، فأنت السماوي صحيح»

وانحل شال عمامة الجد المسكين، وتكاثر عليه الخلق ليسوقوه إلى قسم البوليس وهو مستميت في تلابيبي ويداه تستعصيان على المنقذين، وفجأة جاء الشيخ حسن حبيشة التاجر بالغورية ودكانه قريب جداً من موضع الحادثة فشق الناس ووصل إلينا وألسنة الناس تصيح:

---

(١) التجمع والالتفاف.

«سماوي أهو ده السماوي ودوه القسم، جروه».

والشيخ حسن حبيشة معروف في ذلك المكان، وهو زوج لبنت جدي (عمتي) فصاح في الناس:

«سماوي إيه يا جماعة، الواد ده شقي وهو ابن نجيب أفندي ابن الحاج حسن ده. وأنا زوج بنته»..

ونزل على صدغي بكفيه وعجب المجتمعون لجرأتي وإنكاري جدي، وحنقوا علي، فصاح أحدهم يقول:

«أما واد مجرم صحيح ده لازمه علقة تدوب رجليه».

وجرني جدي إلى البيت وهو في غيظ مني وغضب علي، وصاح بزوجته يطلب منها حبلاً، فكتفاني وأنا طريح، واستحال الغضب إلى عملية ضرب، وبلغ الغيظ حد الجنون فجعل الرجل يعضني بأسنانه، فلم يؤلمني العض وارتحت له، فجعلت أصرخ وأسترحم الثائر فقلت له:

«عض ولا تضربش»

فضّلت العض على الضرب لأن جدي بدون أسنان!!.

٩

نقل والدي من قوة الجيش إلى البوليس وعيّن بوظيفة معاون بوليس طهطا، وعين عمي حسن كامل قاضياً بمحكمة أسيوط الأهلية، وحضر والدي إلى القاهرة أياماً بسبب ظروف العمل، وكانت معه زوجه جميلة هانم فرأت نوع معيشتي والفوضى التي أعيش فيها، ورأت ما علي من الثياب البالية والقذارة التي تغطيها فأشارت على والدي بنقلي معهم إلى طهطا، وتنفّذ الرأي، فقضيت المدة الباقية من العام الدراسي في مدرسة الفرير بطهطا، ثم انتقلت بعدها إلى منزل عمي بأسيوط، وأُلحقت بالسنة الرابعة بالمدرسة الأميرية.

كنت صغيراً إلى جانب زملائي الكبار، وكان التعليم يرتكز على الشدة وعلى الضرب بالخيزران، ونالني نصيب كبير من لكمات مدرس اللغة العربية «الشيخ عوض» ومن ضابط المدرسة بطرس أفندي، إسرائيلي[١] كان يعلمنا اللغة الفرنسية. وحدث

(١) يقصد الكاتب أنه «يهودي» الديانة، وكان هذان اللفظان: «يهودي» و«اسرائيلي» يستخدمان كمترادفين، وبخاصة قبل أن ينشأ الكيان الصهيوني ويسمى. وقد كرر حافظ نجيب استخدامه بالمعنى نفسه في مواضيع عديدة من اعترافاته.

أثناء ذلك العام الدراسي أن والدي رغب في مشاهدتي، فسافرت إلى طهطا لقضاء يومي الخميس والجمعة، وغمرت في اليومين بأنواع من الحلوى وبكميات من البلح السيوي الجاف، ثم أعدت إلى أسيوط مزوداً بهدية منه.

لم ترتح نفسي للعودة، وصرت قلقاً لا يقر لي قرار أطمع بالبقاء في طهطا حيث الحلوى وأنواع البلح المختارة، وأحن لأصدقائي الذين ارتحت للعب معهم أثناء وجودي بمدرسة الفرير، وقوي عزمي على تنفيذ هذا الرأي فخرجت صباحاً للذهاب إلى المدرسة ومعي الرغيف والطعام للغداء، ولكنني لم أذهب إلى المدرسة وقصدت إلى شريط السكة الحديد فاعتمدت عليه للبلوغ إلى طهطا سيراً على الأقدام. كان الشوط طويلاً على صبي، ولكني احتملت عناء السير لأبلغ إلى غايتي، فوصلت إلى منزل والدي بعد العشاء، ولحسن حظي كان والدي غائباً في دورية ليلية، فأكلت ونمت.

قبيل طلوع النهار أيقظني والدي في غضب، واستقبل يقظتي بعلقة ألهبت جسمي وقدمي، وردّني في الصباح إلى أسيوط فدخلت البيت في خزي وانكسار، وقد شكوت لوالدي من المعاملة التي ألقاها في بيت عمي، ولكنني كنت كاذباً في كل ما شكوت منه، لأن عمي كانت له أخلاق رضية كريمة، وكان منزهاً عن كل عيب ينسب إلى الأخلاق أو الرجولة أو العقل أو الوصف كرب أسرةٍ هادئة تعيش في اطمئنان وهناء..

أما المرحومة زوجة عمي فكانت ملاكاً في جسم إنسان، كانت المثل الأعلى للمرأة الشريفة المتزنة الوديعة ربة البيت المنظم كانت تحنو علي وترضيني تحقق رغباتي المعقولة وتشملني على الدوام بالرعاية والعناية.

وفي أسيوط تعلمت السباحة، لأن البيت كان في «المنشية» وله باب آخر يؤدي إلى المزارع، وفي زمن الفيضان تغمرها مياه النيل، وكان بالقرب من البيت فجوة عميقة تبقى مليئة بالماء بعد زوال مياه الفيضان عن الأرض، وفي هذه البركة الفسيحة تعلمت السباحة.

وكان من عادة العقلاء، في ذلك الزمن قضاء كل أوقات الفراغ في بيوتهم، وفي الليل يتزاورون في هذه البيوت في المنادر[1]، وكان من أصدقاء عمي الذين يزورونه من حين لآخر قاض اسمه «مصطفي حلمي» وأرجو أن يحتفظ قارئ اعترافاتي بهذا الاسم وبنوع صلته بعمي لأن له شأناً معي بعد أعوام ستثبته هذه السيرة.

وغاب عمي عن أسيوط في إجازة طويلة قضاها بالإسكندرية، وترك لصديقه القاضي مصطفي حلمي واجب الإشراف على البيت فكان الخادم «محمد» يلجأ إليه في كل شأن هام تقضي الظروف بالرجوع إليه فيه. وحان موعد امتحان الشهادة الابتدائية في عام ١٨٩٢، وكان هذا الامتحان جديداً على الطلبة فتحدثوا عنه بروايات كثيرة بقي في ذهني منها من تخريف التلاميذ أن كل داخل للامتحان تقطر له في عينيه قطرة حامية قبل الدخول، ثم يمتحن وهو يتألم من القطرة وكانت زوجة عمي تقطر لي في عيني قطرة نترات الفضة، فكانت الجارية صباح تضع رأسي في حجرها وتقيد ذراعي بيديها القويتين لتمكن سيدتها من صبّ قطرات القطرة في عيني،

(١) جمع «مندرة» وهي كلمة كانت تطلق على غرفة استقبال الضيوف في المنازل الريفية حتى وقت قريب.

فكنت أصرخ وأرقص ويطول بكائي إلى وقت غير قصير بعد تلك العملية.

وقد تولاني الفزع من حكاية وضع القطرة في العيون قبل دخول مقر لجنة الامتحان، وقضيت الليل في التفكير في وسيلة تنقذني من ألم هذه العملية فلم أهتد لشيء سوى الهرب من الامتحان، وقبيل إشراق الشمس تسللت من الفراش وبارحت البيت ومعي رغيف وقطعة من الجبن، وانطلقت من الباب الخلفي إلى المزارع فقطعتها إلى جسر الإبراهيمية واختبأت هناك، وفوجئ أهل البيت باختفائي وتركي ثوب المدرسة. فأرسلوا الخادم يبلغ الخبر إلى المرحوم مصطفي بك حلمي، فخرج بالجلباب وجمع فريقاً من خدم المنازل المجاورة وانطلق بهم في المزارع للبحث عني حتى اهتدوا إلي.

ضربني القاضي وحملني الخدم إلى المدرسة مقر لجنة الامتحان، وكان رئيسها المرحوم أمين بك سامي (باشا بعد ذلك) ناظر مدرسة المبتديان[1]. وكان ناظر المدرسة حينذاك المرحوم السيد أفندي وفائي، فرأى مصطفي بك حلمي في جلبابه الأبيض ورأى الخدم يحملونني بالقوة، فعرَّف رئيس اللجنة بالقاضي، وقصّ عليه هذا ما عرفه مني عن سبب هروبي.

لم يحرمني رئيس اللجنة من دخول الامتحان، وطمأنني واستدعى بائع حلوى على باب المدرسة فأحضر لي شيئاً مما يبيعه من الحلوى المطبوخة، ثم سألني هل أستطيع أن أؤدي الامتحان كزملائي مع أنهم دخلوا قبل وصولي بربع ساعة، فأكدت له أنني أستطيع تأدية الامتحان فأخذني إلى الفصل الذي به زملائي

(١) بحي السيدة زينب بالقاهرة.

وأجلسني في المكان الذي كان معيناً لي، وأعطاني ورقة أسئلة الحساب والورق الأبيض وأدوات الكتابة، ولم يتركني إلا بعد اطمئنانه على أنني استمريت في حلّ المسألة الأول.

وانتهيت من الإجابة قبل زملائي وخرجت، فتلقاني المرحوم رئيس اللجنة وسألني عما فعلت فعرضت عليه المسودة وعليها الحلول والإجابات فانشرح صدره وأدخلني غرفة الناظر فارتديت ثوبي الذي تركته في البيت، وشجعني ثانياً بكمية من الحلوى، وتمّ الامتحان، ثم ظهرت النتيجة فكنت الثاني في الترتيب.

١٠

قبيل امتحان الشهادة الابتدائية نُقل والدي إلى قليوب، فانتقلت إليها بعد الامتحان والنجاح وعشت في ذلك البيت كما يعيشون، وكنت أتسلل في الضحى وأذهب إلى ترعة صيفية خارج المدينة لأتلهى بالسباحة، وكان والدي ينهاني عن ذلك ويضربني، ولكن النهي والضرب لم يمنعاني من المداومة على هذه التسلية.

وحدث مرة أنني كنت أسبح في الترعة فرأيت والدي آتياً على جسرها من ضبط واقعة، كان على جواد وخلفه اثنان من العساكر، ففزعت وخشيت من غضبه فهداني الخوف إلى خاطر سريع يسترني منه فنفذته بسرعة، دهنت جسمي كله ووجهي بالطين ووقفت مع بعض الصبيان على جسر الترعة نلعب ونجري، فمر بنا حضرة المعاون وسمعته يقول لأحد الجنديين:

«أهو الشقي حافظ بيعمل زي دول..».

فحماني هذا التنكر من العلقة التي كانت محتمة لو رآني.

وحل موعد دخول المدارس فأُلحقت بالمدرسة الخديوية مجاناً بالقسم الخارجي بسبب تفوقي في امتحان الشهادة الابتدائية، وسكنت مع الست نفيسة خالة زوجة أبي، كانت المرأة سيدة هادئة الطبع متزنة تقيم في مسكن صغير في رَبع موقعه في حارة السنانين، وفي فرع من شارع أمير الجيوش البراني يوصل بين هذا الشارع وحي الجمالية، وكان زوجها في مثل هدوئها وعقلها، وكلاهما أميّ له عادات العامة وأخلاقهم مع طيبة.

كنت أخرج في الصباح لأذهب إلى المدرسة فأقطع الطريق من هذا الرَبع الحاشد بمئات من السكان إلى درب الجماميز في ساعة تقريباً. وكان ضابط المدرسة، «سيد أفندي عاطف» يتولى تنظيم الطلبة على الموائد وقت الغداء. لم تعين لي مائدة معينة كغيري، فكان الضابط بعد استقرار الطلبة على الموائد يبحث عن أماكن الغائبين ويضعني والبؤساء أمثالي في تلك الأماكن الخالية، فكبر علي أن أوضع كل يوم على مائدة أكون بين أصحابها غريباً عليهم، فاستقر رأيي على عدم تناول طعام الغداء ثم نفذت هذه الفكرة، وصرت أقضي وقت تناول الطعام في حديقة المدرسة.

كان مرتب معاون البوليس حينذاك ٩ جنيهات في الشهر فصار يدفع منه للست نفيسة جنيهاً واحداً في كل شهر مقابل السكن وطعام العشاء، وهو مبلغ قليل لا يكفي نفقاتي، فلا يمكن أن يدفع منه مليم واحد لنفقات جيبي وكل صبي يحتاج إلى شيء من النقود لإرضاء رغباته، وزاد على هذا الحرمان عدم تناول طعام الغداء في المدرسة، فكنت أشعر بالجوع من منتصف النهار، وتجذب نظري في كل خطوة في الطريق ذهاباً وإياباً مناظر الحلوى المنوّعة والفاكهة وشتى المغريات.

حملتني هذه الأسباب على البحث للاهتداء إلى حيلة لاستكمال هذا النقص، فصرت أبيع كتبي واحداً بعد الآخر إلى تاجر في الموسكي اسمه أمين هندية، وطبعاً كان الشاري يدفع لي أبخس الأثمان، وتمكنت بهذه الوسيلة من إمتاع نفسي بالبليلة أو الفاكهة عند عودتي وحين الغداء، وبالحصول على ما يسيل له لعابي من الحلوى في الصباح، وبشراء خبز من المدرسة.

بعت الكتب كلها، ولم أعن إطلاقاً بالتنبه للدروس ولا بالمراجعة ليلاً للاستذكار، وعوضت نفسي عن المذاكرة بسماع «الحواديت» ليلاً في الرَبع[1] من الصبيان أمثالي والبنات حتى يحين موعد الست نفيسة للنوم فتناديني من طرقات الربع لأنام كما تفعل هي وزوجها.

لم أنجح طبعاً في نهاية العام الدراسي وحرمت من المجانية، ثم ألحقني والدي في العام الدراسي الجديد بالقسم الداخلي بالمصروفات، واتفق مع إدارة المدرسة على دفع شهراً بشهر من مرتبه، ولكنه عجز عن الدفع بعد ثلاثة شهور، وتراكمت عليه ديون بسبب ضآلة مرتبه فحجزني في البيت بقليوب.

وكان وجودي بدون عمل في البيت فرصة طيبة للجميع فاغتنموها، ونيط بي حمل أختي الصغيرة بهية وتسليتها لتتفرغ جميلة هانم لقضاء أعمال البيت اليومية، فضيعت عاماً على هذه الصورة، وكانت العادة السماح لي بالخروج للعب بعد عصر النهار، فتعطيني تيزة جميلة هانم مليماً وتطلب مني العودة قبل الغروب، فكنت أنطلق كالسهم وألعب مع الصغار في ميدان بجانب البيت يسمى ميدان: «سيدي عواد».

(١) يقصد الحي السكني، والتعبير يطلقه غالباً أهل الحي الشعبي.

ولم يخلُ هذا الزمن من المنغصات ومن العلق الحامية إذا غضب والدي علي وأسباب الغضب كانت كثيرة طبعاً. حدث مرة أن الست أم جميلة هانم كانت تعجن وأمامها خادم تروح على الماجور لتمنع الذباب من السقوط في العجين، فوقفت بعيداً عن الست وجعلت أرقص على صوت ضربات العجن، وأقول على وزن تلك النقرات سن ـ سن ـ سن، غضبت الست من عنادي وصرخت بصوت مزعج، ضربت بالصوت، وشقت جلبابها، ففزعت جميلة هانم من صياح أمها وأطلت عليها من الطابق الثاني وسألت عن الخبر، فاندفعت أمها تشكو مني، وتدعي أنني كنت أقول بالسم بالسم فكانت النتيجة ثورة عالية الضجيج.

وأدركت مما حدث مقدار ما سيكون عليه غضب والدي، لأن جريمتي في هذه المرة جناية اعتداء على حماته، فحملني الخوف من الضرب المنتظر على الهرب من البيت... ليس لي ملجأ سوى بيت جدي لأن جدتي لأمي باعت ما تملك ورحلت إلى الآستانة، فقصدت إلى القاهرة ماشياً بجانب شريط السكة الحديد، فوصلت عند الغروب إلى جسر فوق ترعة تمر عليه القطارات، فأردت اجتيازه فمنعني حارس كان يتوضأ قريباً منه، وأشار علي بالمرور فوق جسر آخر في الناحية الغربية من ذلك المكان ويبعد عنه كثيراً ثم أرتد إلى شاطئ الترعة هذه المسافة نفسها لأعود إلى شريط السكة الحديد، فشق علي الأمر لأن الجسر المحرم المرور عليه لا يزيد طوله عن عشرين متراً أستطيع قطعها في دقيقة فبكيت.

وأشفق عليَّ الرجل وسألني عن وجهتي فقصصت عليه أمري وما سببه لي الخوف من الضرب، فأخذني إلى كوخه القائم

بجوار الترعة وفيه زوجه وعياله، وحكى حكايتي لامرأته فأشفقت علي ورحبت بي، فقضيت الليلة عندهم. ونمنا بعد تناول طعام العشاء، ولكنني أرقت بسبب التعب والخوف من نتائج اعتدائي على الست زنوبة ثم هروبي، وظن الزوجان أنني نائم فصارا يتساران مطمئنين.

فسمعت المرأة تعرض على رجلها فكرة استبقائي عندهم لأعاونهم في حمل طفلها الصغير فلم يحبذ الرجل الفكرة، وجعل أسباب الرفض أنني ابن معاون بوليس قليوب وسيبحث عني بشتى الوسائل، ومن المصادفة المزعجة أن دورية الخيالة مرت بالكوخ في تلك اللحظة وعلى رأسها والدي، فتلقاه حارس الجسر وتحدث معه، وسمعت والدي يسأله هل رأى غلاماً يقطع الجسر متجهاً إلى القاهرة ووصف له الغلام، وأدرك الحارس أن والدي يسأل عني فتجاهل وأنكر أنه رآني.

شكرت هذه العائلة في الصباح وقصدت إلى القاهرة ثم إلى بيت جدي فوجدت عمي وعائلته هناك، فشكوت لهم من قسوة والدي. وحضر والدي وآل بيته للسلام على أخيه، واقتضى الحال التحدث في موضوعي، ثم استدعيت أمام الجميع فكررت الشكوى وأسهبت في وصف القسوة، ولم يكن لهذه المواجهة أي تأثير في والدي سوى زيادة حنقه علي بسبب جرأتي في الشكوى منه ومن زوجه وحماته، ولم يكتمل عقلي في تلك السن فلم أزن تصرفات هذا الوالد معي، ولم أدرك الباعث على قسوته.

وعلم والدي بعد حين طويل وقرب نهاية العام الدراسي أن نظارة المعارف ترغب في الحصول على طلبة لمدرسة رأس التين

الأميرية داخلية ومجاناً، إنما على ذمة إلحاقهم بالمدرسة الحربية بعد إتمام الدراسة الثانوية. وكل تعليم مجاني يهرع إليه الناس، فأسرع والدي إلى تلك النظارة وعرضني على المستشار الإنجليزي فقبلني لصغر سني، ووقع والدي على الشرط الخاص بالمدرسة الحربية.

كنا أربعة من الطلبة المقبولين على هذا الشرط فنقلنا إلى الإسكندرية يرافقنا موظف من النظارة، وكان الباقي على العام الدراسي شهرين، فلم نتعلم شيئاً، ورسبنا في الامتحان وكررنا الدراسة بالسنة الأولى في العام الدراسي الجديد. واستمريت في هذه المدرسة ثلاثة أعوام ووصلت إلى السنة الثالثة، وفوجئنا في أول العام الدراسي بنظام جديد يقضي بجعل التعليم الثانوي يتم في ثلاثة أعوام فقط فاجتمعنا بالذين نقلوا إلى السنة الرابعة وبالذين رسبوا في البكالوريا، فصار مجموع الطلبة في الفصل اثني عشر طالباً.

والذي بقي في ذاكرتي من آثار الزمن الذي قضيته في رأس التين أنني كنت رئيس فرقة كرة القدم، وأن المرحوم إسماعيل حسنين أفندي (باشا بعد ذلك) كان ناظر المدرسة، وكان يدرس لنا علوم الرياضة ثم الطبيعة والكيمياء ولازلت أذكر أنني كنت أنفر من حفظ قواعد اللغة العربية، إن مدرس هذه اللغة المرحوم إبراهيم أفندي كان يكرر معاقبتي كلما سألني لاختباري، وتضايقت مرة من تأنيبه فقلت:

«هو إحنا حنشتغل بعد الدراسة بضرب محمد وقعد زيد؟»

وأثارت وقاحتي غضب ذلك المدرس الحليم فانتزع النعل من قدمه ونزل بها على رأسي وعلى وجهي، ثم سجل اسمي في ورقة المعاقبة وقرر العقاب:

«خبز بلا إدام بقية العام».

ونفذ الناظر هذا العقاب القاسي كنصه، فكنت أقف في نهاية قاعة المائدة وقت تناول الطلبة طعام الغداء ويعطى لي رغيف من الخبز أُرغم على أكله أمام الجميع تحت مراقبة ضابط المدرسة.

وأذكر أيضاً أنني كنت عائداً إلى المدرسة في أول العام الدراسي الثالث وكان والدي في الفيوم، فأعطاني جنيهاً واحداً لأدفع منه أجرة السكة الحديد للإسكندرية، ولأشتري قميصاً أفرنجياً وحذاء، ولأنفق من الباقي طول الشهر. كانت ضآلة مرتب الرجل تجعله عاجزاً عن الإنفاق علي واستكمال حاجاتي الضرورية، فقضيت طول زمن الدراسة في عسر وضيق.

وطلبت إلى المدرسة الحربية بعد إتمام الدراسة الثانوية على تلك الصورة، ونجحت في الكشف الطبي، وألحقت بالمدرسة، فخلعت ملابسي المدنية وارتديت ثوب جندي عادي.

ولكن نظام المدرسة في ذلك الزمن يقضي بحجز الطلبة المقبولين شهراً كاملاً، ويقضي ذلك النظام القراقوشي بوضع هؤلاء الطلبة تحت ضغط عالٍ جداً لتعويدهم الطاعة العمياء والاستكانة للذل وفقدان الشعور بالكرامة، ومن الوسائل التي يدربون بها ضباط المستقبل وضعهم تحت إمرة صف ضباط من الطلبة في السنة النهائية يتولى تعذيبهم بشتى ألوان العذاب والإهانة، ويعلمهم بعد العشاء في أحد الفصول واجبات الطالب في المدرسة.

نؤمر فنقف بعد تناول طعام العشاء صفين في وضع انتباه (زنهار في ذلك الحين) ونبقى في هذا الوضع ساعة أو بعض

الساعة لغير سبب سوى التعذيب، والويل لمن يتململ عند شعوره بالتعب، فإذا دخلنا الفصل للاستماع لدروس الواجبات من المعلم المختار (صف ضباط) نسمع منه أقذر عبارات الشتم والسب والمعايرة ونحن في صمت الأصنام.

وكان من المفروض على الطالب الجديد عدم الاختلاط بطلبة المدرسة إطلاقاً حتى الأخ لا يسمح له بالتحدث مع أخيه، فإذا خولف هذا الأمر تكون العقوبة قاسية ومن نوع الأدب الذي نسمعه من معلمنا المهذب مدرس الواجبات.

وأدركت بسهولة أن طلبة المدرسة لا يفهمون العلوم التي تدرس لهم لأنهم في المعرفة دون الحاصلين على الشهادة الابتدائية، ولأن من العلوم التي تدرس الطبوغرافيا والاستحكامات والهندسة والجبر، فكانوا يجلسون في الفصول كالأصنام ويكتفون من التحصيل بحفظ ما يفرض عليهم من النظم والقوانين العسكرية. وتدوم هذه الحال حتى يطلب الجيش عدداً من الضباط فترقيهم المدرسة، وقد يكون هو الفصل الأول كله أو يتمم العدد من الفصل الثاني الذي يليه «في الأقدمية».

وكان مكتب السردار (القائد العام) ومقره الخرطوم يقذف المدرسة من حين إلى آخر بطلبة من السودان يفرض على المدرسة فرضاً قبولهم، وكلمة «طلبة» بعيدة عن الحقيقة كل البعد لأن أولئك كانوا جنوداً من الفرقة السودانية من نوع: بروجي، أو عسكري مراسلة لضابط إنجليزي حمله الرضا عن سلوكه على الرغبة في تحسين حظه وحالته الاجتماعية، والوسيلة المفردة لتحقيق هذه المعاونة هي قذفه على المدرسة الحربية المصرية مع الأمر بقبوله.

وخصص لهؤلاء المقذوفين لترقيتهم ضابطاً فصلان يتعلمون فيها القراءة والكتابة والنظم العسكرية، وكانوا على الدوام من ذوي الأخلاق الحسنة والطيبة والوداعة، لأنهم يدركون أنهم دون مستوى الجماعة التي يعيشون بينها في جميع الصفات. وكان المفروض على إدارة المدرسة ترقية أفراد منهم في كل مرة يحدث الترقي فيها فيرقون بالأقدمية وحدها دون امتحان.

١١

كنا نستيقظ قبل إشراق الشمس بالأمر يوجه إلى الجميع بواسطة النفير، فيثب الطالب من الفراش إلى السرير يرتبه بعناية ودقة، ثم إلى السلاح فيتم فحصه ثم إلى سرير صف ضابط «رئيس البلوك» فيؤدي له التحية ويقول:

«تمام يا أفندم»

أو: «ينقص كذا من مهماتي».

ويهبط مسرعاً إلى الطابق الأرضي حيث الماء ودورة المياه، ولم يكن هناك للاغتسال سوى صنبور واحد ليغسل منه ٢٠٠ طالب وجوههم وأقدامهم في وقت واحد لا يزيد عن دقائق قليلة، فكانت الضرورة تلجئ الشطر الأكبر من الطلبة إلى التخلي عن غسل الوجه والقدمين.

ويعود الطالب من دورة المياه إلى عنبر النوم ليرتدي ثيابه وليتقلد سلاحه ثم يجري جرياً إلى ميدان المدرسة في الفناء إطاعة لأمر النفير، فتصطف الصفوف في كتيبتين «بلوكين» يتولى

قيادة كل كتيبة ضابط برتبة ملازم أول من الجيش ويتولى القيادة العامة قومندان المدرسة راكباً جواده، ولم يكن للمدرسة الحربية في ذلك العهد قومندان إنما نائب قومندان برتبة صاغ، فيصدر الأمر بالمسير فتخرج قوة المدرسة إلى ميدان الرصدخانة للتدريب في طابور الصباح.

وينتهي هذا الطابور في الساعة الثامنة صباحاً ويعود الطلبة إلى المدرسة ويصعدون إلى عنابر النوم لترك السلاح في المكان الخاص به،ثم ينزلون إلى غرفة الطعام لتناول طعام الفطور، وهو على الدوام رغيف من الخبز وزنه ١٠٠درهم، ثم إناء به شوربة عدس يوزع على عشرة تلاميذ على قلة ما فيه.

ويأتي الخدم يحملون على رؤوسهم «طبالي»[(١)] عليها أكواب من القهوة المخلوطة باللبن ،فيثب ذو الجرأة إلى الأقداح وثباً سريعاً ويتناول الطالب بيده أو بيديه ما يستطيع خطفه من هذه الأقداح، ثم يسرع إلى مكان بعيد ليشربه هنيئاً، أما ذوو التأدب والحياء فلا ينالون شيئاً. وفي الساعة التاسعة ينادي النفير ليذهبوا إلى الفصول للدراسة، وتذهب فرق أخرى إلى طابور الرياضة البدنية في مكان خاص خارج المدرسة لمدة ساعة، ثم تعود لتلقي الدروس في الفصول إلى الظهر.

لم يكن عدس الصباح يكفي لتغذية طالب في طور الشباب والفتوة يقضي طول النهار في بذل مجهودات بدنية في التدريب العسكري، أو في التدريب الرياضي، أو في تعلّم علم الاستحكامات العسكرية على الطبيعة، ويقتضي التدريب العملي

---

(١) جمع «طبلية» وهو لفظ مصري دارج يطلق على منضدة خشبية غالباً مستديرة منخفضة الارتفاع تستخدم لتناول الطعام

حفر خندق وعمل واقيات من أكياس تملأ بالتراب، وما يشبه هذا من شتى الأعمال، إذن كان الجوع يفرض على الطالب استكمال حاجته من الغذاء بالفول المدمس.

وهذه الحاجة حاضرة على الدوام، لأن «خالتي شفا» العجوز الضريرة تجلس في ردهة إلى جانب غرفة الطعام وأمامها قدر الفول الساخن، وإلى جانبها ابنتها الصبية «صديقة» وإناء مملوء بالسمن السائل ذي الجاذبية القوية، يحمل الطالب إناء ويجري إلى «خالتي شفا» فيغرف من بطن القدر مغرفة واحدة من الفول، وتملأ صديقة الحسناء مكيالاً صغيراً من السمن تصبه على الفول، وترش عليه الملح في نظام وسرعة، ويدفع الطالب ثلاثين قرشاً في نهاية كل شهر لبائعة الفول سواء استوفي حقه من هذا الغذاء أم تعطل عن الحصول عليه لأي سبب، لأن خالتي شفا وابنتها ليست لهما دفاتر لقيد الحساب..

والذي سمعته عن تاريخ «خالتي شفا» أنها تولت هذه التجارة الرابحة في المدارس الحربية زماناً طويلاً يزيد عن نصف قرن يثبت هذا أنني رأيت ماهر باشا (والد علي ماهر باشا)[1]، وكان حينذاك محافظ مصر، يقف في الطريق مرة أثناء رياضته ويحنو على «خالتي شفا «ويتحدث إليها، وسمعته يقول لها:

«أنت لك فضل علينا كلنا... علفِتنا ونحن شبان»...

وتركت شفا بعد موتها (في غير زمني) ثروة كبيرة لابنتها صديقة الحسناء، وسمعت أن هذه الثروة عاونت الفتاة على الاقتران بضابط كبير من الذين «تمر فيهم العيش والملح».

(١) أحد كبار السياسيين المصريين قبل ١٩٥٢، تولى رئاسة الوزارة.

وطعام الغذاء لم يكن كافياً أيضاً فيزيد عليه الطالب من «كانتين» المدرسة السلطة لتعاونه على بلع ما يتناوله من اللحم، إذا صح أن تسمى تلك المادة المتصلبة لحماً، ويختم الطعام (بالزبادي) أو بحلوى الطحينية يفتتها على الرز المسلوق ليستطيع تناوله.. وثمن هذه الزيادات اللازمة لكل طالب تقتضي منه دفع ٣٠ قرشاً في كل شهر للكانتين إذا لم يشرب الدخان أو يستهلك فاكهة أو حلوى أو شيئاً مما يسيل له لعاب المحروم الجائع. وتنظيف السلاح لا يتم إلا بالقماش والزيت وحجر طفلي ثم بورنيش أسود لدهن الجلد، حاجات ضرورية أكثر لزوماً للطالب في ذلك الزمن من الضروريات لاستكمال النقص في الغذاء.

ومن هذا الوصف ندرك أن حياة الطالب كانت تستدعي أن يتوفر له في الشهر جنيهاً واحداً على الأقل للنفقات الضرورية لحياته داخل المدرسة فقط، بدون المحاسبة على الحاجات الأخرى اللازمة من الثياب الداخلية أو نفقات التريض يوم الجمعة يوم العطلة.

كنت محروماً من جميع هذه النفقات الضرورية عدا خمسين قرشاً كان يرسلها لي والدي في أول كل شهر، ولست أدري كيف قضيت أيامي في المدرسة بدون الحصول على ألزم اللزوميات، إنما جملة الذي أذكره أنني لم أبارح المدرسة إطلاقاً في أيام العطلة الأسبوعية بسبب عدم وجود نقود معي حتى ولا ملاليم لركوب الترام بنصف الأجرة... أما عطلة الأعياد فكانت مرتين في العيدين، قضيت واحدة منها عند والدي بسنورس (فيوم) والثانية (مرغماً) في منزل آل حبشية أولاد عمتي بالقاهرة

لعدم حصولي على أجرة السفر للفيوم[1].

وكنت الطالب المفرد الذي يعود للمدرسة بدون ما يزوده به أهله من أنواع الطعام الشهي. كان الفقر من الأسباب التي حملتني على اعتزال زملائي حتى لا يشعروا بما كنت فيه من الحرمان والعوز الشديد، وكنت أرتاح لمعاشرة طالب واحد اسمه (فريد فهمي) مسيحي ابن قسيس كنيسة حارة السقايين بالقرب من حي عابدين بالقاهرة، ثم ترك حياة الجندية بعد وفاة والده ليحل مكانه قسيساً في تلك الكنيسة، وسيكون له معي شأن هام في الأعوام الآتية بتأثير هذه الزمالة في نفسه الطيبة.

(١) الفيوم: محافظة مصرية تقع غرب النيل، في منخفض يحمل اسمها في منطقة مصر الوسطى (حوالى ستين كيلومتراً جنوب القاهرة).

١٢

زمن الدراسة في المدرسة الحربية كان حافلاً بحوادث متنوعة، منها أن إدارة المدرسة كانت لناظرها المرحوم إسماعيل سرهنك باشا ورتبته (أمير بحر)، ولكنني طول العام الدراسي لم أره في المدرسة سوى مرة واحدة، رأيته واقفاً على الرصيف الداخلي يشاهد الطلبة يلعبون في الفناء الفسيح الواقع وسط بناء المدرسة، ولم يزر المدرسة في ذلك العام إلا هذه المرة الخاطفة.

وكانت القيادة العسكرية والرياسة الإدارية للمرحوم الصاغ محمود صدقي، وكان جندياً بالمعنى التام، ومعلماً للفنون العسكرية يدل تدريبه على معرفة واطلاع وعلى قدرة على التجديد والابتكار، وكان في عمله الإداري مربياً أكثر من آلة لتنفيذ حرفية النظم العسكرية ونصوص القانون، وكانت أحكامه للتأديب لا للقسوة في المعاقبة، وكان نهجه قائماً على الرغبة في استبقاء دوسيه الطالب نظيفاً خالياً من حصر الأخطاء والعقوبات ليرسل معه إلى الجيش عند الترقي، أما الواقع فإن لكل طالب

دوسيهاً محلياً تحصى فيه المخالفات والعقوبات التي نفذت فيه بشدة أثناء الدراسة.

كان لبعض كبار السن من الطلبة عادات سيئة، منها تناول «المنزول» في المدرسة بعد الانتهاء من العمل النهاري ومنها الإسراع إلى دور الملاهي المبتذلة في ليلة الجمعة حين يخرجون للمبيت خارج المدرسة، وحدث مرات أن نائب القومندان فتش بعض المشتبه في سلوكهم وعثر معهم على علب صغيرة من العاج أو المعدن ممتلئة بالمنزول، وهو عجينة مطبوخة بها مخدرات من الحشيش، وقد عوقب كل هؤلاء الطلبة بالعقاب الرادع، ولكن الرجل الطيب القلب كان يودع تلك العلب في خزانة المدرسة وعلى كل علبة اسم صاحبها ليردها إليه يوم ترقيته كتذكار لسلوكه المنتقد.

ووصف نصيب طلبة المدرسة في ذلك العهد، وحظهم من تحصيل العلوم في الدراسة، يجعل الضابط في مثل معلومات أي (ضابط صف) لا أكثر، تبلغ غاية قدرته قيادة كتيبة (بلوك ١٠٠ جندي) يستطيع تحريكها وتوجيهها وتشكيلها إلى صفوف، ونشرها وجمعها، ثم يقف عاجزاً فيما يزيد عن هذا القدر من القيادة، وعلى هذه الصورة من نقص التعليم والإضعاف كانت المدرسة الحربية تكون ضباط الجيش، ليبقى تحت قيادة ضباط إنجليز على الدوام.

ومما أذكره من الحوادث المتفرقة، أنني كنت في صباح أحد الأيام حارساً (ديده بان) واقفاً أمام باب القرقول في نهاية مدخل المدرسة، وإلى جانبي خزانة المدرسة وعليها المراسلات التي جاء بها الساعي من مكتب البريد، لتحمل إلى مكتب القومندان بعد

حضوره إلى مكتبه عقب الانتهاء من تدريب الصباح.

وكان الطلبة في المكاتب يتلقون دروسهم ودخل المرحوم محمود أفندي صدقي نائب القومندان فأديت له التحية العسكرية، فمشى خطوات على رصيف المبنى ثم عاد إلى الخزانة وفحص الوارد من رسائل البريد، واختار من بينها كتاباً مرسلاً إلى طالب أكتفي للدلالة عليه هنا بحرف (ي)، لفت نظره غلاف الكتاب لأنه لون وردي وعليه زهور مطبوعة بالألوان، ثم رفع الكتاب على أنفه وشمه وابتسم.

وفضّ في هدوء غلاف الكتاب ووقف على حافة الرصيف يفحص ما بيده، فأخرج من الغلاف الوردي آخر له لون أصفر فاقع، ثم ثالثاً له لون أزرق باهت، ثم الكتاب نفسه، كان على رأسه رسم ملاك بالألوان الزاهية، وإلى جانبه خصلة صغيرة من شعر امرأة تنتشر منها رائحة عطر، ولما انتهى من قراءة الكتاب أمرني بالنداء على قوة القرقول للحضور تحت السلاح، ففعلت وأمر البروجي (النافخ في النفير) باستدعاء كل قوة المدرسة بالسلاح ففعل، فحدثت ضجة عالية واضطراب في مكاتب المدرسة، والطلبة يتركونها سراعاً إلى العنابر لحمل السلاح والنزول جرياً إلى ميدان المدرسة الداخلي.

اكتملت القوة في نظام، وشكلها القومندان بشكل قلعة وجوه الطلبة إلى الداخل، ثم أمر رئيس الحرس بنزع سلاحي وإحضاري إلى وسط القلعة بين حارسين بالسلاح. فنفذ الأمر، وتوسط القومندان القلعة وجعل ينتزع من غلاف الخطاب ما بداخله من الغلافات الملونة واحداً بعد الآخر ببطء وهو يقول:

«وردي.. لبني.. برتقالي.».

ثم أخرج الكتاب ومرّ به على الصفوف وهو يقول:

«خصلة من الشعر.. يعني تذكار منتزع من الرأس... ومرسلة الخطاب لها صورة ملاك ألصقتها عليه..»..

ثم عاد إلى موقفه الأول وجعل يقرأ بصوت مرتفع نص الكتاب، وكل ما فيه عبارات غرام مشتعل ووعود بالحب الجارف. ثم رفع يده بالكتاب وصاح في الطلبة:

«من منكم له امرأة شعرها أسود، وصورتها مثل هذا الملاك، وبلغ بها الغرام إلى درجة الغليان؟»

وسكت برهة قصيرة، ثم صاح بصوت يدل على الغضب والتهديد:

«الذي أرسل إليه هذا الخطاب، يخرج من الصف خطوتين إلى الأمام».

فخرج الطالب (ي) وخطا الخطوتين ووقف، فتحولت إليه جميع الأنظار فناله من القومندان نصيب كبير من التوبيخ والتقريع، ثم طلب إليه أن يتوب، ولقنه العبارة التي يعلن بها توبته، ثم ألقى على الطلبة عظات ونصائح.

أما أنا فكان اللوم موجهاً إلي لأن الخطاب جاء به فراش من المدرسة ووضعه إلى جانبي فوق الخزانة ليسلم للمرسل إليه، وخطئي أنني لم أتنبه له أنه خطاب غرام «محرم» ولم أشم رائحة العطر، فلم أحجز الخطاب ليسلم للقومندان.

ولجوء القومندان إلى هذه الوسيلة، للمعاقبة ولإرسال النصائح، جعل للراقصة صاحبة هذا الكتاب شهرة بين شبان لهم فتوة ولهم غريزة حيوانية، ولهم أقصى حدود الاشتهاء، وبلغ

الراقصة طبعاً نبأ ما حدث من الإعلان عنها، وشق عليها أن يتعمد القومندان بنصائحه وعظاته منع صديقها من الذهاب إليها، فأصرت على معارضته بجر جميع الطلبة إلى بيتها.

كانت تحضر في الصباح في عربة مكشوفة، تقف عند المزلقان الذي يقطع شريط السكة الحديد، ويمكن منه الذهاب إلى ميدان الرصدخانة، فيمر بها طابور المدرسة أثناء العودة من تدريب الصباح، وتحملق فيها جميع عيون جيش الشباب الملتهبين، ثم تصير حديث الجميع وقت الإفطار.

وتنتقل الراقصة (ن) إلى الساحة المخصصة للألعاب الرياضية ولها سور من الطوب النيئ يبلغ ارتفاعه متراً فقط، فتقف بعربتها خارج السور تشاهد تدريب الفرقة التي عليها النوبة في الألعاب، فتخيل عقول الشبان، وتنشط رغباتهم إلى حد الشوق والتمني، فيبذل كل منهم جهده ليظهر نشاطه ومقدرته أمامها، ونجحت حيلة المرأة فجذبت إلى دارها جميع طلبة المدرسة الحربية ما عدا السودانيين، وعدا مصري واحد. هو أنا.. لم يكن الباعث الذي عطلني على الاشتهاء والطلب هو المناعة الخلقية، أو التعفف بسبب التحصن بالأدب، إنما كان الباعث الأساسي المفرد هو: الفقر.

كان مرتبي الشهري من والدي ٥٠ قرشاً، وهي نصف النفقات الضرورية اللازمة للطالب، فلم أعرف يوماً ما أن في جيبي أجرة الترام للقصد إلى المدينة للتنزه، فما بالي بنفقات سهرة مسرفة قاسية على الجيوب!... كان عند الست (ن) بيان بأسماء الطلبة، وكانت تشطب منه اسم كل من يسقط في شركها حتى أتت على الجميع عداي أنا، فشق عليها أن ينجو

طالب واحد من العقاب الذي فرضته على القومندان، وسألت عني كثيراً من الذين كرروا زيارتها، فعرفت منهم حالي، فحاولت جرّي إلى دارها بالتضحية.

وجدت في أحد الأيام أنني استدعيت لمقابلة خادم (عبد) طلب مقابلتي خارج باب المدرسة فنوديت، وخرجت من الباب ووقفت تحت أول نافذة وكانت مقفلة وهي في غرفة نوم ضابط الكتيبة، وتقدَّم الخادم حتى اقترب مني، وذكر لي أنه موفد من الراقصة الست (ن) تدعوني لمقابلتها في القهوة التي تعمل بها في الساعة التاسعة مساء يوم الخميس، فاعتذرت عن قبول الدعوة، فقال:

«الست عارفة إنك حتعتذر، وأمرتني أن أؤكد لك أنك لن تنفق شيئاً إطلاقاً لا في القهوة ولا في البيت وأن الدعوة عزومة».

فلم أجد مبرراً للاعتذار ووعدت بالذهاب إلى الموعد.

وجاء يوم الخميس، وكادت تنتهي الحصة الأخيرة من حصص الدروس، وكان ضابط الكتيبة الثانية (ع. ز) هو المدرس، فخصص الجزء الأخير من الوقت لفكاهات ونكات، وأعجبت بنكتة فضحكت قهقهة كباقي زملائي وظهر الغضب على حضرة الضابط، وأعلن سخطه من سوء أدبي، وأصدر أمره بحبسي يومي الخميس والجمعة...

طار صوابي لأنني لم أعاقب إطلاقاً طول مدة الدراسة، ولأنني أتحرق شوقاً إلى الراقصة (ن) وحبسي في المدرسة ليلة الجمعة يحرمني من التمتع الذي دعيت له، فعمدت إلى الملاينة والتذلل لطلب الصفح عني فرفض رجائي وتنفذت العقوبة،

فقضيت ليلة الجمعة أتلوى على فراشي من الألم ومن السخط على الضابط، وامتلأ صدري حفيظة وغلاً وحنقاً عليه.

واستيقظ حضرة الضابط من نومه في ضحى يوم الجمعة، واستدعاني لمقابلته فلما مثلت أمامه صارحني بالسبب الذي حمله على حبسي في المدرسة ليلة الجمعة، كان حضرته واقفاً خلف النافذة المردودة يحلق ذقنه حين كان خادم الراقصة يدعوني لمقابلة مولاته ويؤكد أن العزومة لا تكلفني شيئاً وقال لي:

«هب أنك لن تدفع ثمن الخمر ولا أجرة المبيت، ولكنك طبعاً ستدفع بتأثير الخجل أجرة العربة وبقشيش الخادم في الصباح يعني ريال على الأقل، وهذا المبلغ نصف ما يرسل إليك في كل شهر، فتحرم من ألزم اللزوميات من حاجاتك، ولهذا حبستك لأوفر عليك الريال والحرمان».

ظن أنه أرضاني بهذه المصارحة، ولكن نصائحه لم تصل إلى أذني، وبقي في ذهني أنه تعمد حبسي فكان سبباً في حرماني من ملاذ شتى منوعة كنت محروماً منها على الدوام. واستمرت حفيظتي وغلّي شهوراً حتى تعينت يوماً رئيس حرس المدرسة لأول مرة وكنت فخوراً بأنني صرت رئيس القرقول.

وحملني الغرور على حصر تصرفاتي كلها في حدود الأوامر العسكرية وتنفيذها حرفياً، وهذه الشدة تنفر الطلبة أفراد الحرس زملائي في ذلك اليوم، ولكن أحداً من الطلبة ضباط الصف لا يعنى بشعور زملائه أو برأيهم فيه، إنما تتجه عنايته إلى التشدد في تنفيذ الأوامر تنفيذاً دقيقاً، وكانوا يهونون على أنفسهم احتمال هذه القسوة بتكرار المثل العامي: «الغربال الجديد له شدة»، «وربنا يحمينا من محدث النعمة».

في الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم استدعيت لمقابلة حضرة الضابط وكانت نوبته في الخدمة مع الحرس (ضابط النوبة للمدرسة) وجدت حضرته عند باب المدرسة يرتدي ثوباً عسكرياً من الجوخ الأزرق له شريط أبيض عريض على الجانب الظاهري من كل ساق، وعلى يده معطف الشتاء. أديت له التحية فقال لي إنه سيجلس على القهوة المجاورة للمدرسة إلى الساعة التاسعة، ثم يذهب إلى قهوة شفيقة القبطية ويبقى بها إلى آخر السهرة، فإذا حدث حادث في المدرسة يستدعي حضوره أرسل له البروجي (نافخ النفير) جرجس بالبسكليت لأستدعيه.

كنا نؤدي هذه الخدمة بثيابنا كاملة وعليها المعطف أيضاً بسبب البرد، وكان الحارس يوقظني كل ساعتين لأتولى عملية إبداله بالذي عليه الدور. والذين خدموا في الجندية يعلمون أن أقسى ساعات السهر للحارس هي الوقت من الساعة الثانية إلى الرابعة صباحاً، وقوة الشباب، واحتمال العناء طول النهار في التدريب ولعب الكرة والألعاب الرياضية يجعل جسم الشاب الفتي في حاجة ماسة إلى النوم، فإذا حل وقته يستغرق في نوم عميق لا يعرفه الإنسان في أطوار الرجولة ويتمناه الذي بلغ الكهولة.

نمت نوماً عميقاً كالعادة في كل ليلة، فأيقظني الحارس، ونبهني لوجود الضابط على باب المدرسة يطلب الدخول فلم أغالب تأثير النوم العميق كل المغالبة، ولكنني أخذت المفاتيح واتجهت إلى الباب، رفعت العارضة الحديدية وأدرت المفتاح في القفل، وهممت بفتح الباب ولكن حضرة الضابط كان متعجلاً، وفي حالة عصبية فدفعني أنا والباب حتى لصقنا بالحائط ودخل

ومعه زميل له يرتدي معطفاً «كبود» عليه علامات الملازم أول.

ورددت الباب وقفلته وأعدت العارضة الحديدية إلى مكانها وثبتها بالقفل، ثم عدت إلى غرفة الحرس وإلى فراشي ورقدت، فاستغرقت في النوم العميق كالعادة ولم يطل هذا الاستغراق الوقت الذي كنت أتمناه لأشعر بالشبع من النوم، لأن الحارس أيقظني من جديد وطلب مني تلبية نداء حضرة الضابط، فنهضت وسرت إليه متذمراً فرأيته من بعد واقفاً في باب غرفته وإلى جانبه خارج الغرفة زميله الزائر الذي جاء معه، فأمرني بفتح باب المدرسة ليخرج صديقه. انعطفت إلى الممر الذي يؤدي إلى الباب، وكان عرضه أقل من مترين وطوله أكثر من ثمانية أمتار، وأرضه من الأسفلت، وكنت في هذه المرة أسير وخلفي حضرة الضابط الزائر.

اعتادت آذاننا سماع الخطوات العسكرية المنظمة التي ألفها رجال العسكرية جميعهم، والمسافة بين أول هذا الدهليز وآخره طويلة والأرض صلبة (من الأسفلت) فسمعت وقع خطوات الضابط عليها، كانت خفيفة الصوت غير منتظمة كأنها نقرات أرجل معزة ولما وصلت إلى الباب بدأت عملية فتح القفل الذي يثبت العارضة الحديدية ثم نزعتها من مكانها.

وحدثت هذه الحركة بشيء من العنف فصدمت يدي صدر الضابط لأنه وصل بعدي ووقف قريباً مني، وقد تولتني الدهشة مفاجأة، لأن الصدمة كانت قوية هزت الضابط وأسقطت الطربوش عن رأسه، فتدلت من هذا الرأس ضفائر امرأة مزحومة بقطع من الذهب، فقالت الغانية:

«استر علي... ربنا يستر عليك»...

وقلت: «ليلتكم سودة...».

عرضت المحترفة طاعتها لكل ما أطلبه، وكل ما اتجه إليه غضبي في تلك اللحظة أن أثبت لحضرة الضابط الجريء المغامر أنني رئيس حرس يعرف كيف يؤدي واجبه وكيف يعاقبه.

أخذت المرأة في ردائها، وأعدت الطربوش إلى رأسها، وغطيته بزنط[1] المعطف وسقتها إلى غرفة ناظر المدرسة، وهي التي لم يدخلها سعادته طول مدة دراستي. كانت غرفة مكتب فخم، فتركت الغانية بها، ولم أصغ لتوسلاتها ولا لنغمات صوتها الرقيق المثير. وأغلقت الباب بالمفتاح، وعدت إلى غرفة الحرس ونمت إلى الفجر.

أيقظ النفير طلبة المدرسة (بنوبة تيقظوا) ووقف الحراس بالسلاح، وقصدت إلى غرفة نوم الضابط، وأديت التحية العسكرية كالعادة وبلغته تمام المدرسة، قلت:

«تمام يا أفندم.. والمدرسة زائدة واحد».

فقال: «مين فيكم ولد؟»

قلت: «حضرتك ظهر أن الضابط الذي أدخلته معك امرأة من الراقصات»

فجلس على السرير منزعجاً، وقال:

«والنهاية.. مش خرجت؟»

قلت: «لا.. بل حبستها في الزنزانة».

فانتصب الشاب الجريء في اضطراب وخرج بجلباب النوم إلى غرفة الحرس وفتح بقدمه بابي المحبسين فلم يجد بهما أحداً،

(١) الزنط كلمة تطلق على غطاء الرأس المثبت في معطف.

فتحول إلي غاضباً وقال:

«إيه الهزار الوسخ ده يا أفندي»

قلت: «أنا لا أمزح فتعال معي..».

أخذته إلى غرفة الناظر وفتحت الباب فدخل ووقف أمام المرأة في اضطراب وفزع، قلت:

«ستبقى هذه الراقصة محبوسة هنا حتى يجيء القومندان في الصباح، وأبلغه الخبر»

قال: «هذه جريمة.. وستكون النتيجة محاكمتي بمجلس عسكري وطردي من خدمة الجيش فهل تقبل إيذائي على هذه الصورة؟»،

زلزلني هذا الاعتراف، وندمت على ما فعلت، وشق علي أن ينال ذلك الضابط أذى بسببي رغم حنقي عليه، فقلت:

«هل هذا الخطأ يعادل خطئي إذا ذهبت لمقابلة راقصة في بيتها بناء على دعوة منها! ولكنني سأتصرف لأمنع الأذى عنك»

نزعت الرداء عن المرأة، وأعطيتها معطفي لأنه بدون علامات ضابط وتأبطت ذراعها وانطلقت بها إلى الفناء الداخلي للمدرسة خلف غرفة الطعام، وكان مزدحماً بالطلبة يتزاحمون على الصنبور المفرد الموجود في مكان هناك ليتمكنوا من غسل وجوههم، وكلهم لاه بنفسه عما حوله. في هذا المكان بناء من الخشب به صفان من المراحيض بينهما فضاء ليتمكن العامل من جر آنيات[1] المراحيض منه وتفريغها في عربة تقف في الصباح

(١) جمع «آنية» ويقصد بها خزانات كانت جزءاً من حمامات بدائية كان يتم تفريغ ما فيها من مخلفات يومياً بسبب الافتقار لشبكة صرف صحي.

أمام باب هذا المكان من ناحية الشارع دخلت والمرأة هذا الفضاء وفتحت لها الباب، وأخذت منها ردائي والطربوش وقلت لها مع السلامة ثم أغلقت الباب وعدت إلى حجرة الحرس.

وانتهت الحادثة بسلام..

١٣

عاد الطلبة من عطلة عيد الأضحى وقد زودهم أهلهم بشيء كثير من اللحوم والدجاج والديكة الرومي.. وخطر لأحد زعماء الطلبة (وقد نسيت اسمه) أن يجمع زملاءه في عشاء يشتركون فيه ما أحضروه معهم وزادوا عليه برميلاً من النبيذ نُقل إلى داخل المدرسة من الباب الخارجي لدورة المياه، وتناول الطلبة العشاء في مرح وضجة وأفرطوا في الأكل وفي شرب النبيذ، وسهروا سهرة ممتعة بالرغم من نداء النفير للنوم، غضّ ضباط الصف نظرهم عن تنفيذ الأمر لأن تلك الليلة من العطلة المدرسية.

وفي صباح اليوم الأول للدراسة تخلّف فريق كبير من الطلبة عن تدريب الصباح لأنهم مرضى، وعاد فريق آخر من ميدان التدريب بسبب عجزهم عن الاستمرار، وعرض المرضى على الطبيب فتحقق من المرض أنه حمّى فأرسلوا إلى المستشفي. وقبل مرور يوم جديد لحقهم فريق ثالث، فازدحمت أسرة المستشفي بالمرضى من الطلبة، ولبثوا هناك أياماً للمعالجة رغم تضجر الأطباء من الزحام ومن شيطنة هؤلاء المرضى الخبثاء.

ولما كنا في دور النقاهة خطر لبعضنا خاطر شيطاني، عقدنا العزم على الهروب من المستشفي ليلاً للتريض في الصحراء الواقعة أمامه، ثم الذهاب إلى كانتين معسكر الإنجليز لشراء سجاير ولشرب البيرة. ويقع إسطبل البغال ومهام عربات المستشفي في الجهة الشرقية من المستشفي، فتسللنا أربعة إلى ذلك المكان، وركب أحدنا كتفي آخر ووصل إلى حافة السور المحيط بذلك الفناء، وحطم الزجاج المثبت فيه، ثم غطى مكان منابت الزجاج بأرديتنا الجوخ حتى لا تمزق جسد من يرتقي الحائط. وركب أحدنا السور فجعلنا نثب إليه واحداً بعد الآخر وهو يعاوننا على الصعود ثم الهبوط إلى الأرض من الناحية الثانية، حتى خرجنا جميعا إلى الفضاء.

ولم يكن من السلامة المرور أمام باب المستشفي لأن عليه حراساً مسلحين. ولأن البناء نهاية الطريق فلا يعبر منه عابر ليلاً ونهاراً إلا إذا كان يقصد المستشفي نفسه، فاتجهنا إلى الشرق في الصحراء ثم عدنا إلى الغرب على بعد سحيق، وتمكّنا بهذه المغامرة الجريئة من تحقيق رغباتنا.

وأمعنّا في الصحراء متجهين إلى الشرق لنتجاوز باب المستشفي بدون أن يشعر بنا الحراس، ثم نتجه بعد ذلك إلى السور الذي تخطيناه عند الهروب، وبينما نحن قريبون من نهاية الشوط إلى الشرق سقط أحدنا في فجوة في الأرض الممتلئ قاعها بالرمال عن بعد سحيق، فصرخ يستنجد بنا.. فعاد اثنان منا إلى السور فارتقيناه وأخذنا من مخزن العربات لجم البغال وهي حبال غليظة طويلة، ثم تخطينا السور ووصلنا إلى الفجوة، وكان آخر واقفاً إلى جانبها يتحدث إليه ليطمئنه وتمكنا من ربط

الحبال ببعضها ثم أرسلنا طرفها إليه فربطه في وسطه وأمسك الحبل بذراعيه فجذبناه إلينا وأنقذناه. وعدنا إلى المستشفي مبتهجين كأننا نلنا الفوز في معركة حربية.

كنا نظن أن هذه السياحة تمت سراً وأن أحداً لن يشعر بما فعلنا، ولكننا بسبب الرعونة تركنا الحبال في الفناء مربوطة. ولم نفكها ولم نردها إلى المكان الذي أُخذت منه، واكتشف العمال في الصباح هذه الحبال فحدثت الضجة.

وتطورت الحادثة إلى الظن بأن لصوصاً سطوا على مخزن المهمات للسرقة، ثم فروا قبل تنفيذ رغبتهم لسبب من الأسباب، وقالت الإشاعة إن الحبال ربطت على هذه الصورة لتربط بها المسروقات، وكشف البحث في أعلى السور عن المكان الذي حطمنا زجاجه الواقي، ووجدت آثار الأقدام تحت السور من جانبيه الداخلي والخارجي، وعرفوا أن هذه الآثار للشباشب التي توزع على المرضى على صورة واحدة، ولكن الضجة عالية والظنون كثيرة، فاستبعد المنطق فكرة مجيء لصوص من الخارج للسرقة، ورجحوا أن الآثار وتحطيم الزجاج عملية جماعة بارحوا المستشفي ليلاً لسبب من الأسباب ثم عادوا إليه.

وحار أمرهم في مسالة أخذ الحبال من المخزن وربطها ببعض، ورجح العقل أن هذا العمل الجريء من فعال الطلبة لا من فعال الجنود المرضى، واطمأن الجميع لهذا الاستنتاج. كان أطباء هذا المستشفي جميعاً من السوريين عدا اثنين أو ثلاثة من المصريين وهكذا جميع الأطباء في الجيش.

وكان كبير هؤلاء الأطباء موسوليني بك رحمه الله، كان طيب القلب حسن الخلق رحب الصدر، فلم يشأ عمل تحقيق

لفضح الطلبة ولكنه أمر بنقل جميع المرضى إلى المدرسة ليتم علاجهم فيها، فتألمنا من هذه الصدمة القاسية لأن الإقامة في المستشفي راحة وتلهٍ وتنزه في الحديقة الفسيحة وحرية مطلقة.

١٤

انتهت الحرب في السودان فرأى الإنجليز خفض قوة الجيش المصري إلى أضعف حد، فحولوا الأورط المصرية إلى ٤ كتائب بدلاً من ٦، وأحالوا إلى الاستيداع عدداً كبيراً من الضباط حديثي العهد بالخدمة، وعينوا للمدرسة قومنداناً إنجليزياً ومعه صاغ مصري من عادته التسبيح بحمد الإنجليز. وسلم محمود أفندي صدقي المدرسة ومهماتها التي في عهدته.

ثم سلم الخزانة وما كان بها من علب المنزول المضبوطة مع بعض الطلبة، وصارح زميله بما كان يفعل مع أصحابها، وسلم له دوسيهين لكل طالب، الأول لتوقيع الجزاءات فيه، والثاني نظيف ليرسل مع الضابط الجديد إلى الجيش ليبدأ حياة جديدة. ولم يكتم الصاغ الجديد هذا السر عن القومندان الإنجليزي، فكتب تقريراً عن أعمال نائب القومندان المخالفة للنظم العسكرية، فكان هذا التقرير سبباً في إحالة الصاغ صدقي أفندي الرجل الطيب إلى الاستيداع ثم إلى المعاش بعد حين.

وتولى القومندان الجديد عملية تصفية في المدرسة، ففصل

منها مائة طالب دون سبب، وقررت نظارة الحربية منع ترقي طلبة المدرسة الحربية أربعة أعوام قضوها في أشق أنواع التدريب مع الإسراف في القسوة عليهم.

في نهاية هذا العام الدراسي تقريباً، وقبل وصول القومندان الإنجليزي، انتدبت المدرسة الحربية فريقاً صغيراً من الطلبة للاشتراك في عرض خاص ومباريات مختلفة في الرماية، وانتدبت أنا والمرحوم تقيّ عبد الهادي للرماية، وأنا وطالب آخر أسمر اللون لا أذكر اسمه لسباق ١٠٠ متر، وربع ميل.

كان المتبارون من الإنجليز، وبعض الإيطاليين، وموظفون من شباب الإنجليز في التلغراف الإنجليزي. ثم من خليط من هواة الألعاب الرياضية ونلت الجائزة الأولى في الرماية بالبندقية والمسدس، ونال المرحوم تقيّ عبد الهادي الجائزة الثانية، كان الضرب بالبندقية (واقفاً) على بعد ١٥٠ متراً، وكان الضرب مرتكزاً على بعد ٣٠٠ متر، وكان الضرب راقداً على بعد ٥٠٠ متر.

ومباراة أخرى في التنشين بالبندقية على فوهة أنبوبة من الحديد عليها قطعة قماش، موضوعة على بعد ١٠٠ متر، وكان الضرب بالطبنجة على أهداف متحركة حركات غير منظمة على بعد ٣٠ متراً، ومن هذه الأهداف كرة صغيرة من الزجاج عليها طلاء في لون الزئبق ومفرغة من الهواء موضوعة على ماء ينبعث من نافورة، فتعلو تارة وتهبط أخرى على مثال حركة اندفاع الماء ثم تسقط عنه ليتلقاها غيره، وكان الضرب بالطبنجة على بعد ٢٠ متراً أيضاً على خيط معلق في نهايته ثقل له لون برتقالي، والهدف هو الخيط.

وقد تولت سيدة إفرنجية توزيع الجوائز على الفائزين، فاستوقفتني في المرة الأخيرة وقالت لي:

«لو كنت أعلم أنني سأصادف شاباً له هذه المهارة كنت أحضرت له معي جائزة جديدة بسبب فوزه بهذه الجوائز»

وكان المرحوم المستر براين كبير مدرسي المدرسة الحربية إلى جانبها فقالت له:

«أرجو أن ترسل هذا الشاب غداً في الساعة الرابعة إلى بيتي لأعطيه جائزة».

وكان المستر براين يعطف علي كل العطف ويرتاح لكل ما فيه الخير لي، فنفذ رجاء السيدة، وعلمت منه أنها أميرة من البيت المالك في روسيا، ولكنها متزوجة من إنجليزي ذي منصب كبير.

ذهبت إلى بيت السيدة وشربت الشاي هناك، وتسلمت الجائزة ساعة من الذهب ولها سلسلة قصيرة تتدلى خارج الجيب، وعند انصرافي طلبت مني التردد على زيارتها كل يوم جمعة في الساعة الرابعة لأشرب عندها الشاي.

تجاوزت تلك السيدة العقد الرابع وقاربت نهايته، ولكنها كانت جميلة واضحة المحاسن لها فتنة وجاذبية قوية، ولها صوت ناعم يصل إلى السمع كأنه صوت موسيقى، لم تكن فرعاء ولا نحيلة الجسم، تكونت بصورة تجذب إليها الأنظار وتفتن القلوب وتأسر الأفئدة، يزيد عليها علم غزير وأدب عالٍ، وشاعرية. تهيبت تكرار الزيارة فاستدعاني المستر براين ونصح لي بالذهاب لشرب الشاي هناك، وأكد لي أن هذه الشخصية لها احترام ونفوذ كبير، وربما أنتفع بها في المستقبل.

كنت شاباً من العامة، نشأت بينهم وفي طبقتهم، ولم أصادف في حياتي عظماء، وكل أملي في الحياة إتمام الدراسة والارتقاء إلى رتبة ضابط، ثم أخدم في الجيش كزملائي فتكون لي مثل ظروفهم ومثل حظهم، فلا أكون في حاجة لمعاونة أي إنسان ولكني أطعت المستر براين وكررت الزيارات لتلك السيدة المحترمة، فعلمت من أحاديثها أنها كانت تدعى قبل الزواج البرنسيس فيزنسكي، وأنها روسية، ثم صادفت زوجها في السفارة الإنجليزية ببرلين وتمّ اقترانها به.

كانت تغمرني بعطف واضح من نوع عطف ذي الرحمة على غيره الصغير أو الضعيف بتأثير الإنسانية، فصرت أرتاح لمقابلتها والتحدث إليها وقد قالت لي مرة:

«الإنسان هو الذي يكوّن حظه في الحياة بنفسه، فالذي يتعلم النجارة يصيراً نجاراً والذي يتعلم الطب يصير طبيباً، والذي يتعلم العلوم العسكرية يصير ضابطاً، ويصير طول حياته آلة صغيرة تؤمر وتوجه بأمر يصدر من الكبار».

وقالت في مرة أخرى:

«يتحتم على الإنسان ارتقاء السلم ليصل من الأرض إلى الطابق الذي يليها، فكل ارتقاء لابد له من وسيلة للصعود».

وكنت أظن بسبب نقص المعرفة أن هذه العبارات حديث مجالس فلم تنبهني لأمل جديد، ولم تنشط في نفسي المطامع، لأن غايتي المفردة محصورة في الانتهاء من الدراسة والوصول إلى الجيش ككل الذين اتبعوا طريقي، وكل الذين سيجيئون بعدي في هذا الطريق. وفوجئنا مفاجأة في المدرسة بوصول القومندان الإنجليزي الجديد والصاغ الجديد وبالزلزال الذي

أحداثاه عقب تسلمهما إدارة المدرسة.

ووصلت إلينا أنباء تخفيض قوات الجيش وإحالة الضباط إلى الاستيداع. ثم حملنا على اليأس والتألم الشديد من قرار فصل الطلبة ومنع الترقية مدى أعوام.. انتقلت للفصل النهائي في الامتحان الأخير، وكان بيني وبين الوصول إلى الجيش ثلاثة شهور إذا سارت الأمور سيرها العادي، ولكن الطوارئ المفاجئة هدمت هذا الأمل وعوضت منه اليأس والحسرة، ولقد احتملت شتى المشقات طول العام الذي قضيته في المدرسة الحربية، وتألمت من الفقر والحرمان بسبب حقارة النفقة التي يرسلها إلي، فكيف تكون حالي إذا عطلت ترقيتي أربعة أعوام؟

شرحت لبرنسيس فيزنسكي هذه الظروف، فكانت إجابتها غامضة لم أدرك الغرض منها، قالت لي:

«الخط المستقيم أقرب بعد بين نقطتين».

وقالت: «جميع الطرق توصل إلى باريس».

وعلمت مني أنني لا أقضي العطلة المدرسية في بيت والدي لأنه وزوجته لا يرتاحان لوجودي، فكنت أعزل في غرفة عن بقية أفراد البيت، لا يكلمني أحد منهم إطلاقاً حتى والدي، ويمنع الأطفال بالقوة من دخول غرفتي أو محاولة اللعب معي، وكان الخادم يحضر الطعام إلى تلك الغرفة ويضعه على منضدة وينصرف فإذا ناديته لقضاء حاجة لا يجيب النداء.

ألجأتني هذه المعاملة زمن الدراسة الثانوية إلى الهروب منها، فلم أجد ملجأ أقضي به شهور العطلة بعيداً عن المنغصات سوى منزل عمي بأسيوط، فأجد فيه الاطمئنان والهدوء والمعيشة المنظمة، وعطف الجميع علي. وقالت البرنسيس:

«إذا قبلت نصيحة تنفعك، آخذك معي لإتمام الدراسة العسكرية في باريس، ولكن هذه الرغبة لا تتم إلا إذا مررنا بالقسطنطينية أولا، فأنقذك من تعطيل الترقية في مصر، وأهيئ لك مستقبلاً أحسن وأمتن».

زالت سلطة المستر براين في المدرسة الحربية بعد وصول القومندان الجديد، وحصر عمله في الإشراف على التعليم في المكاتب، وفصل القومندان مائة طالب من قوة المدرسة خبط عشواء، فزاد هذا تذمر كبير المدرسين وسخطه. كان الرجل يعطف علي ويسندني، وكنت أزوره في البيت وأعطي ابنته دروساً في اللغة العربية فلما زلزلت المدرسة هذا الزلزال عرضت عليه موقفي من أهلي، وشرحت له الأسباب التي تجعلني عاجزاً عن احتمال تعطيل الترقية في المدرسة أربعة أعوام، وأسررت إليه العرض الذي عرضته عليَّ البرنسيس فيزنسكي، فاستراح لهذا الاقتراح ونشطني لقبوله، قال لي:

«إذا التحقت بـ(البوليتكنيك) مدرسة الهندسة العسكرية.... تصل بسرعة إلى أرقى المناصب».

ولم يكتف بما سمعه مني، وربما أراد توكيد الأمر وتثبيت الاقتراح فتحدث بالتليفون مع البرنسيس فصارحته بعزمها على تنفيذ هذا الوعد، فعاد إلي ونصح لي بإطاعة البرنسيس بدون تردد لأنها ستكوّن مستقبلي على أساس متين.

وأثرت فيَّ هذه النصيحة فأسلمت أمري لهذه السيدة التي تظهر العطف عليَّ والاهتمام بمستقبلي بينما أجد من والدي القسوة والنفور من وقوع نظره علي، وهو الذي انتزعني من أحضان جدتي وكان سبباً في تعذيب المرحومة والدتي وأهان

جدتي وحملها علي ترك مصر كلها والرحيل إلى تركيا نهائياً، ثم قسا عليَّ وقصَّر في تأدية واجب الوالد حتى أتمم الدراسة العالمية أولاً ثم الدراسة العسكرية.

وضعت هذه التصرفات في كفة الميزان، ووضعت في الكفة الثانية عطف المستر براين علي ورفقه بي ومعه عطف البرنسيس فيزنسكي وحنانها الواضح، فرجحت هذه الكفة فأسلمت نفسي لهذه السيدة وللقدر.

١٥

انتهى العام الدراسي في نهاية شهر يونيو فانطلقت من المدرسة إلى منزل البرنسيس، فتركتني لوصيفة لها لتدربني على التقاليد في مثل هذه البيوت ولحظت الوصيفة أنني لا أملك سوى ثوب واحد عسكري، فنزلت معي إلى الأسواق واشترت جميع ما يحتاج إليه شاب سيعيش في وسط راقٍ، فعشت في هذا الجو أياماً قليلة وأنا لا أصدق أنني في يقظة.

رحلنا إلى الآستانة فأقمنا بها أسبوعين تمّ فيهما التحاقي بالجيش التركي مع إرسالي بعثة لإتمام الدراسة في فرنسا بكلية «سان سير» الحربية. لست أدري كيف تمت هذه العملية، إنما أعرف أن البرنسيس لجأت إلى السفارة الفرنسية وإلى ضابط كبير ملحق بالسفارة الإنجليزية فذللا جميع العقبات.

كان للبرنسيس في هذه المدينة، فيلا صغيرة فخمة بديعة في مدخلها حديقة منسقة بعناية، ولها خيول وعربة وخدم من النساء والرجال، مظاهر تدل على الغنى وسعة الثروة، وسكنت في غرفة خصصت لي فعشت فيها تحت إشراف إيزابللا الإيطالية، وهي

عجوز وديعة حكيمة مخلصة في خدمة البرنسيس، وفية لها كل الوفاء، ودلت على هذه الصفات في ١٩٢٠ في القاهرة في ظرف حرج كان خاتمة حياة البرنسيس.

استمرت إيزابللا تدربني على كيفية تناول الطعام وشرب الشاي، وعلى ارتداء الثياب، وحتى على كيفية الجلوس في مقصورة في التياترو، كانت تريد أن تكون لي آداب رجل عصري في المجالس والمجتمعات، فلما اطمأنت إلى استعدادي أنه تمّ سمحت لي البرنسيس بتناول الطعام على مائدتها، وبالذهاب معها إلى التياترو، وعهدت إلى معلم رقص بتعليمي بدروس خاصة. وجاء أوان ابتداء الدراسة في كلية سان سير فألحقت بها، ثم نقلت بعد ثلاثة شهور إلى مدرسة البولتكنيك، فلبثت بها طول مدة الدراسة حتى أتممتها، ونلت الشهادة النهائية.

كانت البرنسيس في تلك الأيام في الآستانة العلية، وكان من عادتها التردد عليها من حين إلى حين لتقضي بها شهراً أو أكثر لأن زوجها كان هناك ملحقاً عسكرياً في السفارة. ولم تشأ البرنسيس أن أعود إلى الجيش التركي برتبة يوزباشي ضابط أركان حرب، لأن الأحوال في تركيا كانت مضطربة، والفتن والثورات منتشرة في ألبانيا وفي أملاك الدولة العلية في البلقان.

فلجأت إلى مسعى جديد يجعلني بعيداً عن ذلك الجو المضطرب، فوصل كتاب من الآستانة إلى وزارة الحرب في باريس يرجو منها قبولي في الفرق الفرنسية الأجنبية لاستكمال المران بها لمدة عام واحد، وقضيت ثلاثة أعوام في دراسة الهندسة العسكرية وفنون الاستحكامات، وكنت أقصد في بعض أوقات

الفراغ إلى جامعة باريزو لأسمع محاضرات في الأدب كأمر من البرنسيس.

وكان اهتمام تلك السيدة بي يزيد في كل وقت، فأقضي إلى جانبها كل أيام العطل والأعياد، وأمضي الليالي في سهرات في بيوت صديقاتها فأجد فيها صنوفاً من النساء ذوات الحسن والفتنة ومن الفتيات ذوات الجمال والجاذبية، فاستأنس الحيوان.. وتحوَّل من آدمي بدائي إلى إنسان له تمدن وثقافة وذوق في الوزن والاختيار.

كنت أظن في أول الأمر أن عناية البرنسيس بي ونشاطها لمعاونتي ولتكويني بباعث الرحمة والإنسانية وحدهما، ولبثت على هذا الاعتقاد أكثر من عام، فكنت أحترم تلك المحسنة الكريمة إلى حد الإجلال لأن لها كل الفضل في تكويني على صورة جديدة بعيدة كل البعد عن وصف الذين نشأت معهم أو بينهم. وبدأ ذلك الظن يتحول منذ قبَّلتني الأميرة على مائدتها وفي سهراتها، كانت لها تصرفات تشعرني بأنه أكثر من عطف بريء وكنت أعلل ذلك تحت تأثير احترامي لها تعليلاً بعيداً عن سوء الظن.

كنا في حفلة ساهرة في قصر أرملة من الطبقة الراقية، وكنت في ثوبي العسكري واضح الشباب والقوة، ولست أدري كيف انصرفت عقب انتهاء السهرة من تلك الدار، لأنني استيقظت في الصباح فوجدت نفسي في غرفة نوم البرنسيس...

انكشف الستر السميك عن الباعث الحقيقي الذي دفع هذه المرأة إلى الاهتمام بشاب فقير لتعليمه وتهذيبه وتكوينه في صورة تناسب مدنيتها وثقافتها وذوقها وتقاليدها، لترتاح لصفاته كما

ارتاحت من قبل لشبابه وفتوته.

اعتمدت الراقصة (ن) على الأنوثة والخلاعة لامتلاك كتائب من الشباب ارتاحت نفسها للحصول عليها... واعتمدت هذه الأميرة على العقل والصبر والمال والحيلة لتمتلك شاباً واحداً رغبت في الحصول عليه..

هدف المرأتين واحد: هو الرغبة في الامتلاك، والباعث واحد: هو الارتياح في الاشتهاء، إنما تنوعت الوسائل بسبب اختلاف العقليتين والمدنيتين والثروتين. يدفع كل إنسان ثمن ما يرغب فيه، لا بنسبة ما تساويه قيمته الذاتية، إنما بنسبة مقدار الرغبة فيه والإصرار على تحقيق هذه الرغبة، وتصدق هذه النظرية في تحديد أثمان شراء المعادن النفيسة، والحجارة الكريمة، والحيوان، والإنسان أيضاً. وبقدر قوة الرغبة في السلعة المختارة يكون مقدار المعزة والعناية بالاحتفاظ بها سليمة.

ولهذا السبب نشطت الأميرة لإبعادي عن جو الآستانة المضطرب بعيداً عن مواطن الفتن والثروات وعمليات الجيوش للقمع، كان إذن الدافع المفرد للاحتفاظ بسلامتي هو حب الذات لا الحرص على حياتي، ولكنني كنت في طور الشباب ينقصني العقل الناضج والوزن الصحيح للبواعث، فكنت أنسب جميع التصرفات لأسباب إنسانية وبتأثير العطف البريء والرحمة واعتياد فعل الخير، فصرت ككل مملوك بشراء أحترم المالكة، وأجلّها وأجزل الشكر وأبيّت لها الإخلاص والرغبة في الاحتفاظ بالمعروف. أدركت من تلك الليلة المشؤومة نوع رغبتها فلم أتردد في الخضوع والطاعة، في حياء في بادئ الأمر ثم في جرأة المعتاد الراغب في الإرضاء.

١٦

حُشرت حشراً في الفرقة الأجنبية الفرنسية في قسم أركان الحرب برتبة يوزباشي، وكانت القيادة للأميرالاي غورو، ومكثت في باريس شهوراً ثم قضى العمل بانتقالي إلى الجزائر والخدمة في ثغري وهران وبلفيل، ثم في قرى في أعماق الصحراء في توات بالقرب من عين صالح وإلى الشمال منها، وفي غات وسط الصحراء الكبرى، ثم في غدامس بالقرب من حدود تونس الغربية والجنوبية.

وكانت الحياة في المعسكرات كمثلها في جميع مراكز الجيوش، إنما كان للجنود والضباط سهرات خاصة للتسلية خارج المعسكرات أو للتلهي إطاعة للغريزة، وبعض هذه الأماكن الخاصة لإفرنجيات وبعضها لأهل البلاد، كما كان الحال في مصر في زمان ازدحامها بالجيوش الأجنبية.

حادث واحد بقي في الذاكرة لسبب غرابته.

قامت ثورة في سكان الجزائر بسبب شدة الضغط عليهم

والقسوة التي ترهقهم وانضم إلى الثائرين ضابط مصري مغامر أظن أن اسمه محمد زكي ولكنني نسيت لقبه الأخير بسبب طول الزمن وضعف الشيخوخة ووقع ذلك الضابط في الأسر.

وأسرى الثائرين يعاملون كمتمردين فليست لهم مميزات أسرى الحرب من النظاميين، فوضع هذا المنكود الحظ في طابية في ثغر وهران أثناء وجودي بها، وكان شاباً دمث الأخلاق له فتوة ومظاهر القوة، وكان وديعاً حلو الحديث ترتاح له النفوس وتطمئن، فمتع بشيء من الحرية في التريض.

وكان لقومندان الطابية ابنة تدعى بلانش جميلة رشيقة ذات جاذبية قوية، فصادفت الضابط المصري فنال حظوة عندها فكررت مقابلته والتحدث إليه، ثم وصل الأمر إلى تجاذب الروحين وارتياح الفؤادين واندلاع لهيب الشوقين في الخفاء..

وحدثت مفاجأة ضجة في الطابية في صباح أحد الأيام، اكتشف القومندان غياب ابنته من غرفة نومها، وذاع في الوقت نفسه هروب الضابط المصري، وعجز التحقيق عن معرفة وسيلة هروب الفتاة مع الضابط إنما ثبت أنه هروب بالاتفاق المبيت لأن الهاربة أخذت معها ما تملكه من المجوهرات القليلة وبعض الثياب الداخلية، أعلن الهروب بكل وسائل الإعلان وبلغت به جميع الحدود القريبة والبعيدة، وانطلقت عدة قوات صغيرة لاقتفاء الأثر والبحث في المدينة والضواحي، فضاع أثر الهاربين وانقطعت عنهما الأخبار.

ومن محاسن الصدف أنني صادفت مرة ثانية ذلك الهارب بالغنيمة، لا في الجزائر ولا في الصحراء إنما في مدينة الفيوم سنة ١٩٢٠، وكان موظفاً هناك وعلمت منه أنه اقترن بالفتاة، وأنجب

منها صغيران، وأنها كتبت لعائلتها بعد أعوام من استقرارها في الحياة الزوجية، ولكن أهلها أنكروها ولم يرسلوا الإجابة على كتابتها.

وأشهد صادقاً أن ذلك الرجل صدق في حبه لزوجته، وقدّر صنيعها معه حق التقدير فعوضها بحنانه ورعايته ومحبته وإخلاصه فوق ما كانت تغمر به في بيت والدها من العطف والرعاية والحنان. وصادفته مرة ثالثة في المنيا كهلاً محطماً ظريفاً، وبقي هناك حتى بلغ سن المعاش فانتقل إلى الإسكندرية واستغل مكافأته في عمل تجاري.

١٧

من صفات الفرنسي المستعمر الصلف والغطرسة والاستبداد بصورة لا يخفيها بل يعلن أنها القاعدة التي يجب أن تتبع في جميع الحالات، وأساس سيادته أين حل: سيد وعبد، وأمر وطاعة. فالفرنسي مكروه في كل مستعمرة ومن كل الذين يعيش معهم ما عدا أهل السنغال لأنهم عبيد نسلوا من الرقيق المحرر، لهم ذل العبيد وطاعتهم، فلا تردد في الخضوع ولا اعتراض هناك إطلاقاً على أي تصرف، ولهذا السبب تجد النظام العسكري الشديد ينفذ بسهولة في الجنود السنغاليين، وترى هؤلاء يخلصون لأسيادهم.

ويؤثر الفرنسي الجندي السنغالي على غيره من أهالي المستعمرات الأخرى، ويعتمد عليه في عمليات السحق التي يلجأ إليها الفرنسيون سراعاً في مستعمراتهم أو في البلاد التي انتدبوا للوصاية عليها، وأقرب الحوادث للذهن استخدام فرنسا المحررة هؤلاء الوحوش في حوداث سوريا ولبنان الأخيرة.

وكذلك يتعالى الضابط الفرنسي على الأجنبي الذي يزامله

في عمله في الفرق الأجنبية، ولو كان أرقى منه بصفاته وبدرجته العسكرية، ولو اندفعت بتأثير مزاجي العصبي تحت تأثير ما يخلقه الضابط الفرنسي الزميل من أسباب المشاكل لطردت من الخدمة في ذلك الجيش.

كنت المصري المفرد في تلك الفرقة، وكان عملي في مكتب خاص من مكاتب القيادة، ورئيسي المباشر هو الأميرالاي غورو بالذات، وقد احتفظت بالعزلة من أول الأمر لأنها عادة ثبتت لي أثناء وجودي في المدرسة الحربية المصرية ثم في البوليتكنيك، فأفدت من هذا الاحتياط الوقاية من المشاكل والمنغصات، لأن الفرنسي لا يطيق رؤية إنسان من غير جنسه يحتفظ بكرامته.

ومن هذا الوصف الموجز يدرك العقل نوع سياسة المستعمر في البلد الذي يتحكم فيه بالقوة، ويعرف الهدف الذي ترمي إليه هذه السياسة، فكل مستعمر يدعي أنه يعمل لتحضير السكان ونقلهم من الفوضى إلى النظام، ومن الهمجية إلى الإنسانية بنشر التعليم وأسباب الحضارة ونظم الحكم العادل ليمكنهم من الارتقاء ثم من حكم أنفسهم والواقع ينقض هذه الدعاوى الكاذبة، ويثبت أن سياسة المستعمر تهدف لهدم كيان الأمة التي تتساقط عليها، فتفسد الأخلاق، وتعاون على نشر الرذائل، وتحول وسائل التعليم إلى عمليات غير منتجة، وتحصر المعرفة في حدود ضيقة، وتسطو على الكرامات فتذلها، وعلى الفكر تقيده، وعلى الحرية تحبسها، وعلى الثروة القومية فتسلبها بشتى الحيل الاقتصادية، فتتحول المستعمرة بهذه الوسائل إلى مزرعة للمستعمر، ويصير الناس عمالاً أذلاء في هذه المستعمرة.

لم تكن لي المعرفة التي تمكنني من وزن الأمور وزناً صحيحاً،

لأنني كنت في طور الشباب ناقص المعرفة قليل التجارب، فكان نظري قاصراً على رؤية الوقائع المحددة والتصرفات الفردية، وأنواع الغطرسة والقسوة التي تنصب على الأفراد القريبين من نظري. من طبع الإنسان النفور من الظلم الظاهر ومن القسوة التي لا تبررها أسباب واضحة، وهذا النفور يؤدي إلى الشفقة على المظلوم والمغبون الذي يقع عليه الظلم أو تسحقه القسوة، فلهذا السبب أعطف على الوطنيين حيث حللت لا بباعث ما يسمى الإنسانية إنما بتأثير الطبع.

ولست أنسى يوما رأيت فيه فريقاً من رجال البادية يساقون إلى السجن بين جماعة من الفرسان وخلفهم الجاويش هاشم على جواده في مظهر غازٍ فاز في المعركة، ورأيت المأسورين في حبال طويلة وضعت في أعناقهم بشكل «حية» رخوة لا تضايق العنق فاستخففت بهذه القيود التي يسهل التخلص منها. ولما حانت لي فرصة الخلوة بالجاويش في المساء أبديت له هذه الملاحظة فضحك من سذاجتي، ودفعه الغرور إلى التحدث عن الحية وعن خطرها العظيم الذي لم أفطن إليه.

قال إن الحية الرخوة حول العنق مشنقة بالمعنى الكامل، ويكفي أن يسقط رجل من الجماعة أثناء سيرهم في الطريق فيشنق نفسه، وسقوط جسمه يشد الحبل فيشنق في الوقت نفسه واحداً أو أكثر من الذين أمامه أو الذين خلفه، وتستمر عملية الخنق إذا لم يسرع الحراس لمنع ضغط الحبل المشدود عن الأعناق.

وقال عن الرجال إنهم من البادية مرّ بهم ضابط فرنسي ذكر اسمه فداعب فتاة من بناتهم فصرخت تستغيث بأهلها ؛ فهرعوا

إليها وأهانوا الضابط واعتدوا عليه فلجأ إلى الهروب لإنقاذ حياته، ولما عاد الضابط اختارني بين زملائي لوثوقه من بسالتي ومن سعة حيلتي ودلني على المكان الذي به خيام تلك الجماعة من البدو، فاخترت عدداً من الجنود أثق بهم وقصدت إلى تلك الخيام في الصحراء.

فاجأت فريقاً منهم مجتمعين في خيمة فترجلت عن الجواد وكذلك فعل أصحابي ودخلنا الخيمة، لم نتكلم إنما أطلقنا بنادقنا على الرجال فتولاهم الذعر وانطلقوا هاربين في الصحراء تاركين القتلى والجرحى على الأرض، وسمع النساء صوت إطلاق النار فأسرعن إلى الخيمة، ورأين الجثث على الأرض فولولن وصرخن.

وبدأت المعركة بيننا وبين النساء وسلاحهن الحجارة والزلط الكبير وأصابني حجر في كتفي تألمت منه فسللت سيفي وطعنت به امرأة في صدرها فشقه ونفذ من ظهرها ؛ ففزع النساء وتفرقن بعيداً عن المكان وصراخهن يزيد ؛ ولكننا تمكنا من القبض على ثلاث منهن وتظاهرنا بأخذهن معنا في طريق العودة ولم يطق الرجال مشهد النساء نسبيهن منهم فعادوا إلينا أذلاء خاضعين لافتداء النساء، فوضعناهم في الحبال كما رأيت وعدنا بهم إلى هنا... إنما مات بعضهم في الطريق بفعل هذه الحيات، فطرحنا الجثث وقصرنا الحبال، ومضينا في طريقنا بسلام ووصلنا إليكم.

وقد اكتفيت بذكر ما سمعت من الجاويش هاشم، ولا أزيد شيئاً للتعليق على هذا الحادث الذي يتكرر كثير من نوعه طول زمان خضوع شمال إفريقيا للمستعمرين... إنما أزيد عليه وصف الجاويش هاشم بطل هذه المأساة.

فقد نشأ نشأة شيطانية، كان نشالاً وهو صبي، ولصاً وهو

شاب، وقاطع طريق وهو بين الشباب والرجولة، وسجيناً بعد ذلك، ثم انتقل إلى تركيا وخدم جندياً في الجيش، وهرب منه إلى الجزائر والتحق بالفرقة الأجنبية هناك، وقد كونت له تجارب الماضي الطويل قدرة على شقّ طريقه في الحياة، وعلى إرضاء ضابطه بالإخلاص له والتفاني في خدمة أغراضه، فاطمأن له وعاونه على الارتقاء، فصار من أقسى آلات المستعمرين في التعذيب والتنكيل بكل من يسلط عليهم.

١٨

قضيت عاماً في الجزائر لم آنس فيه بفرنسي واحد سوى الجنرال غورو، كان يعتقد أنني ضابط عسكري بالمعنى الكامل أؤدي الواجب بدقة كما هو مفروض علي، وكان يرتاح لملاحظاتي الفنية في المناقشات التي تحدث بين الضباط الكبار، وكنت أخرج من هذه الجلسات وأنا على يقين من أنني مكروه ومنفور مني، بسبب اعتراضي على كل رأي لا يقرّه الفن والمنطق ولو كان هذا الرأي لأكبر ضابط في الفرقة.

وفي عصر أحد الأيام خرج الجنرال من مكتبه وأنا معه، وحييته لأنصرف فطلب مني أن أتبعه فسرت في إثره حتى وصلنا إلى حقل منبسط مزورع، فاستند على عكاز ذي شعبتين يركز بينهما ساعده ويتكئ فيستريح ثم أسَّر إليَّ بأنني رُقيت وصدر الأمر بنقلي إلي المكتب الثاني بوزارة الحرب بباريس. وهنأني على هذه الخطوة لأنها فاتحة مستقبل زاهر وقال لي ليس من الميسور قبول كل إنسان بين موظفي هذا المكتب لأن جميع أعماله من أخطر أسرار وزارة الحرب، وقد حدث الاعتراض على

اختيارك لهذا المكتب لأنك أجنبي لا فرنسي وكانت إجابتي على هذا الاعتراض: إن الدولة تختار الجواسيس الصالحين للعمل من شتى الأجناس إذا وجدت الأسباب التي تحمل على الثقة بهم، والذي يزكي هذا الضابط لقبوله بذلك المكتب هو ثقتي به بعد الاختيار.

وأمرني بالاستعداد للسفر على أول باخرة تعود لمرسيليا، وأخرج من جيبه غلافاً مختوماً أعطاه لي وقال:

«عند وصولك إلى وزارة الحرب تقدم نفسك لمدير المكتب وتسلمه هذا الخطاب».

شكرت الجنرال على حسن ظنه بي وعلى رغبته في معاونتي، ولم أعترض على نقلي إلى باريس لأنني رغم عطفه علي كنت متذمراً من وجودي بين ضباط تلك الفرقة الفرنسيين بسبب الغرور الذي يحملهم على الصلف والغطرسة وعلى ازدراء كل أجنبي كيف تكون صفاته وأخلاقه. وكنت قوي الرغبة في مفارقة أولئك المتغطرسين فأعددت نفسي للسفر، وودعت الجنرال وحده، ورحلت إلى مرسيليا، ومنها ركبت القطار إلى باريس فعدت طبعاً إلى دار البرنسيس وهو المأوى المفروض علي اللجوء إليه.

وعلمت من الأميرة أنها هي التي سعت بواسطة بعض أصدقائها لنقلي إلى المكتب الثاني بوزارة الحرب لأعيش إلى جانبها بباريس فشكرتها طبعاً على اهتمامها بأمري ودللت على إخلاصي لها بالإطاعة وتنفيذ كل رغباتها. لم أكن أعرف إلى هذه اللحظة شيئاً عن المكتب الثاني التابع لوزارة الحرب، وأردت أن أعرف لأكون على بصيرة ولأهيئ نفسي للعمل الجديد،

فشرحت لي الأميرة كل ما يختص بهذه الناحية شرحاً وافياً كأنها من أركان ذلك المكتب الخطير..

تتكون إدارة التجسس الفرنسية العامة من عدة إدارات فرعية تابعة لوزارات مختلفة فمنها:

١ ـ المكتب الثاني.. ويتبع مباشرة وزارة الحرب.

٢ ـ المكتب الثاني.. ويتبع وزارة البحرية.

٣ ـ المكتب الخاص.. التابع لوزارة الخارجية.

٤ ـ المكتب الخاص.. التابع لإدارة الأمن العام.

٥ ـ المكتب الخاص.. التابع لوزارة المستعمرات.

هذا المكتب بناء خاص في الزاوية القائمة على شارعي سان جرمين والاونيفرسيتيه، وله مدخل خاص عليه حارس متنبه، وكل زائر يلتمس الدخول يفحص أمره فحصاً دقيقاً ثم ينقل تحت الحراسة إلى غرفة انتظار تغلق عليه إلى أن يتم الفصل في موضوع الزيارة بالقبول أو الرفض. ولكل خزانة من خزائن هذا المكتب مفتاحان يكون أحدهما مع الموظف المختص والثاني مع رئيس القسم التابع له هذا الضباط، ولا يجوز فتح الخزانة إلا بعد معرفة السبب وإقرار العمل من الرئيس.

ذهبت إلى المكتب الثاني ومررت بغرفة الانتظار والفحص، ثم أذن لي بمقابلة الرئيس: الكلونيل سيكست، وقدمت له الخطاب المرسل إليه من الجنرال غورو فتمهّل في قراءته ثم دق الجرس، فلباه ضابط كبير يدعى الكلونيل ليفلو فسلمني له ليدربني على العمل الجديد في القسم الذي يتولى رئاسته.

وضعت المادة تحت الضغط، وحشر الإنسان في الفرن العالي

الحرارة ليتم صهره، وتحركت آلات التفريغ لتنتزع من الإنسان إنسانيته وعاطفته وعقله وحتى غريزته لتضع مكان العقل العادي غيره يصلح للعمل المختار له، ولتستبدل الإنسانية بالوحشية، والعاطفة بالقسوة، والغريزة التي تتجه لنداء امرأة واحدة بتأثير الجاذبية إلى غريزة حيوانية غير مستقرة تنطلق إلى كل النواحي بدون اختيار.

طال زمن التدريب إلى عام قضيته في مدرسة الشياطين التي يتولى إدارتها الكولونيل ليلفو، والدروس عملية تحت الإشراف الدقيق والضغط العالي من جميع الجوانب، فتحولت إلى آدمي جديد له صفات تخالف جميع صفات البشر وطبائعهم إنما له ميزة واحدة تدل على أنه جرد من الإنسانية، فصرت صالحاً للعمل محصناً من مؤثرات العاطفة والشفقة والجاذبية والمال، لأنني صهرت في حرارة أعلى من أي حرارة ستصادفني في الحياة فلا تقوى على التأثير في عاطفتي.

من المتعذر على الموظف في إدارة التجسس معرفة جميع الذين يعملون معه في المكتب الثاني، لأن كثيراً منهم موزعون في شتى أنحاء الأرض وحتى في مدينة باريس نفسها للاصطياد، بعضهم في زي خدم أو طهاة أو سائقي عربات أو موظفين في الفنادق، وبعضهن عاملات في المحلات التجارية أو راقصات أو مغنيات أو ممثلات أو ممرضات أو وصيفات.

وقد تنكَّر الكولونيل ليلفو مرة في صورة رئيس خدم المائدة في حفلة عشاء ساهرة في دار سفير دولة، وتمكّن في غفلة من الجميع من التسلل إلى غرفة السفير وسرق من خزانته الخاصة كتاب الشفرة فنقل منه الأبجدية وبعض الاصطلاحات، ثم ردّه

إلى مكانه كما كان فلم يكتشف أحد فعلته، وكافأته ادارة المكتب الثاني بسبب نجاحه ولكن مدير المكتب نصح له بعدم المجازفة بشخصه مرة ثانية في مثل هذه العملية محاذرة من اكتشاف أمره، فتنشأ من فضح شخصيته مسؤولية خطيرة للدولة، أشار عليه بالاعتماد في هذه الأمور على شخصيات من النكرات ذوات المقدرة والمران الطويل، لتتمكن الحكومة من إنكار ما ينسب إليها من الاشتراك مع الفاعل المفضوح.

١٩

دُرِّبت على تمثيل شاب أخرس لا يسمع ولا يتكلم إلا بأصوات تشبه أصوات ذوي الخرس، وأرغمت على الاحتفاظ بهذه الصفة وقتاً طويلاً، ثم جمعوني بسيدة هولندية شابة من ذوات الجمال النادر، عرفت أنها زوجة ألماني يملك ضيعة كبيرة في ضاحية ولهلمسهافن، ولكنها في الوقت نفسه من التابعات لإدارة التجسس في المكتب الثاني، وعملها المفرد أنها «صندوق»، والصندوق في اصطلاح التجسس:

«إنسان تودع عنده الرسائل الخاصة بالجواسيس المعروفين منها تامة، فتسلمهم الرسائل المرسلة إليهم أو تتلقى منهم الرسائل التي يراد إرسالها إلى الإدارة بواسطة الجواسيس عمال البريد، أو يستدرج إنساناً آخر ليتمكن الجاسوس المنتدب من الالتقاء به في ذلك الصندوق».

لفت نظري جمال ولهلمين ووداعتها، وارتحت للسفر معها لأكون خادماً في بيتها في الضيعة ولو أنني محكوم عليَّ بالخرس، ويكفي المرء ما ترتاح له العين من مشاهدة الجمال

والتأثر بفتنته، والبقاء إلى جانب حسناء لخدمتها أفضل من مجاورة عجوز دميمة تنفر النفس منها.

حضر زوج هذه الفتانة إلى باريس لأعمال خاصة بتجارته الواسعة، فعرضت عليه رغبتها في الحصول على خادم أخرس فضحك الرجل لغرابة الطلب ولكنه لم يرفضه، وهذه عادة كل كهل يقترن بشابة لأنه يحاول استرضاءها بجميع الوسائل الممكنة عسى أن يعوضها مما حرمت منه من بواعث اختيار المرأة الشباب.

وأشارت عليه بالتحدث بالتليفون مع المكاتب التي تورد الخدم ففعل، ولكن المطلوب كان نادراً في تلك المكاتب فلم تلب الطلب مدى شهر كامل حتى كادت تنتهي أيام الزوج في فرنسا ويحين موعد عودته إلى ضيعته في ألمانيا. ألحَّت عليه الزوجة الحسناء للبحث عن الخادم، وكرر الرجل توصية المكاتب مرات مع الوعد بمكافأة كبيرة لمن يتمكن من استحضار الخادم الأخرس.

وحضر إلى الفندق أحد أصحاب المكاتب وقابل الزوج ونبأه بوجود خادم من هذا النوع في ليون ولكنه يعمل في بيت أرملة عجوز من ذوات الثروة، وذكر له أن في استطاعته إغراء الخادم بترك مكان عمله إذا وُجدت المغريات، واشتركت ولهلمين في الرأي وسخت بالمغريات وبنفقات سفر صاحب المكتب إلى ليون لإغواء الخادم ولإحضاره معه.

ونفذ الرجل رغبة السيدة السخية وسافر إلى ليون وعاد بالخادم الأخرس، وفحص الزوج أوراقه الشخصية والشهادات التي يحملها الخادم للدلالة على أمانته فاطمأن لها، وقبل الأخرس ليخدم في بيته.

ثم رحلنا إلى ولهلمسهافن ووصلنا إلى الضيعة وبدأت أعمل كخادم خاص للحسناء الفاتنة، وبذلت الجهد في الخدمة لأنال رضا سيدتي بتأثير ارتياحي لجمالها لا بدافع الأمانة في تأدية عملي كجاسوس ينتظر الفرص لانتهازها ولتأدية الواجب المطلوب منه. ولم تعن ولهلمين بإدراك ما في نفسي من الشوق والرغبة، لأنها لم تكن معي امرأة لها شعور إنما آلة تنفذ ما صنعت له لا أكثر، فحملت هذا التغافل على حرماني من لساني الذي يعبر عما في نفسي، وعلى قلة ما وهبتني الطبيعة من مغريات المرأة الحسناء، فاكتفيت بما عيِّن لي من الخدمة وبالحسرة المستمرة.

وزاد في المنغصات أن ولهلمين كانت تستقبل في بيتها بعض ضباط الحامية الموجودة في ولهلمسهافن ومنهم القائد، كان برتبة قائد فرقة بلغ العقد الخامس من العمر ولكنه احتفظ بالصحة والعافية وبشباب القلب، وكانت ولهلمين تحسن استقباله وتعنى بإكرامه باهتمام واضح لم يغب عن عين الرجل، فعلَّل الأسباب كما شاء الغرور، وشجعته وداعة الحسناء على الطمع بأكثر من الإكرام.

وقد لاحظت أن الزوج يشترك مع زوجه في الحفاوة بالقائد أثناء الزيارات المتقطعة وتحترمه أجل احترام، كما لاحظت أن هذه الزيارات تكثر أثناء غياب زوج ولهلمين في أعماله التي تستدعي السفر. لعبت المرأة دورها مع القائد العسكري بمهارة صائدة الرجال المحترفة، كانت تظهر الارتياح لحديثه ومجاملاته، وتلين بتأثير عباراته ليتوهم أنه بالغ إلى الفوز فيزيد شوقه ويقوى طمعه، ولكنها كانت تحسن التصرف لوقف الاجتراء عند حد معين.

وكانت تسر بزيارات الضباط من الشباب وتنشط نشاطاً صادقاً في الترفيه عنهم بلعب التنس أو التريض في الحديقة الفسيحة أو بتوقيعها على البيانو، فيقضي الجميع وقت الزيارة في ائتناس وحبور. وموقع الضيعة بالقرب من ذلك المعسكر الحاشد بالضباط كان يغري الجميع بالتعريف بالحسناء صاحبة الأرض والقصر والجمال قوي الجاذبية، وشجعتهم المرأة بأدبها ودلالها وفتنتها على تكرار الزيارات في أوقات الفراغ. وفي نفوس جميع الشبان حافز للتمتع من قرب بمشاهدة الحسن في مجلس المرأة الجميلة وبسماع حديثها الحلو، وبالتأثر بجاذبيتها القوية.

كنت أمثل دور الخادم الأخرس بمهارة فلا أسمع العبارات الغرامية المستورة التي يختارها القائد لأذن الفتانة التي وقع في شركها، لم يكن يحترس مني أثناء وجودي لقضاء حاجة لهما لأنه علم من ربة الدار أنني أخرس والأخرس أصم لا يسمع. كانت ولهلمين تأمرني بالإشارة بالمحافظة على جواد الزائر وبالعناية إذا كان وقت الزيارة سيطول في يوم الأحد، أو حين تكون الزيارة بسبب دعوة من الزوج لتناول الغداء أو العشاء.

اطمأن لي الضابط الكبير لما آنس مني الاهتمام بجواده والابتهاج بزيارته، فعوضني من شعوري شعوراً بالشفقة علي يدل عليها بالابتسام، وزاد في ارتياحه اهتمامي بالسير وراء الجواد حتى يتجاوز حدود الضيعة إلى الطريق العام الموصل إلى المعسكر. ودائماً يزداد شوق الرجل إلى المرأة التي تستهويه ما دام لم يبلغ إليها ولا يسأم من التدلل والتمنع بل يجدد في عزم بذل الجهود للتمكن من تحقيق الرغبة. وهكذا كان حال ذلكم الألماني المتغطرس، زاد ولعه بالمستعصية عليه وتضاعف نشاطه لنيل

أمنيته، وكلما أحس ارتياحها له وتوددها إليه في ظرف ودلال اشتد طمعه بها وقوي أمله بقرب الوصول إليها، فكان لعبة في يد المرأة.

اطمأن حتى صرت أرافقه إلى حدود المنطقة المحرمة بعد انصرافه من تناول الشاي في الضيعة، وحمله الولع على استخدامي مرة في حمل كتاب مغلف إلي مولاتي أشار إلي بالحرص على هذا السر، وكان الكتاب أول مكاشفة بما في نفسه من العاطفة التي كبتها زمناً زاد عن حد الاحتمال.

ولم تنفر الهولندية من هذا الاعتراف لأنها قرأت الكتاب في ارتياح ثم أعطته لي لأطلع عليه، فكانت هذه الوثبة بداية التوفيق في الغرض الذي نتضامن للبلوغ إليه. لم تجب الخبيثة على كتاب العاشق بالكتابة، وتريثت حتى حضر زوجها ودعاه للغداء في يوم أحد، فلقي منها الحفاوة وغلواً في وسائل التكريم فاطمأن لها أنها لم تنفر من مكاشفته الجريئة. واستمر على عاداته في تكرار الزيارات حتى عرف عند الجميع بأنه صديق هذه الأسرة.

استبقت الحسناء القائد مرة إلى وقت متأخر من الليل ثم أمرتني بمرافقته حتى يصل إلى مقره. كان المطر رذاذاً فارتدينا أردية المطر ووصلنا إلى باب القلعة سالمين بفضل سر الليل الذي يعرفه، وشقَّ عليه أن أعود وحدي إلى الضيعة بسبب المطر الذي أخذ ينهمر، فدخلت معه القلعة ونمت في القسم الخاص به.

وجرأته هذه الحادثة على الإذن لي بدخول القلعة حين ترسلني مولاتي إليه لأي سبب وكانت المرأة تخلق هذه الأسباب في أوقات متقطعة، فعرفت في المعسكر وذللت لي العقبات التي

تحرم دخول القلعة، وظهر ارتياحي للرجل وابتهاجي بخدمته فزاد عطفه علي فصرت أكثر من البقاء عنده كلما جد ما يدعو لمقابلته لشأن يختص بموالاتي. ولم يجد الجنود ولا الضباط سبباً للنفور مني، وألفوا رؤيتي في معسكرهم، كذلك صادقني كلب القائد وارتاح لمداعباتي.

لبثت شهوراً على هذه الأمانة حتى اطمأن الجميع ثم بدأت عملية التجسس المنوطة بي كضابط في المكتب الثاني. وتذكرت مرة لوحة رأيتها في مكتب الكولونيل سيكست مكتوبة عليها هذه العبارة:

«دفع مليون جنيه للحصول على ضابط أركان حرب من الأعداء صفقة رابحة»

كان المفروض علي الحصول على أسرار خاصة بمدافع ثقيلة جديدة، وقد وضعت بعض هذه المدافع في ولهلمسهافن، فلم تكن العملية سهلة بل دقيقة لمعرفة أجزاء المدفع ووزن القذيفة، ومقاييس شتى ثم مدى الرماية. ودأبت على جمع هذه المعلومات جزءاً بعد جزء بعد فترات من الزمن، وكنت أبلغ رئيسي أولاً بأول بما حصلت عليه. كانت الكتابة طبعاً بالحبر السري وبشفرة خاصة، وكانت ولهلمين صندوق البريد فهي التي تتولى تسليم الكتب للجاسوس البريد.

اغتررت بالنجاح الذي وصلت إليه وكان هذا الغرور سبباً قلّل من الاحتياط ويسّر لي الاطمئنان فكشفت المصادفة أمري ووقعت في المأزق الحرج، والمأزق الحرج لكل جاسوس هو القبض عليه متلبساً بجريمة التجسس والعقوبة المعروفة لحالة التلبس: هي الإعدام..

مللت طول الإقامة إلى جانب ولهلمين الفتانة لأنها لم تشعر إطلاقاً بأنني شاب مبصر يرى الحسن ويشعر بتأثير الفتنة في نفسه، ولم تمكنني حصانتها من التودد إليها كإنسان فرض عليها أن تقبلني في بيتها خادماً أخرس فوضعتني في هذا الوضع ولم تتحول عنه. وقد غاظني منها هذا الجمود، وزاد في حنقي ما كنت أراه من نشاطها في مجاملة القائد وملاطفته إلى أقصى حدود الإغراء والتشجيع، حتى أمامي.

كانت تفترض عدم وجودي لأنها تعلم يقيناً أنني آلة ليس لها حس ولا شعور ولا غريزة ولا حقي في الاشتهاء والرغبة. وقد عمدت إلى الصبر والاحتمال ما استطعت إلى أن رأيتها مرة في غرفة الاستقبال بين ذراعي القائد فالتهبت من الغيرة وغلى دمي من شدة الغيظ وامتلأ صدري بالغل، فنفد الصبر وتلاشت قوة الاحتمال، وعزمت على التخلص بسرعة من هذا التعذيب لأنه فوق الطاقة، يجب أن أتم عملي إلى النهاية لأتمكن من مبارحة الضيعة والعودة إلى باريس، فأصررت على النشاط للانتهاء بسرعة لا يبررها الحرص، فاندفعت تحت تأثير الولع والغيظ والغيرة اندفاع أحمق فقد وعيه.

مكثت في القلعة في النهار الثاني وقتاً طويلاً، وغامرت بدون احتياط فجمعت بقية المطلوب مني، وكانت الرسوم والأرقام كثيرة لا يمكن أن تحتفظ بها الذاكرة كما كنت أفعل من قبل في أخذ البيانات عن جزء واحد من الأجزاء، فرسمت على ورقة وكتبت الأرقام في غفلة من الجميع وبينما كنت أطوي الورقة لأخفيها هاجمني كلب القائد ليداعبني فخطف الورقة وجرى بها وركضت خلفه في فزع لأستخلصها منه، فانفتح باب

مصادفة وظهر منه ضابط فرأى الورقة في فم الكلب ورآني أجدّ وراءه فصوَّب مسدسه إلى رأسي وصاح بي:

«ارفع يديك إلى رأسك»...

ما أخطر هذه الأمر الجازم!

إنه تهديد بالقتل إذا لم ينفذ بسرعة البرق، فرفعت يدي بحركة لا شعورية، فكانت الإطاعة من الأدلة على أنني أسمع فثبت ثبوتاً قاطعاً أنني لست أصم ولا أخرس، والنتيجة المنطقية لهذه الفضيحة ثبوت تنكري بهذه الحيلة للتجسس. صفر الضابط وأنا تحت رحمة مسدسه فهرع إليه بعض زملائه خرجوا من حجراتهم وقبضوا علي، ورأيت الكلب رابضاً على خطوات منا والورقة الخطيرة في فمه، فاستخلصها أحد الضباط وتحقَّق مما فيها ثم سلمها للضابط الأول، فأمر بنقلي إلى سجن القلعة فألقيت في دهليز الموت..

أدلة الإثبات ضدي قوية واضحة لا تترك منفذاً للشك في الإدانة وقد تم جمعها بسرعة، وليس في مقدوري ادعاء الخرس والصمم وجهل القراءة والكتابة لأن الدفاع على هذه الصورة عمل صبياني، وفي مقدور المحققين إرغامي على النطق بالتعذيب، والعقوبة على جريمتي التي اكتشفت في حالة التلبس التي عقوبتها الإعدام حتماً، وليس على ظهر الأرض قوة تستطيع إنقاذي من هذه الورطة.

ستنكرني فرنسا إذا اعترفت بأنني أتجسس لها، وستدَّعي ولهلمين عند سؤالها أنها خدعت وأنها لا تعرف عن حقيقتي، ولن يكون لدى الاتهام أي دليل يثبت عليها الاشتراك معي في الجريمة، وسينتهي الأمر بإعدامي، وبمعاقبة القائد بسبب غفلته

التي مكنتني من دخول القلعة والبقاء فيها في حرية بدون الشك في أمري.

ولكن المحقق لا يكتفي بإعدامي إنما يريد أن يسمع اعترافي بكل ما فعلت وبجميع ما حصلت عليه من الأسرار، فأصر على الحصول على هذا الاعتراف ولجأ إلى شتى الحيل للإغراء منها وعود سخية مع العفو عني واستخدامي في مكاتب تجسسهم، والطمع بالحياة والنجاة من الموت المحقق من أقوى المؤثرات في نفس شاب لم يشبع من الحياة ويرغب في البقاء.

ولكنني كنت على يقين من الوعود أنها كاذبة وأنها مجرد وسيلة لمعرفة الأسرار التي وفقت للحصول عليها. وكان اعتقادي الراسخ أن جريمتي لابد من العقاب عليها بالموت، وما دام الإعدام هو النهاية المحتمة، فلماذا أمكّن القوم من معرفة ما يريدون ؟ ولماذا لا أموت وتدفن أسراري معي انتقاماً منهم؟

أعجبتني هذه الخواطر بعد وزنها فأصررت على عدم الاعتراف، قلت لمجلس التحقيق:

«لقد تجسست وتمّ القبض علي وأنا متلبس بالجريمة، ولا مناص من الجزاء، وكل اعتراف لا يلطف من العقوبة التي أستحقها بسبب حماقتي وعدم احترازي من الفضيحة، فافعلوا بي ما تريدون لأنني عاجز عن النجاة وعن الدفاع عن حياتي».

لم ييأس المحقق من حملي على الاعتراف التام، وزاراني في السجن أمير من هوهنزولرن وأقسم بشرفه أن ألمانيا ستعفو عني وتستخدمني إذا اعترفت بكل ما حصلت عليه من الأسرار، وبالدولة التي تجسست لها، وبالوسائل التي اعتمدت عليها لتوصيل رسائلي، ثم بمكان الشفرة التي نتخاطب بها. لم أصدق

يمين الأمير واستنتجت من الاهتمام بالأمر أن المطاولة في التحقيق تحمل عليها الرغبة القوية في معرفةٍ مدى ما عرفت من الأسرار، ثم الحصول على الشفرة، ولماذا أمكَن قوماً عزموا على قتلي مما يهمهم معرفته مني؟

٢٠

كان السجن في قاع القلعة وهو عبارة عن حجرتين في إحداهما باب من قضبان الحديد السميك يوصل للثانية وهي السجن، الأولى يجلس فيها الحارس المسلح ووجهه لباب السجن للسهر على المسجون وللملاحظة جميع حركاته، والسلم الذي ينزل إلى هذا القاع ينتهي أعلاه بباب من الحديد يوصد من سطح الأرض، ولا يفتح إلا عند حضور ضابط لاستبدال الحارس بغيره عند انتهاء نوبته. وهذا الوصف البسيط يثبت استحالة الهروب من القبر المحصن.

وقد سئلت ولهلمين في التحقيق فذكرت أنها لجأت إلى مكتب توريد الخدم في باريس وأن أحدهم هو الذي قدمني لها ولزوجها، واعترفت بأنها طلبت خادماً أخرس لأن الخرس والصمم أضمن وسيلة لمنع الخادم من السماع ومن نقل أسرار البيت، وقدمت للمحقق أوراق شخصيتي والشهادات التي كانت معي وكانت سبباً في اقتناعها بأنني أمين صالح للخدمة في بيت كبير.

وسئل زوجها الألماني عني فأمّن على إجابة زوجته وأكّد أنها ذكرت الحقيقة كاملة، وأنها كانت حسنة النية وخالية الذهن من الحيلة التي خدعت بها وضللت الجميع، وفتشت الضيعة للاهتداء إلى الشفرة أو إلى رسائل خاصة بموضوع التجسس فلم يعثروا على أي شيء لأن ولهلمين أحرقت الشفرة التي اعتمدنا عليها كلانا. لم يجد التحقيق ما يثبت اشتراك الحسناء في جريمة التجسس، ولكن عدم وجود الأدلة لم يمنع الشك، كذلك لم يفت تلك المرأة الداهية إدراك ما في نفوس الألمان من ناحيتها.

أحدثت هذه الواقعة زلزالاً في الناحية كلها، وبخاصة في ولهلمسهافن وفي ضيعة ولهلمين، وصار الموضوع حديث الناس جميعاً، بينما كان التحقيق يتم في باريس سراً ليتمكن المحقق من العثور على أي تناقض يمكن من اتهام الهولندية الفتانة.

وبينما كنت مستغرقاً في النوم في إحدى الليالي فوجئت بضابط ألماني شاب ينبهني من نومي فاستيقظت، وأمرني بخلع ثيابي وارتداء ثوب الجندي الذي يتولى حراستي وجدت الرجل ممدداً على أرض الحجرة الخارجية بدون حركة فنظرت إلى الضابط في دهشة، فكرر أمره وزاد عليه كلمة «أسرع» فخلعت ثوبي واستبدلته بثوب الجندي وردائه وحذائه وقبعته، وحمل الضابط الجندي ووضعه في سريري وأدخله في ثوبي ثم غطاه. أشار علي فتبعته ومعي سلاح المسكين الذي لا أدري أكان مقتولاً أم مخدراً.

كنت أمشي خلف الضابط بخطوة عسكرية وكلما مررنا بحارس يرد الضابط على ندائه بكلمة سر الليل فيتركنا نمر، حتى وصلنا إلى باب يؤدي إلى البحر فاجتزناه ونزلنا على سلم حتى

وصلنا إلى الماء. كان تحت السلم زورق بخاري وبه سائقه فركبناه وانطلق بنا إلى الجهة الغربية، فمررنا على قرقولات خارجية في البحر، فأدركت من عملية الضابط أنه في النوبة ومن واجبه المرور على هذه الأماكن.

وانطلق الزورق إلى الغرب حتى صار على بُعد سحيق، وكان جلوسنا خلف السائق وظهره إلينا ففاجأنا الضابط مفاجأة مزعجة، ثبّت فوهة المسدس في مؤخر الرأس وأطلق رصاصة قضت على الجندي في الحال، فتولتني الدهشة وخشيت أن يكون حظي كحظ ذلك المنكود، ولكنني لم أحدث حركة ولا صوتاً وتنبهت لنفسي في محاذرة.

جلس القاتل مكان المقتول وأدى عمله بمهارة فلبثنا في هذه السياحة قريباً من ساعتين، وكان الزورق يقترب من الشاطئ فلاح لنا في الأفق ضوء مصباح يظهر برهة ويغيب أخرى، فقصد الزورق لناحيته حتى كدنا نلمس البر وأخذ الضابط من بطن الفلك أثقالاً من الحديد لف بها جثة المقتول، ثم ألقاه في البحر ليغوص بأثقاله، ولما رسونا على البر أُمرت بالنزول.

وخلع الرجل ثيابه وألقاها إلى جانبي ثم أبعد بالزورق إلى خضم البحر، وهناك نسفه بعد الاحتياط لنفسه بالابتعاد عنه قبل حدوث الانفجار، وعاد لناحيتي سابحاً، وبدأ ضوء النهار يعود إلى الكون فمكنّنا من رؤية الطريق الذي انطلقنا فيه حتى بلغنا كوخاً في مزرعة فدخلناه، فزلزلتني المفاجأة الثالثة لأنني رأيت أمامي ولهلمن، رأيتها ترتمي في أحضان الضابط القاتل. لم أر هذا الشاب إلا مرات قليلة في الضيعة مع بعض زملائه، ولم ألاحظ إطلاقاً حركة تدل على أي علاقات عاطفية بينه وبين

الحسناء فاتنة الجميع، وإذا بهما يكشفان فجأة وبدون تهيب حباً طاغياً.

من المحقق أن اكتشاف هروبي من القلعة وجثة الجندي وغياب ضابط النوبة واختفاء الزورق وسائقه حوادث خطيرة تحدث رجة هناك، وستطلق جماعات من الجنود ومن الجواسيس في إثري للبحث عني في كل ناحية في البر والبحر، ومن المرجَّح أن المطاردين سيصلون إلى هذا الكوخ.

سئمت الحياة وأنا في السجن مهدد بالإعدام في كل لحظة وكنت أتمنى التخلص من الحياة بسرعة بتأثير اليأس واستمرار الفزع من الموت، وأما وقد نجوت من السجن ومن عقوبة الإعدام فقد تجدَّد أملي باستبقاء الحياة وعزَّت عليَّ الروح، فصرت قلقاً من بقائي في هذا الكوخ نفسه.

نزلنا نحن الثلاثة من فجوة إلى سرداب إلى حجرة فسيحة في جوف الأرض تصلح للبقاء فيها وخلفنا وراءنا صاحب المزرعة الصغيرة ليزيل من أرض المكان كل أثر يدل على مدخل هذا المخبأ الذي عزلنا عن عالم الأحياء. أقمنا في هذا القبر الفسيح المنظم أسبوعين لتضليل المطاردين عن الاتجاه الذي سرنا فيه، ثم انتقلنا منه إلى مزرعة أخرى تبعد عن الأولى ١٢ ميلاً قطعناها طول الليل، واختبأنا هناك في ملجأ يشبه الأول مخبوء تحت إسطبل.

وفي إحدى الليالي الممطرة خرجنا إلى ظهر الأرض وافترقنا. تسلَّمني رجل ليرافقني إلى الحدود، وبقيت ولهلمين مع خليلها وفي عزمهما الهروب من ألمانيا من طريق آخر لا أعرفه، فانقطعت أخبارنا عن بعض مدى تسعة أعوام.

كنت في القاهرة متنكراً باسم الخواجا غالي جرجس وأسكن أوتيل ناسيونال بشارع سليمان باشا في الغردقة ٢٣، وكان من عادتي قضاء بعض السهرة في قاعة البلياردو أو في البار. وكنت أتناول طعامي على الدوام في حجرة خاصة بي في الطابق الأرضي، وبينما كنت أدخل البار في إحدى الليالي فوجئت برؤية ولهلمين وخليلها الألماني في زاوية المكان يشربان قدحاً من الويسكي، عرفتها نحيفة لها روعة الخيال فملأت الهناءة بدنها صحة وعافية، وتشربت نضارة الوجه الصبوح لون الورد، وخطر لي بسرعة رأي طربت له.

عزمت على الرد على المفاجآت التي مرت بي في سجن القلعة وفي الزورق بمفاجأة مزعجة من نوعها، فدنوت من السائحين وجلست معهما بدون تهيب، وقلت:

«لقد تشرفت القاهرة بزيارة السيدة ولهلمين»

فظهرت آثار الدهشة والخوف على العاشقين، وقطب الرجل جبينه ونظر إلي شزراً ولكنني لم أبال بهذه النظرة القاسية وقلت:

«يلوح لي أن عيون ألمانيا لم تهتد إلى ضابط النوبة الهارب من ولهلمسهافن»

فبدا الاضطراب واضحاً على الوجهين، وظهر الغضب الشديد على الألماني، ولكنه استقوى عليه فأسكته، وسألني:

«من أنت.. وماذا تريد؟»

ورأيت وقف المداعبة عند هذا الحد فقلت:

«أنا الجاسوس الذي أنقذته من السجن»

فنهضت ولهلمين وأمسكتني من كتفي في حركة عصبية وقبلتني في جبيني، وقالت:

«مفاجأة سارة جداً»

ونهض الألماني وصافحني مصافحة حارة، وقال:

«لست آسفاً على ترك وطني ولا على خيانتي، لقد عوضت مما ضحيت أعظم سعادة في الحياة»

لقد مات زوج ولهلمين من زمن بعيد فتزوجها، اشترك الاثنان في إنقاذ حياتي ببواعث لم أعرفها، ولكنهما جازفا لإنقاذ هذه الحياة فأنا مدين لهما بها فكان لقاؤنا بعد ذلك الزمن الطويل باعثاً على المسرة فقضينا سهرة متعة.

قضيت ثلاثة شهور أتنقل من بلد إلى آخر حتى تمكنت من العودة إلى باريس فلم أجد بها مسكني الخاص ولا حاجاتي، وعلمت من حارسة الباب أن بعض أقاربي حضروا مع قومسير البوليس ودفعوا ما علي من الأجرة وأخذوا الحاجات فلم ألح في الاستفهام.

ولجأت إلى فندق قابلت الكولونيل ليفلو في النهار الثاني فسمع قصتي، ثم تركني في حجرة موصدة ساعات نقلت بعدها إلى مكتب الرئيس سيكست فقال لي:

«لقد أسأت التصرف في أول عمل نيط بك، وسبَّب القبض عليك عدة مشاكل مكدرة، واتُهمت فرنسا بأنك كنت تتجسس لحسابها، وظهورك هنا سيؤيد هذا الاتهام، والعمل في هذا المكتب يجب أن يتم بالخفاء وبدون إحداث ضجة، فلهذه الأسباب يتحتم خروجك من الأراضي الفرنسية جميعها، وسيتولى الكولونيل ليلفو تنفيذ هذا القرار».

ودق الجرس فلباه الكولونيل فأشار له برأسه إشارة خفيفة فساقني الرجل إلى السجن الخاص فقضيت به أياماً قليلة، ثم نقلت تحت حراسة خاصة إلى مرسيليا فوضعوني في قاع باخرة أوصلتني إلى الإسكندرية.

في منزل والدي...

١

كان والدي في ذلك الحين معاون بوليس طوخ وله من زوجته أربعة أولاد صبيان وصغيرتان ولكنني لجأت إلى بيته لاستجم بعد المزعجات التي زلزلت أعصابي وفي نيتي البحث عن أي عمل أرتزق منه، ولم أقابل في ذلك البيت مقابلة تشجع على البقاء بين أهله، فعزلت في غرفة، ومنع الأطفال من الاتصال بي وقاطعني والدي وزوجه مقاطعة تامة. فإذا جاء وقت الطعام يحمله الخادم إلى غرفتي ومعه الخبز وإناء الماء فيضع الجميع على منضدة ويخرج، وإذا ناديته لقضاء حاجة لا يجيب النداء، وهذا التصرف جعلني في وضع لا أجد فيه أحداً أتحدث معه.

وحدث مرات أنني كنت أحتاج لشيء في غياب الخادم في السوق أو للتريض مع الصغار فأقف على باب الحجرة التي بها زوجة والدي وأطلب هذا الشيء، فلا ترد مباشرة إنما تقول:

«يا كرسي الصابونة في المطبخ»..

وإذا كانت في المطبخ تقول:

«يا حلة خذي الفوطة من الدولاب»..

لم أعرف سبباً لهذه المقاطعة فأدركت أن الباعث عليها عدم ارتياح الزوجين لوجودي معهم في البيت ولكنني لم أتذمر ولم أحقد على أحد، لأن والدي رأى في هذا التصرف وسيلة لإرضاء زوجته، ولأنه هو الذي شجعها على المقاطعة لأتضايق فأرحل من البيت. وأشهد أن هذه السيدة الأمية كانت تغمر أولادها بحنان عظيم وتعنى بتعليمهم رغم حقارة مرتب زوجها، كانت تقتصد من ذلك المرتب الضئيل لتقضي حاجات الأولاد، ولو تركوا لوالدي لعجزوا جميعاً عن إتمام الدراسة.

وقد قابلتها مرات بعد وفاة والدي، فكنت أجثو على الأرض وأقبّل يدها باحترام وأنا في أول العقد السادس من عمري، ولما تكررت هذه العملية مني قالت لي يوماً:

«أنت تخجلني بهذا الاحترام يا حافظ!»..

كانت تريد أن تذكّرني بالماضي وتصرفاتها معي فيه، قلت لها:

«أنا لا أحترمك ولا أقبّل يدك لأنك زوجة والدي إنما أرى أنك تستحقين هذا الاحترام لأنك عنيت بتربية اخوتي، كونتهم نافعين ونافعات في المجتمع».

ولكنني ألاحظ هنا أن نوع هذه التربية والمقاطعة المستمرة حولاني في نظر هؤلاء الاخوة إلى إنسان غريب عن عائلتهم، فاستمر البعد بيننا والقطيعة إلى نهاية حياتي. ولاحظت أيضاً أن هؤلاء الأولاد الذكور والبنات وهم رجلان وست بنات يجتمعون على الدوام حول والدتهم ويقاطعون والدهم الشيخ، مع أنه عاش معهم في البيت حتى انتهت حياته، وسبب هذا

الجفاء شعور الأولاد جميعاً بما كانت تغمرهم به الوالدة من الحنان والشفقة والمعزة فلم يرتاحوا لأحد غيرها.

هذا وصف موجز لبيت هذه الأسرة ولنوع التصرفات فيها معي ومع بعضهم، ولكنني أثناء إقامتي في طوخ كنت مرغماً على الاحتمال لأنني بدون عمل وبدون مأوى سوى هذا البيت. وكنت أفرّج عن نفسي بعد العصر كل يوم بالجلوس في المقهى المفرد الموجود في هذه القرية وقتذاك، وهناك أطالع ما أجده من الصحف مع بعض الجالسين.

وقرأت مصادفة في إحدى الصحف نبأ عودة الأميرة فيزنسكي إلى القاهرة، فهزني هذا الخبر لأن أخباري انقطعت عنها منذ رحلت إلى ولهلمسهافن، ولأنها كانت غائبة عن باريس حين عدت إليها، ثم أبعدت عن فرنسا كلها. سررت لظهور الأميرة ثانياً فأخذت من زوج والدي عشرين قرشاً وسافرت إلى القاهرة بدعوى البحث عن عمل، وطرت إلى منزل الأميرة فأحسنت لقائي وقالت:

«دع الماضي فلا فائدة من التحدث عنه، أردت لك رفعة سريعة فعاكستك الظروف فمن التعقل أن نبدأ الشوط من جديد بعيداً عن الحياة الجندية، وفي ميادين الأعمال الحرة فرص كثيرة يفيد منها من يجيد انتهازها».

وقالت: «كل عمل يحتاج إلى رأس المال وسأعاونك بما يحتاج إليه العمل مع إرشادك على الدوام حتى لا تخطئ فتنالك الخسارة».

كنت في حاجة للمأوى فوجدته ومعه العطف والحنان والسخاء والرغبة القوية في توجيهي في الحياة محوطاً بكل ما

يضمن لي النجاح، فنعمت بهذه الحياة وهجرت بيت والدي بدون أسف عليه.

ضاربت في البورصة باسمي وأنا لا أعرف شيئاً عن جو المضاربات ولكنني كنت أُوجَّه فأُطيع فأربح ربحاً وافراً. وصار لي مكتب لأعمل القومسيون وبه إدارة وموظفون، ونفوذ الأميرة وتوصيتها تزيد في الثقة بي وفي كسبي.

ومرضت الأميرة وأرغمتها الظروف على الإقامة بالإسكندرية في فيلا على شاطئ البحر، فكونت لي بيتاً فخماً في القاهرة، وكنت أزورها مرة كل أسبوع وأقضي عندها يومين وكانت إذا حضرت إلى القاهرة لعمل لا تأنف من زيارتي في بيتي المتواضع.

اشتريت عربة وخيلاً وصار لي إسطبل، وكونت من الربح رصيداً كبيراً في بعض المصارف، وأسرفت في الإنفاق للتظاهر وكان من عادة الشبان أبناء الذوات في ذلك العهد التزين بالأحجار الكريمة، فتزينت بالبرلنت والزمرد والياقوت، وجعلت اللؤلؤ بدلاً من أزرار القميص.

لم يكن لي في مصر أصدقاء لأن زملائي في زمن الدراسة العسكرية صاروا ضباطاً في الجيش ومقر عملهم السودان، ولأن زملاء الدراسة الثانوية لم تستقر صداقتهم بسبب صغر سني أيام المدرسة. ولكن المال إذا ظهر في يد إنسان يجذب إليه الأنظار والمطامع، فعرفت رجلين أحدهما موظف في محل تجاري إفرنجي يدعى حسن حلمي، الثاني كان ناظر مدرسة أميرية وفصل من وظيفته فصار مدرساً في مدرسة أهلية اسمه محمد ربيع، كنت اكتفي في بدء هذه الحياة الجديدة بنزهة إلى الهرم في عربتي أو

على دوكاري، وبتناول طعام العشاء في مطعم فخم، ثم أعود إلى بيتي فأقضي وقتاً في المطالعة ثم أنام.

فلما عرفت الصديقين الجديدين كنت أصطحب المدرس في العربة للنزهة ويرافقني إلى المطعم للعشاء وهناك يوافينا حسن حلمي عقب انصرافه من عمله فيشرب ويتناول طعامه معنا ثم نخرج للسهر. بدأت هذه السهرات في قهوة المصرية «كافيه إجبسيان» وكان بها فرقة موسيقى وترية من فتيات ذوات حسن وجمال لا يقل عددهن عن اثنتي عشرة حسناء، وكن تحت رقابة رئيس الفرقة يجئن معه إلى مكان العمل ثم يعدن معه في الليل إلى البيت المستأجر لسكن فرقة البنات، أما الرجال فلهم بيت آخر.

جالست هؤلاء البنات مرات كثيرة فارتاحت نفسي لمجالسة النساء أحسست نشاطاً يدفعني لمثل هذه المجالس، وشكوت للزميلين من قسوة النظام المتبع في هذه الفرقة فأراد الصديقان تسليتي في غير هذا المكان، فقاداني لأول مرة إلى الالدرادو القديم في حي الأزبكية.

وجدت المكان مزدحماً برواده وهم خليط من الخلق هذا يدخن الشيشة آخر يشرب الخمر وغيره جالس وسط المكان مع راقصة يسكران في غير تهيب من النقد، ورأيت الراقصات منتشرات بين الجمهور هذه تبحث عن صديق قديم وتلك عن صديق جديد ورأيت على المسرح أريكة مستندة إلى الحائط تجلس عليها المغنية والى جانبها الراقصة التي عليها النوبة للرقص. وعلى كراسي متجاورة أفراد التخت ينصت البعض لغناء المغنية، وتعلو أصوات البعض في الحديث مع الراقصات الجالسات معهم

للمؤانسة، وكل امرأة من أولئك المستهترات في ثوب فاقع اللون يغطي صدرها ومرفقيها حليّ من الذهب الثقيل، حتى الشعر المرسل إلى الخلف جدائل كانت به حلي.

مشهد جديد لم أره من قبل ولكل جديد تأثير في العين والنفس. وجاء الخادم فطلبنا خمراً، ومرت بنا راقصة تتمايل تدلُّلاً فناداها حسن أفندي فوزنتنا بنظرة فاحصة فرأت في صدري دبوساً من البرلنت وفي يدي خاتماً من نوعه فاطمأنت وجلست، وجاء في إثرها الخادم يسألها عما تريد أن تشرب فقالت:

«دستة بيرة..».

والدستة ١٢ زجاجة، وكان ثمن الزجاجة خارج قهوة الغناء قرشين، وثمنها في قهاوي الغناء عشرة قروش. وأحضر الخادم دستة البيرة في قفص من الجريد ووضعه عند قدميّ الراقصة وانتزع منه زجاجة صب ما فيها في أقداحنا الثلاثة، ثم حمل قفصه وعاد به، ولكننا سندفع ثمن الدستة كاملة لأنها طلب الست.

كانت المرأة أمية جاهلة ولكنها ثرثارة تجيد الحديث الفارغ والقهقهة وتبدي التدلل بحركات واضحة لا صلة بينها وبين الدلال الذي يدل عليه معنى الكلمة، ومنَّت عليَّ برتبة بك بدون براءة الرتبة وكانت طول السهرة تكثر من تكرارها:

«اتفضل يا بيه وعلشان خاطري الكاس ده يا بيه وسيجارة من فضلك يا بيه، وهات ريال بقشيش للجرسون يا بيه وكمان ريال لخدامي يا بيه»..

وقدح البيرة يشرب في دقائق وبخاصة إذا تعجلت الست

جماعة الشاربين، فإذا خلت الأقداح تصفق فيحضر الجرسون وتأمر الست بدستة بيرة من جديد فيحضرها الخادم ونشرب منها زجاجة واحدة كالنظام المتبع مع المغفلين.

شربت أقداحاً من البيرة الساخنة خجلاً من الست أو مجاملة لها ودفعت ثمن الدستة التي أمرت بها الست ودفعت كل ما طلب من البقشيش وقمنا للانصراف فشيعتنا الراقصة إلى الباب الخارجي حتى تحضر العربة التي طلبناها، وكان على مقربة من الباب وفي وسط الشارع الضيق القذر عسكري من البوليس فأسرت المرأة في أذني هذه العبارة:

«من فضلك نص ريال للجاويش ده راجل طيب وبكرة يخدمك»

وطلب الست لا يجوز رفضه فتناولت مني قطعة النقود وأشارت للعسكري فخطا إلينا في كبرياء وناولته المرأة البقشيش خفية في مصافحة وقالت له:

«ربنا يطول عمر البيه».

وجاءت العربة فحملتني إلى البيت وحملت بعدي حسن وربيع إلى داريهما، فانتهت الليلة الأولى في عالم الفساد بهز كتفي استخفافاً بكل ما رأيت ومن شاهدت.

بدأت السهرة في الليلة الثانية في مطعم سانتي داخل حديقة الأزبكية، وأظهرت عدم رغبتي في الذهاب إلى الالدرادو القديم فقال حسن:

«بلاش القديم يا سيدي نروح الجديد».

وقصدنا إلى الجديد في شارع وجه البركة كان الشارع في

ذلك العهد من أنظف الشوارع في حي الأزبكية، على جانبيه مطاعم فخمة تغمر أنوارها الشوارع، وبه محلات تجارية كبيرة، وفي نهايته بار فخم جداً رأيت أمراء يجلسون فيه. وفي الشارع الالدرادو الجديد، المدخل نظيف ومنظم وفيه على يمين الداخل البار، ثم يسير الزائر في ممر فسيح يوصل إلى باب يسبقه حاجز من الخشب المعشق من نوع ما كان يسمى «مشربية».

والقاعة التي بها المسرح مستطيلة فسيحة رصت فيها المناضد صفوفاً متوازية وفي المكان جمهور يلوح للعين أنه أرقى من الذين كانوا في الالدرادو القديم. أما نظام الغناء والرقص بالصاجات على نغمات الدربكة، وانتشار الراقصات بين الجمهور فكانت صورة طبق الأصل للالدرادو القديم فجلسنا في نهاية القاعة بعيداً عن الزحام وعلمت من ربيع أفندي أن هذه عادة الذين يميزون أنفسهم على الباقين.

وبدأت عملية الاستشارة بين الرجلين حتى استقر الرأي على راقصة معينة، فاستدعى حسن أفندي الجرسون وطلب منه استدعاءها، ولكن الست لم تحضر لأنها فضلت الجلوس مع غيرنا إلى جانب الحائط فسلانا ربيع أفندي بالكونياك حتى تنتهي الست من الصفقة الأولى ثم تشرف مجلسنا.

ولكنها لم تشرف وظهر الغضب على الزميلين طال المكث في المقهى ونحن على هذه الحال من الاستهتار والسفه، وانتهى وقت السهر وبدأ المكان يوصد أبوابه فدفعت ثمن ما قدم لنا، ونهضنا للانصراف فلما قطعنا الممر المؤدي للباب الخارجي ووصلنا إلى باب البار، ظهر الخواجا واستوقفنا ليكلمنا ولكنه جعل يجذبني إلى داخل البار محاذرة علي من الزحام قال:

«أنا زعلت الست شفيقة كتير خالص علشان سعادتك.. وهي متأسفة كتير وعاوزة تعتذر للبهوات.. معلش علشان خاطري».

ويقتضي الحال وصف العصر الذي عشت فيه والأسباب التي أثرت في حياتي وتصرفاتي وأدت إلى نتائج هدمت بعض نواحي هذه الحياة، كانت المفاسد الظاهرة والمستورة أقل بكثير مما في العصر الحاضر[1]، وكانت التقاليد والغيرة على الأعراض واضحة في كل أسرة فرضت حماية المرأة من شتى البواعث على الاستهتار أو التفريط أو مخالفة العادات والتقاليد.

كان للبغاء حي ضيق محدود وللبغاء السري بيوت قليلة متباعدة عن بعضها، وكان في القاهرة عدد قليل من قهاوي الغناء والرقص الخليع منتشرة في حي الأزبكية لا يزيد عددها عن ستة، وكل من فيها من الراقصات ذوات الخلاعة لا يزيد عددهن عن دستتين من النساء، يتنافس في التودد إليهن الفاسقون من أنحاء القطر كله.

يبيع القروي الثري قطنه فتتحول جهوده ودخله إلى كمية من النقود الذهب فينطلق إلى حي الأزبكية لينفقها في شرب الخمر وللتودد لامرأة مختارة من هؤلاء الساقطات يغدق عليها ماله في سخاء يبلغ حد الجنون. يشرب الرجل أقداحاً من الخمر، ويتناول عشاءه في مطعم مع رفاق من نوعه، ثم يقصد إلى قهوة الغناء لا ليسمع الغناء وإنما ليجلس مع المرأة المختارة ويطلب لها ما تأمر به من زجاجات البيرة.

(١) يقصد المقارنة بين الفترة التي يحكي عنها. السنوات الأولى من القرن العشرين، والسنوات الذي دوّن فيها مذكراته، وهي سنوات الأربعينيات.

وصاحب هذه القهوة يكون عادة سورياً أو يونانياً، وكلاهما يطلب الكسب بجميع الوسائل ومنها فرض عملية الخمر بالجملة على كل راقصة تعمل عنده وتزيد مجاملته لكل من تسرف في هذه العملية لسلب نقود من يلقيه غرامه الطائش في شركها، فتندفع النساء بدون رحمة في تنفيذ رغبة الخواجا لنيل الرضا منه، ولا تكتفي المرأة برجل واحد في السهرة لابتزاز ماله إنما تنتقل بين الجمهور لتصطاد من المغفلين من يسهل عليه تنفيذ مطامعها، وبهذه الوسيلة يزيد دخل الخواجا مما يدفع ثمناً للخمر.

وكان من أشهر الراقصات في ذلك الزمن «شفيقة القبطية»، لم تكن جميلة ولا رشيقة إنما كانت خليعة وراقصة مقتدرة فكونت لنفسها شهرة، والشهرة على الدوام من أسباب الإقبال على البضاعة المعلن عنها، ولهذا انصرف الأغنياء من المغفلين لناحية هذه الخليعة، وتنافسوا في التودد إليها وأسرفت هي في سلب أموالهم فخربت بيوتاً وبددت ثروات وصلت في النهاية إلى جيوب أصحاب تلك القهاوي عن طريقها.

غالت هذه الراقصة في جميع المظاهر التي تلفت النظر فصارت لها أملاك من العقار وعربة فخمة وخيول وخدم سخت في الإنفاق عليهم، ولكن هذا العز لم يدم إلى الأبد فانتهت حالها إلى الفقر بعد زوال شبابها، ولجأت إلى قهوة قذرة في أحط أحياء الدعارة لتعمل فيها خادمة ومتسولة، ثم ماتت بائسة محرومة من جميع ضروريات الحياة.

مثلت هذه المرأة دورها المألوف معي كما مثلته مع مئات من أبناء الذوات والعمد والأعيان، واستمرت على الجلوس معنا نحن الثلاثة طول السهرة في المقهى وأكثرت من طلب زجاجات البيرة

في الأقفاص ومن الكونياك للشرب، لاسترضاء الخواجا. أما البيت فكانت نفقاته بدون حساب ويزيد عليها من آن لآخر حساب تجار الأقمشة.

كانت تشتري لنفسها الأنواع بالعشرات وتبتاع أيضاً لكل الذين في خدمتها من النساء والرجال والأهل والحاشية، وتحوّل هذه المبالغ علي لأدفعها. وحدث مرة أننا خرجنا بعد سهرة إلى نزهة بشارع الهرم في عربتها وعدنا مع طلوع النهار، فصادفنا بين كوبري قصر النيل والكوبري الأعمى (كوبري الإنجليز الآن) قطيعاً من الخراف يسوقه صاحباه لناحية المدينة فاستوقفت الرجلين واختارت من القطيع ثمانية رؤوس من الغنم مرة واحدة، ووكلت إلى سائق العربة نقلها إلى البيت ثم حلت هي مكان السائق لقيادة العربة.

خطر لها عند رؤية قطيع الخراف فكرة عمل «زار»، فاشترت نصف القطيع لتنفذ هذه الفكرة، ولما استيقظت من النوم بعد ظهر ذلك النهار أرسلت في طلب الكودية «شيخة الزار»، وكتبت بياناً بما تحتاج له الحفلة من المعدات ثم بدأت عملية التنفيذ، وبدأت أدفع أثمان هذه الحاجات وجمعت الحفلة صنوفاً من الراقصات والخليعات وحتى من ربات البيوت والفتيات.

وتولى عملية طهي الطعام لهذا الجيش بعض الطهاة وجلست وصاحباي في النوافذ المطلة على فناء البيت لمشاهدة ما دار في الحفلة من حركات رقصات الزار على نغمات «التار» المزعجة. ظنت هذه المخربة أنني مغفل وأنني بسبب غفلتي أدفع ما تحاول سلبه مني بدون وعي ولا حساب والحقيقة أنني لم أتأثر إطلاقاً بأنوثة هذه المرأة ولا بخلاعتها، وكنت أعرف يقيناً أنها تمثل دور

عاشقة في الظاهر ودور سلابة في الواقع، وكنت أدفع ثمن التسلية في هذا الجو المضطرب لأن لكل شيء من الرغبات ثمنه، فكذلك التسلية.

لم تدم طبعاً هذه الحال لأن النفس تسأم الاستمرار على وتيرة واحدة لا تبدل فيها ولا جديد عليها فتحول الملل إلى رغبة في التجديد والى دور جديدة للغناء والرقص للبحث عن وجه جديد. والحياة على هذه الصورة تؤدي حتماً إلى عدم العناية بالعمل، فكنت أذهب إلى مكتبي وأقضي فيه أقل من ساعة، وكذلك كان يفعل الوكيلان حسن حلمي وربيع ثم نخرج نحن الثلاثة للترويح عن النفس بسهرة جديدة في بؤر الفساد.

وكنت أدفع للاثنين مرتبات تزيد كثيراً عما كانا يحصلان عليه في عملهما الأسبق وكنت أدفع نفقات البيتين في سخاء لأن الموظف الذي يتولى شراء حاجات بيتي يشتري ثلاث كميات متساوية من كل نوع ويوزعها على البيوت الثلاثة كذلك الثياب وشتى حاجات الستر يتم الحصول عليها على هذا النظام، أما نفقات السهر والسفر إلى الإسكندرية للتريض ولتنوع المروحات فكانت تدفع من جيبي مباشرة فيتوفر مرتب الرجلين لأنهما لا ينفقان منه شيئاً.

بدأ دخل المكتب من الأرباح يقل بسبب إهمال العمل، ولكن الرصيد السابق الحصول عليه كان كبيراً. وحانت الفرصة لشراء عقار فاشتريت مدرسة الفرير على ناصيتي شارعي الساحة وأبو السباع واشتريت أيضاً عمارة كورونيل المجاورة لها عمارة البرنس باتنبرج مدير شركة قنال السويس التالية لها في نفس شارع أبو السباع. ورغم حياة الشطط والسفه كنت أحتفظ

بالنظام المفروض على علاقتي بالأميرة فيزنسكي أقابلها كل أسبوع في الإسكندرية وتقابلني في القاهرة. ولكنني كنت أشعر بانقباض الصدر في تلك المقابلات الطويلة بسبب ظهور الهرم على المرأة وبسبب ملذات اللهو التي ألفتها وانحصرت فيها رغباتي.

٢

عرفت جميع الراقصات العلاقة التي بيني وبين شفيقة القبطية ووصل إلى علمهن مقدار سفهي وتبذيري في الإنفاق، وقد تجاوزت شفيقة حينذاك الحلقة الرابعة من عمرها وفقدت المغريات التي تجذب إليها الطامعين في الأنوثة الجذابة، ولم يبق لها من أسباب الشهرة الماضية سوى الرقص والتبذير والقدرة على الابتزاز والسلب.

وفي ذلك الجو الذي تعيش فيه الراقصات للاتجار بالأنوثة والخلاعة تتجه رغبة كل واحدة منهن لصيد أضخم سمكة أو أشهر سفيه مغفل وكنت وقتذاك المغفل الكبير المطموح في الحصول عليه بسبب مميزتي المغرية: الشباب والمال والسفه. وغمزت سنارة راقصة تدعى حميدة، وجذبتها وفيها السمكة المشتهاة: حافظ صديق شفيقة فكان انتصاراً عظيماً للراقصة على منافستها القديرة ولكنها خافت شر شفيقة الجريئة فامتنعت عن العمل ولزمت البيت. وظلت الحياة في هذا البيت شهوراً على وتيرة واحدة كانت مسلية في أول الأمر ثم تدرجت إلى الملل منها: نستيقظ عند منتصف النهار ونشرب البيرة مع تناول الغداء

ونفرط في الشرب حتى تدور رؤوسنا فنعود للنوم ونتنبه في المساء لنتريض في شارع الهرم.

وكان في الجيزة في مكان كوبري عباس حانة داخلة في النيل قائمة على أعمدة غرفة واحدة كبيرة ولكنها منظمة وتطل نوافذها العريضة على مجرى النهر، فصرنا نقضي بعض السهرة في هذا المكان نشرب الخمر ونسمر ثم نتمم السكر في البيت حتى يغلبنا النوم، والذي يتولى الخدمة في هذا عجوز ظهر بعد حين أنها أم حميدة، وصبية اتضح أنها أخت الست، وخادم فتوة عرفت بعد فوات الأوان أنه شقيق حميدة.

السهر في قهاوي الغناء سهرات مكشوفة تمكن العيون من رؤية السفهاء وما يفعلون، وبين الناس متظرفون ينتهزون الفرص للتعرف بالسفهاء ثم يتظرفون معهم لاكتساب الود ويجدّون لتوثيق هذا التعارف ليتحول إلى صداقة ترتفع بعدها الحواجز وتزول الكلفة فيعيش الطفيلي على أكتاف السفيه كما تعيش الطفيليات على غيرها من النبات.

تعرف إلينا شاب سوري من هذا النوع يدعى جورج طنوس، كان لبقاً وأنيساً ومتظرفاً، ومكنت له صفاته تأثيرها في نفسي حتى صار ضرورة من ضروريات مجالس السهرات، بل صرت أوثره على زميلي التابعين لي. وعرفت أنه يعمل كمحرر في جريدة الوطن لصاحبها جندي بك إبراهيم. ولما بلغت الثقة بهذا الشاب حدها الأقصى صارت له قدرة على الاختيار وعلى التوجيه فحملني على التسلل مرات من ملازمة حسن حلمي وربيع أفندي لنضل في الظلمات وفي أعماق عوالم جديدة، كان يصفها بأنها تجديد في المروحات عن النفس.

وكانت في الواقع سهرات خاصة ممتعة ترتاح لها النفس وتصبو إلى غيرها، وفاجأني مرة في بيت حميدة مفاجأة سارة أثناء غياب الست عند الخياطة وقال لي إنه يستطيع إعداد سهرة نادرة المثال في مجلس فتاة تركية لا تزال عذراء، ولكن والدتها تشترط أن تنال مائة جنيه لتمكننا من هذا السهرة مع الفتاة.

ولأنه ظن أن دفع هذا المبلغ مرة واحدة صفقة تحتاج للإلحاح لتيسير الدفع فجعل يصف محاسن التركية العذراء وصفاً خيالياً كما في الروايات وكانت الإجابة على هذا العرض قصيرة جداً وضعت في يده ورقة ذات مائة جنيه وفي مساء هذا النهار نفسه تسللت من الجميع.

وقابلت جورج في مقهى عيّنه لي في الفجالة فأخذني إلى بيت في أحد الشوارع المتفرعة من الشارع العمومي فقابلني أهله بالترحيب أشار جورج إلى عجوز وقال إنها أمه والى شاب صرح لي بأنه أخوه وصناعته خياط، وإلى صبي آخر وعرفت أنه أخوه الصغير، ثم قال:

«هذه عائلتي وأنا عائلها المفرد، ومرتبي لا يكفي النفقات الضرورية فلا بد لي من عمل جدي إضافي أفيد منه ربحاً لاستكمال النقص في دخلي، وقد اختلقت القصة التي قصصتها عليك لأجرك إلى هذا البيت فترى بعينك أهلي ولتعرف أمري، وها هي الورقة التي أخذتها منك بالحيلة أردها إليك فإذا اقتنعت بأنك ترتاح لمعاونتي تصير هذه الورقة رأس المال الذي يمكنني من إظهار مجلة أدبية باسم «الأقلام» فأربح منها ما يكفي حاجات هذه العائلة الشريفة».

وقال: «إن هذا المبلغ تنفق أضعافه في سهرات تزول مؤثراتها

مع طلوع النهار، أما إنفاقها للمعاونة في عمل شريف لمعاونة رب عائلة شريفة فإنه من الخير بدافع من الإنسانية».

أعجبتني الوسيلة التي اختارها جورج لإقناعي بضرورة معاونته، أثرت صراحته في نفسي تأثيراً ارتحت له وأدركت في تلك البرهة الفارق العظيم بين البؤر التي أبذر فيها المال وهذه الحياة الشريفة المحترمة وقدرت الباعث على طلب المعاونة حق قدره ولكنني أخذت الورقة ورددتها إلى جيبي وأخذته وانصرفت، ظن الجميع أنني بخلت بإعطاء هذا المبلغ، ولكنني حين بلغت الشارع قدمت للشاب الذي أرغمني على احترامه ورقتين وصارحته بأن هذا أحسن عمل ارتاحت له نفسي وملأها ابتهاجاً ومسرة، وصارحته بأنني لم أشأ أن أقدم له هذه المعاونة أمام الحاضرين حتى لا أغمر بعبارات الشكر فترقرق الدمع في عيني الصديق وعانقني فصرنا من تلك البرهة في مثل آصرة أخوين..

٣

اعتدت السفر للإسكندرية مرة كل أسبوع خضوعاً لنظام البرنسيس فيزنسكي فقابلت عندها مصادفة سيدة سورية أديبة لها جمال هادئ وجاذبية صامتة ووداعة وعرفت أنها السيدة ألكسندرا أفيرينو صاحبة مجلة «أنيس الجليس»، كنت في نشوة الصبا وفورة الغريزة في الشباب، فلم يكن وزن المرأة في نظري بمواهبها ولا بأدبها ولا بأخلاقها إنما بأنوثتها وبالمغريات التي تلفت النظر إليها وتنبه الشوق الحار.

وقد أحدثت النظرة الأولى للسيدة أفيرينو التفاعل العاطفي في فؤادي. بدأ الأمر بارتياح فعقدت العزم على الاحتيال لتحويل هذه المصادفة إلى معرفة وثيقة ولم يكن الأمر صعباً لأن المرأة صحافية ويسرها أن تجد لمجلتها مشتركين، ومن هذا الباب أستطيع الاتصال بها، فوضعت الخطة في الليل ونفذتها في النهار بدون تردد.

كان حسن حلمي معي في الإسكندرية ويقيم في فندق «أبات» أعظم الفنادق في ذلك الزمن فقابلته هناك في الضحى

وحجزت لنفسي غرفة لأنتقل إليها عقب الإذن لي بالعودة إلى القاهرة، وحدثت السيدة أفيرينو بالتليفون أرجو منها تحديد وقت لزيارتها لأنني أعجبت بأنيس الجليس وجمعت لها بعض المشتركين من ذوي الثقافة المنصرفين إلى الأدب فلم تتردد في إجابة الالتماس وحددت الساعة الرابعة للزيارة.

كانت جالسة في شرفة تطل على الشارع فوقفت العربة أمام الباب ونزلت ومعي حسن أفندي، وجاءت الحسناء بعد جلوسنا في قاعة الاستقبال في اتزان أكثر مما عرفته لها في بيت الأميرة وزادت عليه كبراً يلطف من مظهره دلال لا تريد أن تكون في وضوح. حصرنا الحديث في الأدب والصحافة لأنه السبب الأساسي للزيارة. أعطيت قريباً لها عناوين عشرة من معارفي ودفعت قيمة الاشتراك حفنة من الذهب فلم يفت المرأة كثيرة الاختبار والتجارب أنني انتحلت السبب للزيارة وأن الباعث الحقيقي اختفي وراء الظاهر.

وقام الدليل عندها على صدق ظنها من حفنة الذهب التي تركتها في يد الوكيل، ولم تظهر المرأة النفور بما اهتدت إليه، ولم يظهر ما يدل على ارتياحها فاستمرت في اتزانها وكبرها مع ظرف في الحديث تتخلله ابتسامات خفيفة تكشف للعين جزءاً من ثناياها، ولما حان وقت الانصراف ودعتني بهذه العبارة:

«من عادة إدارة المجلة دفع ٢٠٪ مكافأة للمندوب الذي يحصل قيمة الاشتراكات، فمن حقك طلب هذا النصيب في أي وقت تشاء»..

أدركت أن هذه العبارة لم ترسل اعتباطاً، قيلت تعمداً لتؤدي معناها الظاهر للتظرف في الشكر ولتشير إلى معنى آخر يدل

على عدم نفورها من تكرار الزيادة مدعمة بسبب. ولما عدت إلى الإسكندرية في الأسبوع الثاني حدثت السيدة بالتليفون أنذرها بأنني لا أتخلى عن نصيبي في قيمة الاشتراكات التي جمعتها ولمت الإدارة على إهمالها ردّ الحق إلى صاحبه وانتهى الأمر بتحديد وقت للزيارة الجديدة، فذهبت لهذه المقابلة وحدي. استمر هذا التعارف أربعة أعوام فقط تتخللها الزيارات كلما ذهبت إلى الإسكندرية. وكنت أرجو أن تدوم إلى نهاية الحياة ولكن الحظ العاثر تدخل في الأمر وحوله إلى خصومة وعداء في ضجة عالية.

من وسائل التودد اختيار هدايا للإهداء في مناسبات ففعلت، أسرفت وعرضت علي في إحدى الزيارات مجموعة صور شمسية لها وسألتني أيها الأقرب للطبيعة فاخترت صورة منها ودللتها عليها فانتزعتها من المجموعة وأهدتها لي فوضعتها في البيت في أقرب مكان يقع عليه نظري على الدوام، لم يكن في مقدوري أن أهدي صورتي لأنها متزوجة، فعهدت إلى أشهر رسام في القاهرة عمل صورة زيتية في الحجم الطبيعي نقلاً عن هذه الهدية وأجاد الرجل عمله ثم اخترت يوم عيد ميلادها لتصل إليها الصورة فيه.

وقد عرفت من كثيرين أن لهذه السيدة الحسناء علاقة تعارف بشخصيات كبيرة وجهات عالية ونالت من السلطان عبد الحميد نيشان الشفقة وثلاثة نياشين أخرى من دول لا أعرفها وأشاعوا أن أميراً إيطالياً أوصى لها بوراثة لقبه بعد موته فمات وحملت بعده لقب برنسيس..

٤

كان من عادة البرنسيس قضاء شهور من الصيف في أوروبا فكنت أرافقها في رحلاتها طوعاً أو كرهاً ثم أعود إلى القاهرة وإلى حياة الترف والسفه، واليومان اللذان أقضيهما في الإسكندرية كل أسبوع هما فترة الراحة والاستجمام من تأثير مرهقات الحياة المضطربة. وحدث في مارس ١٩٠٥ أن السيدة أفيرينو أرسلت لي بواسطة البريد صندوقا صغيراً به النياشين الأربعة لتنظيفها عند تاجر جواهر يدعى لاتنس فسلمته النياشين ثم استرددتها بعد أسبوع.

وذهبت بالصندوق إلى المنزل الذي أعددته لحميدة الراقصة لتناول طعام الغداء ومعي حسن حلمي ومحمد ربيع وفتحت حميدة الصندوق لمشاهدة ما فيه ثم أودعته خزانة ثيابها وهي على الدوام غير موصدة بالمفتاح. أكثرنا في ذلك النهار من شرب البيرة، ثم نمنا جميعاً في ذلك البيت لأنني وزميليّ على موعد السهرة في فندق الكونتيننتال مع فتيات فرنسيات.

سمعت من كثيرين في قهاوي الغناء أن لحميدة معشوقاً

تتفانى في حبه وتدفع له جميع نفقاته، ولكنني لم أره إطلاقاً، ولم أسمع أية كلمة عنه في بيتها فظننت ما ينقل لي من الحديث عنه دساً للتفريق بيني وبين حميدة بدافع من الغيرة أو رغبة في الكيد ليتم الفراق ولتعود الراقصة إلى عملها.

عدت بعد تلك السهرة الطويلة إلى البيت ومعي مفتاح الباب الخارجي للمسكن الخاص بنا فدخلت والقوم نيام وأنا في أقصى درجات السكر حاولت فتح باب غرفة النوم فوجدته موصداً من الداخل فقصدت إلى الغرفة المجاورة غرفة الاستقبال لأن لها باباً آخر يؤدي إلى غرفة النوم فوجدته موصداً هو الآخر فعدت إلى الباب الأول وجعلت أدقه لأنبه النائمة لتفتح الباب ولكنها لزمت الصمت برهة طويلة.

كان رأسي يدور من تأثير الخمر وطول السهر وكنت في حاجة شديدة للنوم في الحال فزدت الطرق شدة وعنفاً فأظهرت المرأة الغضب والعناد وجعلت تؤنب بصوت مرتفع جداً بسبب سهري الطويل خارج البيت وتركها وحدها، أيقظت هذه الضجة العالية أمها وأختها فجعلتا تلحان عليها في لطف لطلب المغفرة وللسماح لي بالمبيت في البيت. ولم تلن العنيدة للتوسلات بسهولة، فانقضى وقت طويل بين وصولي إلى البيت وبين فتح الباب. لم ينبهني تصرف المرأة الخبيثة لوجوب الشك في الباعث الحقيقي عليه، فاكتفيت بالدخول وتجردت من ثيابي بسرعة وانطرحت على السرير وغططت في النوم إلى عصر النهار الثاني.

جاء حسن حلمي كالعادة فارتديت ثوبي ونزلت معه وتذكرنا صندوق النياشين ونحن على السلم فطلبته فأرسلته إليّ حميدة مع أختها وأراد حسن أفندي الاطمئنان على النياشين أنها

موجودة في الصندوق ففتحه وعدّ الموجود فيه فظهر أن نيشان الشفقة قد اختفي منه. وعدنا إلى المسكن وبحثنا عن النيشان المفقود في كل مكان فلم نجده بالرغم من دقة التفتيش الذي تمّ في كل ناحية من المسكن جميعه حتى ثياب الذين فيه، وأنكر الجميع علمهم بوجود الصندوق في خزانة الثياب.

قطعت هذه الحادثة الصلة بيني وبين حميدة ولم أستطع التبليغ عن ضياع النيشان لأن من الفضيحة أن أودع في بيت راقصة محترفة نياشين سيدة محترمة لها مركزها البارز في الهيئة الاجتماعية، وغُلبت على أمري وظهرت لي نتيجة الاستهتار والاطمئنان لامرأة في أحط دركات الرذيلة والانحطاط ولم أجد بداً من الكتابة إلى السيدة أفيرينو فرددت لها النياشين الباقية ونبأتها بضياع النيشان الرابع، وعرضت عليها دفع كل ما تطلبه للتعويض عن الخسارة.

وظهرت السيدة المحترمة كريمة الخلق واضحة النبل لأنها كتبت إلي تهون الأمر علي وأكدت أن في مقدورها الحصول على النيشان من مصدره لأنه ثابت لها حمله، وأن المسألة لا تعدو دفع ثمن الحلية لا أكثر. انتهى الأمر عند هذا الحد ولكنني لم أحتفظ بالخطاب لعظم ثقتي بصاحبته، ولأنني لم أجد باعثاً يحدوني للاحتراس منها في المستقبل بسبب الاطمئنان إليها والاستخفاف بجميع أحداث العالم. وجاء أوان السفر لأوروبا فسافرت قبل البرنسيس ولحقت بي في روما ثم انتقلنا إلى باريس ومنها إلى سويسرا فقضينا فيها إلى ٢٠ يوليو ١٩٠٥ ثم عدنا إلى مصر وتابعت سفري إلى القاهرة آمناً مطمئناً.

حدثت أحداث أثناء هذه الغيبة أدت إلى مصادمات كلامية

بين جورج طنوس صديقي العزيز وبين حسن حلمي يسنده زميله ربيع أفندي، ووصلت الخصومة إلى حد طرده من المكتب والتنبيه على الخادم بعدم السماح له بالدخول مرة ثانية، وأظهر جورج العدد الجديد من مجلة «الأقلام» وبها رسالة تحت عنوان «إفساد الأخلاق» وصف فيها حياتي الخاصة ونوع استهتاري وسفهي وتبذيري ،ونسب ذلك إلى وقوعي في شرك رجلين من فاسدي الأخلاق يتصرفان في عملي وينحدران بي إلى أعماق هوة الرذيلة بسبب طيبة قلبي وسذاجتي وثقتي بالزميلين، ثم أرسل الرسالة مؤشراً عليها بالحبر الأحمر إلى البرنسيس فيزنسكي وإلى السيدة أفيرينو.

غضبت طبعاً لهذه الجرأة وسندت زميلي في حنقهما على الصديق الخائن، وزاد هذا التصرف في شر جورج طنوس فنشر في العدد الثاني نبأ ضياع نيشان الشفقة، وأكد أن النيشان لم يفقد كما ادعيت ولكنني أهديته لراقصة من الساقطات، وأنها زينت صدرها به كحلية ورقصت به على مسرح أمام الجمهور.. أرسل المجلة إلى السيدتين مؤشراً على قصة النياشين بالأحمر.

حين كنا أصدقاء ذهبت مع حميدة وجورج إلى الهرم، وجلسنا على حجر وأخذت لي صورة وحميدة تسند رأسها إلى صدري، فأرسل جورج هذه الصورة أيضاً إلى الأميرة وإلى ألكسندرة أفيرينو. لم يصل قبل الآن إلى علم البرنسيس أي نبأ عن حياة الاستهتار والتهتك التي انطلقت للانحدار إليها، ففوجئت بأنباء هذه الحياة القذرة في الرسائل التي أرسلت إليها، ولكنها لم تتعجل في الغضب علي فأرسلت سراً تستدعي حسن

حلمي وربيع أفندي ووعدتهما بالمكافأة وبإسناد أعمال المكتب إليهما إذا صدقا في وصف الحياة التي أحياها في القاهرة.

وطمع الرجلان في المركز الذي أغرتهما به الأميرة فقصا عليها قصتي كاملة، وزادا عليها ما يؤيد دعوى جورج طنوس بأنني أهديت النيشان إلى الراقصة حميدة بدافع من ولعي بها وبسبب إلحاحها للحصول على تلك الحلية، إن حسن حلمي قرر أنه دخل مرة بيت حميدة بعد إذاعة نبأ ضياع النيشان بأيام كثيرة فرآني جالساً أطالع جريدة ورأى النيشان على صدر الراقصة، وقرر محمد ربيع أنه رأى الراقصة بعد انفصالي عنها ترقص على المسرح والنيشان المرصع على صدرها والناس يظنونه حلية، وزاد على هذا الافتراء أنه أراد شراء النيشان من حميدة ليمكنني من رده إلى صاحبته فرفضت الراقصة بيعه بأي ثمن وصرحت بأنها سترقص به على الدوام نكاية في..

سببت هذه الاعترافات الكذابة في موضوع النيشان هياج الأميرة وغضبها، وقصت ما ظنته الحقيقة على السيدة أفيرينو وحرضتها على أن تبلغ النيابة لتتهمني بتبديد النيشان، فاستشاطت الأخرى غضباً وقدمت البلاغ فألقي القبض علي في مصر ونقلت إلى الإسكندرية وعرضت على رئيس النيابة محمد بك محفوظ، فأمر بحبسي احتياطياً وأرسلني إلى سجن الحضرة.

٥

ذهبت إلى السجن في عربة مع جاويش يحرسني فسلمني لحارس الباب ومعي أمر النيابة بالحبس الاحتياطي، فبقيت واقفاً خلف الباب حتى دق الجرس يعلن انتهاء الراحة وقت الغداء، فنشطت الحركة داخل السجن وظهر السجانون والموظفون ناشطين لمباشرة أعمالهم. ورأيت من وراء الباب فريقاً كبيراً من الفلاحين جيء بهم لتنفيذ الأحكام التي صدرت ضدهم ولكنهم كانوا جلوساً على الأرض لأنهم يلبسون الجلابيب أما أنا فاستندت إلى الحائط للارتكاز بسبب طول الوقوف.

وظهر في الفناء الخارجي للسجن موظف شاب وخلفه سجان في يده كيس من القماش السميك، وصدر الأمر للجميع بالوقوف فأطاعوا فصفوهم صفاً واحداً ثم رفع الموظف صوته يقول لهم:

«كل واحد معه ممنوعات سجاير أو دخان أو كبريت أو طعام يلقيه على الأرض أمامه، وكل واحد معه نقود يسلمها لي لتوضع في الأمانات لحسابه وستردّ إليه وقت الإفراج عنه»

ثم قال: «وسنفتش الجميع بعد ذلك، فإذا وجدنا شيئاً فإنه يعاقب عليه عقاباً شديداً»

ألقى الرجال ما كان معهم على الأرض، ثم مرّ الموظف الأول في الصف فسلمه ما معه من النقود فتناولها السجان ووضعها في الكيس وسجلها الكاتب في ورقة بيده، ثم تمطى وصفع الرجل صفعة رنانة قبل الانتقال إلى الذي يليه، وتكرر العمل والصفع إلى النهاية. وأصررت في سري على ضرب الكاتب إذا خطر له أن يودعني بصفعة كما فعل مع غيري، ولكنه تلطف معي وسألني عن التهمة المنسوبة إلي ثم هز رأسه أسفاً.

لم تكن معي نقود إطلاقاً لأن ما كان في جيبي أخذه البوليس مني بعد القبض علي وأرسله إلى النيابة مع ما كنت أتزين به من الماس، ونُفذ فيَّ نظام السجون القاسي فخلعت ثوبي وارتديت ثوب السجن، وجاء مسجون بآلة قص الشعر فأجراها على رأسي، ودخلت الحمام فصب الماء على جسدي لتطهيره من الأقذار، ثم قادوني إلى زنزانة بها حصير وبطانية وأغلق علي الباب. ومن نظام السجن تبخير جميع ثياب الذين يدخلون السجن اتقاء العدوى من الأمراض، ولكن الكاتب حمى ثوبي من التبخير لأنه يتلفه ثم رده إليَّ ضحى النهار الثاني سليماً فحمدت له هذا المعروف.

لم أكن أدري حكاية استدعاء وكيلي حسن حلمي ومحمد ربيع لمقابلة البرنسيس في الإسكندرية ولم أعرف ما حدثاها به عني، وكان إيجار مكتبي مكتوباً باسم رئيس خدم الأميرة لأنه استأجره لي في غيابي فلما تم القبض علي سافر إلى مصر وأغلق

المكتب. لم يصل إلى علمي شيء من هذه التصرفات لأنني عزلت عزلاً تاماً عن العالم فكتبت إلى المكتب أطلب إرسال نقود باسمي للسجن لتوكيل محام للدفاع عني.

أُرسل الخطاب إلى قسم البوليس بعابدين ولكن الإجابة لم تصل إلي، صرحوا لي بكتابة خطاب ثانٍ في الأسبوع الجديد كنظام السجن فلحق أخاه في عالم الظلام ورجوت من الشاب إرسال برقية لعنوان حسن حلمي بالمكتب ففعل ولكن الإجابة عليها لم تصل.

وكان من الإجراءات القانونية معارضتي في أمر الحبس الاحتياطي الصادر من النيابة ولكني لم أفعل فتكرر أمر الحبس وانقطعت عن الناس جميعاً ولم أتصل بأي إنسان سوى رئيس النيابة حين يدعوني للتحقيق معي، قررت بالحقيقة كاملة في التحقيق، وكنت أظن أن حميدة أهلها سيقرونها أيضا فيثبت ضياع النيشان من خزانة الثياب في بيتها فتهدم تهمة التبديد.

ولكن المرأة جيء بها للإسكندرية مقبوضاً عليها فأنكرت حادثة النيشان في بيتها وأكدت أنني أخذت منها الصندوق بعد فحصه ووثوقي من النياشين جميعها أنها فيه ولكن النيابة أبقتها في السجن مقبوضاً عليها حتى يوم جلسة المحاكمة.

وانتقل رئيس النيابة وكاتبه إلى القاهرة وفتش البيت والمكتب فوجد في أحد الأدراج بيانات من المحلات التجارية بالحلي التي اشتريتها للهدايا فأمر بنقلي إلى القاهرة وعرضني في موكب على أصحاب تلك المحلات ليسألهم عن النيشان هل عرضته عليهم للبيع فكانت الإجابات سلبية، ووجد في مكتبي خطابات أو بطاقات زيارة بأسماء سيدات من عائلات شريفة، فقادني إلى

بيوتهن ليسألهن عن علاقاتهن بي وعن النيشان هل رأينه معي، قضينا في القاهرة أياماً لتتم هذه الفضيحة في ركب له ضجة وأنا مقيد بالحديد.

يتكون الركب من ثلاث عربات الأولى بها يوزباشي من البوليس السري وثلاثة من رجاله والثانية بها رئيس النيابة وكاتبه والحاجب والثالثة بها المقبوض عليه بين اثنين من الجنود.انتهى بحث النيابة في القاهرة بدون نتيجة فردوني إلى سجن الحضرة وبعد يومين ساقوني إلى غرفة رئيس النيابة فوجدت بها البرنسيس فيزنسكي جالسة وحميدة واقفة يستجوبها المحقق، ثم أعدنا للسجن قبل انصراف الأميرة الجريئة.

التهمة ضدي جريمة تبديد النيشان، وهي أولى التهم فهي جريمة عادية لا تستحق الضجة التي أحدثتها النيابة والصحافة، فلما جاء اليوم المحدد للجلسة أمام المحكمة الجزائية، وضعت في قفص المتهمين إلى جانب حميدة فرأيت القاعة حاشدة بالجالسين وحولهم زحام من الواقفين ورأيت وكيل نظارة الحقانية جالساً في الجلسة إلى جانب النيابة. وسألني القاضي فقصصت قصة ضياع النيشان كما حدثت ولم أتهم أحداً وسألني القاضي باهتمام عن علاقتي بالسيدة أفيرينو ولم يكن الغرض معرفة الواقع، إنما الحصول على اعتراف مني بأن المعرفة كانت بعيدة عن المظان، ولم يكن في وسعي سوى التصريح على هذه الصورة.

وجاء دور الشهود حسن حلمي ومحمد ربيع فشهدا ضدي بما قرراه أمام البرنسيس فيزنسكي فتولتني الدهشة وسألني القاضي لماذا يشهد هذان الرجلان هذه الشهادة ضدي وهما

موظفان في مكتبي وصديقان يلازماني في سهراتي طول الليل، يريد أن الشهادة صادقة لا يتناولها الشك ولا الطعن فيها فكان جوابي:

«تأبى النفس الخبيثة أن تخرج من الدنيا قبل أن تسيء إلى من أحسن إليها».

لم أستطع إثبات سرقة النيشان مني، لأن الشاهدين قررا أنهما رأيا النيشان على صدر حميدة بعد ذيوع نبأ ضياعه فثبتت ضدي تهمة التبديد لأني استلمته باعترافي ولم أرده، وتولى رئيس النيابة القضية وإثبات التهمة فصدر الحكم ضدي بالحبس ثلاثة أعوام. الجريمة جنحة تبديد وهي الأولى ضدي وليست لي سوابق، وكل جريمة من هذا النوع يحكم فيها عادة بالحبس شهراً أو اثنين أو ثلاثة ولكن المجني عليها هي السيدة أفيرينو والجاني شاب أحدث اتهامه ضجة عالية بواسطة الصحف ووراء هذه الضجة نفوذ البرنسيس فيزنسكي، ثم حظي السيئ. واستأنفت الحكم فعدلت المحكمة الحكم إلى ستة شهور مع الشغل...

كان مأمور السجن إنجليزياً يدعى المستر بوب وهو رجل طيب القلب نشيط في عمله سمع عن قصتي مع الضجة التي أثيرت حولها وصيرتها حديثاً في المجالس فأظهر عطفه علي بسبب هذه المأساة ولاقتناعه بأنني ضحية... وحدث مفاجأة أنه مرّ على السجن في الليل ثم فتح زنزانتي التي انعزلت فيها عن بقية زملائي المسجونين وأيقظني من النوم، وقال:

«ستحضر البرنسيس فيزنسكي غداً قبل الظهر لزيارة السجن فيحسن أن تغيب عن نظرها والوسيلة لذلك هي ادعاؤك المرض

فتعرض على الطبيب فتوفر على نفسك التألم من شماتتها بك».

وكان الطبيب رجلاً صالحاً كثير التقوى طيب القلب، فلما عُرضت عليه أمر لي بالمعالجة في مستشفى السجن مع عزلي في غرفة انفرادية ونُفذ الأمر في الحال.

وحضرت الأميرة ومعها زميلان لها من الأجانب فرافقها المأمور في الزيارة فمر بها على المصانع والمغسل والمطبخ وعاد بها إلى الفناء متجهاً إلى مكتبه، ولكنها طلبت رؤية بقية المسجونين فجمعوا الذين يخدمون في عنابر السجن وعرضهم المأمور عليها ثم صرفوهم فطلبت زيارة المستشفى فنفذت رغبتها، فسألت المأمور في جرأة لماذا لم تر حافظ نجيب بين الذين عرضوا عليها، فكانت الإجابة انه مريض وقد عزل في غرفة انفرادية بسبب شك الطبيب في مرضه، فسألت ومتى ظهر ومتى عزله الطبيب؟

وأدرك المأمور أنها جريئة متحدية ولا تحاول إخفاء رغبتها في رؤية المسجون للشماتة به فقادها إلى الغرفة التي عزلت فيها وفتحها ثم قال:

«ها هو حافظ نجيب»

كانت الغرفة صغيرة فوقفت في فتحة الباب وأنا جالس على السرير وجعلت تمعن النظر في وتفحصني من قمة الرأس إلى القدمين ثم سألتني:

«ما مقدار مدى الحكم الصادر ضدك؟»

ونظام السجن يحتم على التأدب مع الجميع فقلت مرغماً:

«ستة شهور».

فقالت: «هذه الخطوة الأولى.. ولكن، أبريء أنت أم ارتكبت الجريمة التي نسبت إليك؟»

قلت: «لقد صدر الحكم ضدي لأن المحكمة اقتنعت بإدانتي والقانون يفرض على كل إنسان احترام هذا الحكم ولو كان خاطئاً».

قالت: «وهل أنت ممن يحترمون القانون؟».

قلت: «مفروض علي عدم مخالفته بحالة يقوم عليها دليل».

قالت: «ولكن الذي يسقط ويحكم ضده ويدخل السجن يعتاد الإجرام».

قلت: «لا زلت أجهل ما سيجيء به المستقبل».

قالت: «وهل في نيتك التوبة ؟».

قلت: «لا.. إنني لم أتعمد الاعتداء على أحد فلم افعل ما يجب الندم عليه والتوبة لأنها نوع من الاعتراف بالخطأ».

قالت: «ألم تكن خائناً ؟ ألا يندم الإنسان على الخيانة؟»

قلت: «قال المسيح: من كان منكم بدون خطيئة فليتقدم أولاً ويرجمها».

فنظرت إليّ نظرة عميقة أدركت منها أنها للتهديد ولكنني لم أغض من نظري فهزت رأسها وانصرفت يتبعها الجميع.

٦

انتهت الشهور الستة وحان يوم الإفراج عني، وقد جرت العادة أن يفتح باب السجن للمفرج عنهم في الظهر تماماً، ففتح لي الباب وخرجت إلى الفضاء الواسع إلى الحرية... إلى الحياة. قطعت الشارع المؤدي من السجن إلى وابور المياه، ومررت بعربة كانت واقفة هناك بها امرأتان إحداهما عجوز تركية، وإلى جانب العربة جندي من رجال البوليس وأفندي آخر ناداني باسمي، وتقدم لناحيتي فوقفت فقال:

«حضرتك مطلوب للقسم»..

فسألته عن السبب فأنكر معرفته وصرح لي بأنه منوط به إحضاري للقسم بأمر حضرة المأمور فسرت مع الرجلين وتحركت العربة وانطلقت بنا، ولما وصلت إلى القسم وضعوني في سجنه إلى المساء ثم نقلت منه إلى المحافظة. أمام مأمور الضبط رأيت العجوز التركية وزميلتها جالستين في ذلك المكتب فسألهما المأمور:

«هل هذا هو الرجل الذي تشكوان منه؟»

فقالت العجوز: «نعم».

ودق الجرس فدخل الجندي حارس باب المكتب فقال له:

«هات العربجي اللي واقف بره».

ودخل الرجل فسأله: «هل هذا هو الرجل الذي تشكو منه؟»

فقال: «نعم هو بعينه».

فاستدعى المأمور كاتباً وفتح محضراً فيه شكوى الشاكين وبدأ التحقيق الجديد.

ادعت المرأة أنني دخلت بيتها في إحدى الليالي منذ شهور وطلبت منها شراء خمر وفاكهة فشربت وسكرت ونمت في البيت مع زميلتها، وهربت قبل طلوع النهار بدون أن يشعر بي أحد، قال الشاكي الثاني إنني ركبت عربته منذ شهور وعطلتها معي ساعات وطلبت منه شراء علبة سجاير فدفع ثمنها ثم وقفته أمام باب منزل وهربت من الباب الثاني، وسئلت فأنكرت التهمتين وأكدت أنني لم أر هذه الوجوه إلا في هذه اللحظة ولم يفد الإنكار فألقوني في سجن المحافظة تلك الليلة.

وأُرسلت في الصباح إلى النيابة فحولتني إلى سجن الحضرة من جديد، وصدر حكمان في القضيتين بأمر حبس احتياطي ولما تحددت جلسة المحاكمة صدر الحكم بحبسي سنة ونصفاً، وأيد الاستئناف الحكم الابتدائي فقضيت العقوبة في السجن...

ادعت البرنسيس أن مكتب أعمالي لها خاصة وأنني وكيل عنها في ذلك المكتب، وأدلتها أن المكتب مستأجر لحسابها باسم وكيلها، وأنها الضامنة في جميع الأعمال المالية وصدر الحكم لصالحها في غيابي واستأنفت الحكم فأيده الاستئناف، لأنني لم

أجد من يدافع عني أمام المحكمة ولم يؤذن لي بالذهاب أمام المحكمة المدنية، وتمكنت الأميرة من الاستيلاء على المكتب وما فيه وصفت الحساب كما تريد. وطالبتني بدخل المكتب من الأرباح من بداية العمل.

صدر الحكم لصالحها فحجزت على أملاكي وباعتها فجردتني من كل ما وفرت وكونت. ولما انتهت مدة العقوبة وأفرج عني خرجت إلى العالم لا أملك سوى الثوب الذي دخلت به السجن لأن الكاتب الظريف احتفظ به في المخزن رغم نظام السجن.

وعرفت في السجن جاويشاً كان يعمل مع والدي في دمياط، هو الذي دفع لي أجرة السفر إلى القاهرة فعدت إليها معدماً وبدون مأوى، ولست أذكر كيف قضيت الأيام الأولى بعد عودتي، إنما أذكر أنني عينت مدرساً للرياضة بالمدرسة التحضيرية بدرب الجماميز بمرتب ثلاثة جنيهات. وعينت مدرساً بالمدرسة الإسرائيلية بمرتب خمسة جنيهات لأعمل فيها بعد الظهر. ووجدت غرفة لسكني بفندق المقطم بحارة شق الثعبان بشارع كلوت بك بأجرة شهرية ١٥٠ قرشاً، واشتركت في مطعم سوري بجانب الفندق بمبلغ ١٥٠ قرشاً في الشهر، فنظمت حياتي على هذه الصورة ردحاً من الزمن، ولكن القدر لم يغفل عني.

اعتبرتني البرنسيس خائناً لأنني تناسيت عطفها علي ورفقها بي ومعاونتها بالمال لتعليمي وتثقيفي ثم لتكويني في الحياة، ظنت أنها لهذه الأسباب القوية قد اشترتني وصرت ملكاً خاصاً لها، ولكنها نسيت أنني في طور الشباب وأنها وصلت إلى الكهولة

ولم أنكر في أي وقت أفضال تلك السيدة ولا ما غمرتني به من أنواع الإحسان. ولكن الاحتفاظ بالمعروف لا يؤدي إطلاقاً إلى حال تمنع العين من رؤية المحاسن ولا من التأثر بالجاذبية، ولا من الانطلاق مع الهوى، فدفعني نزق الشباب إلى كل ناحية ظننت فيها متعة للنفس واستجابة لنداء الغريزة.

لقد حطمتني بقوتها وبنفوذها بتأثير الحنق علي، ولكنني لم أقرر للآن بعد انقضاء أربعين عاماً على تلك المآسي، هل كان من حقها أن تقسو علي إلى هذا الحد؟ أو كان من العقل اللجوء إلى المعاقبة بوسائل أقل قسوة مما فعلت.

كانت هذه الأفكار تتردد علي كلما خلوت إلى نفسي وكنت أتألم ألماً شديداً كلما تذكرت ما كنت فيه من اليسر وما وصلت إليه من العسر، فكنت أفر من الوحدة إلى عالم الضجة لطرد الأفكار ومؤثراتها العنيفة في النفس. أين يذهب الشاب الذي فقد الأهل والأصدقاء والثروة والاعتبار، إن في المقاهي والحانات متسعاً لكل عاطل ولكل محزون، وفي هذه الأماكن يجد معارف بدون أسباب تعارف ويجد الخمر بأثمان رخيصة، كان ثمن زجاجة الكونياك ١٥ قرشاً، وثمن الكأس قرشان وفي الجيب خمسة جنيهات تزيد على ثمن الطعام وأجرة المسكن فمن السهل إنفاقها للتسلي.

عرفت في المدرسة التحضيرية خليل حداد مدرس اللغة الإنجليزية، كان رجلاً طيب القلب عاقلاً متزناً فقرَّب بيننا البؤس، وصرنا نجتمع بعد وقت الدراسة عند حلواني في ميدان الأوبرا نقضي وقتاً في السمر ثم نفترق فكانت هذه المعاشرة سبباً في اتزاني في سهراتي وجادت علي الظروف الحسنة بدروس في

بيوت عائلات إسرائيلية غنية زادت على دخلي الأول ستة جنيهات، فاستأجرت مسكناً به غرفة واحدة ومطبخ صغير ودورة مياه نظيفة فأثثت البيت وجعلته عشاً هادئاً للطير الحزين وجعلت أدخر من القليل قليلاً حتى اجتمع لي في درج مكتبي مائة جنيه ذهباً.

وفرحت بهذا المال الذي كنت أنفقه في أسبوع بدون أسف عليه، والنظام الذي جعلته أساس تصرفاتي في هذه الحياة الهادئة كان منه أنني أمتع نفسي مرة واحدة في الشهر بعشاء وأقداح من الخمر وسهرة طويلة، بشرط ألا تزيد نفقاتي عن جنيهاً واحداً، ثم أصوم إلى أول الشهر الثاني.

اكتملت في أول الشهر المائة جنيه بعد دفع حساب المطعم وأجرة المسكن وقسط الخياط، أخذت الجنيه الأول بعد المائة وقصدت إلى الأزبكية لأمتع نفسي بسهرة الشهر فشربت أقداحاً من الكونياك وسمعت الموسيقى في قهوة المصرية ثم تناولت العشاء، وقضيت بقية السهرة حيث قادتني قدماي فبقي من الجنيه خمسة قروش وفرتها لدفع أجرة العربة التي تردني إلى البيت. نزلت من العربة في سكون الليل فوجدت الشارع مغموراً بالمياه، وبحثت عن البيت فوجدته أنقاضاً، احترق البيت أثناء غيابي فاحترق معه مسكني وثيابي وضاعت المائة جنيه!

تولاني الذهول أولاً ثم الحزن على ما فقدت واحترت في أمري لأنني لا أملك أجرة النوم حتى في فندق رخيص، ولم أجد فائدة من إطالة الوقوف إلى جانب الأنقاض للبكاء فاتجهت ثانية لناحية الأزبكية، وطرأ على خاطري خليل حداد، وتذكرت حديثه أنه يسكن في كنيسة الموارنة بدرب الجنينة، فلم أتردد في

البحث عن الكنيسة حتى بلغت إليها بعد جهد وطرقت الباب مرات فلم يسمعني أحد فزدت في الطرق العنيف، فأطل خليل حداد من نافذته فكلمته، فنزل إلي وصعدت معه إلى مسكنه.

كانت القاعة التي دخلناها فسيحة جداً ينيرها مصباح صغير يضاء بالبترول، وكل ما فيها من الأثاث سرير من الجريد عليه فراش النوم، وكرسي واحد عليه حصير واحد من اللباد. ترك لي خليل سريره ولفّ الحصير حول جسمه مرات فجعل منها حشية وغطاء، ثم غطّ في النوم وتركني أتقلب على السرير فريسة للبق أقاتله وأزهق أرواحاً كثيرة منه ولكنه يأبى الانهزام يتجمع كتائب جديدة ويعدو علي من جديد، فدامت المعركة بيننا حتى أشرقت الشمس وشكوت إلى خليل ما نالني فقال:

«إن من عادة هذه الحشرات أنها تكرم الضيف لأنها تجد في دمه غذاء جديداً ينبه الشهية»

ثم هبط بجلبابه إلى الشارع وعاد يحمل طعام الفطور فولاً وزيتاً وبصلاً فأكلنا وخرجنا للعمل. وفتح الرجل كيسه في الطريق وأعطاني نصف ما معه، وعزاني على كارثتي بعبارة لطيفة هونت على التألم منها قال:

«نزلت إلى الدنيا من بطن أمك عارياً وضعيفاً ليس لك حول ولا قوة، أما الآن فإنك تدخل الحياة الجديدة كاسياً قادراً على العمل وعلى الاحتمال، فعلام إذن التألم والأسف؟».

لما استيقظت في مسكن خليل حداد وجدت على أرض الغرفة بساطاً من التراب تركته الأعوام لأن أحداً لا يتولى كنس الحجرة بسبب عدم الحاجة إليها، وعلل عدم عنايته بكنس ما جمعته السنين بأنه رأى كثيرين ينامون على الأرض فتشبه بهم

استعداداً للرقاد الأخير. لم يكن في مقدوري العمل في ذلك النهار فقصدت إلى فندق المقطم ثانياً واستأجرت فيه غرفتي الأولى فعادت ريمة لحجرتها القديمة.

اكتسب خليل صداقتي من تلك الليلة بما غمرني به من سخائه لأنه نزل لي عن نصف ماله في ابتهاج ومسرة، كانت النقود لا تزيد عن ١٥٠ قرشاً ولكنها إعانة نافعة في وقت الحاجة فاحتفظت له بالمعروف طول حياته وشاركته مالي كما شاركني فيما كان يملك فدامت الصداقة والإخلاص بيننا إلى ٢٥ يونيو ١٩٠٩، ثم اختفي ولم أعرف مكانه إلى الآن والمرجح أنه مات.

٧

كتبت رواية تمثيلية ومثّلتها جمعية بتياترو فرح بشارع عبد العزيز فربحت منها ودخلت حانوتاً لأشتري ساعة فخرجت منها بالساعة وبصداقة زوجة التاجر، كان زوجها غائباً وكانت إسرائيلية فرنسية لعوباً لها جمال وجاذبية وكياسة وظرف اسمها فرنسين، وكنت شاباً قوياً وزوجها شيخ هزيل مريض، فتحدثنا طويلاً بدعوى عرض البضاعة ثم للمساومة. وانتهى الأمر إلى موعد فلقاء فسلام فاتفاق على المصادقة .

وشاركتني مرة على ورقة نصيب بقرش ودفعت لي بعد السحب ٢٠ جنيهاً ادعت أنها نصف الربح لأن الورقة ربحت ٤٠ جنيهاً وادعت بعد أسبوع أنها ستشاركني في صفقة ساعات جديدة، وأخذت مني كل ما أملكه وكان ٥٠ جنيهاً ذهبياً ودفعت لي بعد شهر ٢٠٠ جنيه ذهباً قالت إنها نصيبي من الربح لأنها اشترت الكمية وباعتها صفقات، وأهدت إليّ في العيد ساعة من الذهب وسلسلتها وفي عيد الأضحى خاتماً من الماس فارتحت لظرف هذه الحسناء وأخلصت لها الود، ولكنها

كانت تغيب عني على الدوام ليلة السبت والنهار كله فلا أراها إلا في مساء الأحد فأتألم من الوحدة ويضيق صدري في البيت، فأخرج لترويح النفس.

أردت التلهي والترويح عن النفس، فكنت أقضي سهرة ليلتي السبت والأحد في الالدرادو الجديد لأن شفيقة القبطية رحلت عنه، وكانت السهرة على الدوام بريئة وتسليتي قاصرة على سماع الغناء ومشاهدة الرقص ثم أعود إلى البيت، وحدث مرة أنني خرجت من باب القهوة الداخلي إلى الدهليز الذي يؤدي للباب الخارجي ففوجئت بطلق ناري أصاب رصاصته الطربوش على بعد قليل من رأسي.

رأيت الضارب عند الباب المؤدي إلى البار قبيل الباب الخارجي، ورأيته يطلق النار للمرة الثانية، ورأيت امرأة خلف الضارب خرجت من البار وطوقته بذراعيها القويتين فسقط المسدس من يده إلى الأرض وتناولته المرأة بسرعة وبقيت ممسكة بالرجل، كانت المرأة طويلة بدينة قوية عرفت بعد ذلك أن اسمها «الحصرية»، فلم يتمكن الرجل من الإفلات منها.

واجتمع الناس في مكان الحادث جاءوا من الطريق ومن داخل المقهى وحضر عسكري الدورية من الشارع وقبض على الرجل، أما الضارب فكان خواجا يلوح عليه أنه من أشقياء الإفرنج يستأجر للأذى لم أره من قبل، فتعمدت أن أركب معه في العربة التي نقلتنا إلى قسم الأزبكية فصار بيني وبين الجندي القابض عليه.

أما الحصرية فرفضت تسليم المسدس للعسكري أصرت على تسليمه بيدها في القسم لأنها هي التي انتزعته من الخواجا ولأنها

شاهدة رؤية وإثبات. حدثت الرجل بالفرنسية أثناء الطريق فظهر لي أنه إيطالي يتكلم الفرنسية برطانة إيطالية قلت له:

«لقد أردت قتلي ولكنني سأنقذك بشرط أن تدفع لي الثمن»

وعلمته ما يجب أن يقول في المحضر، وقبل الرجل شروطي، ولما سئلت في التحقيق قررت أنني رأيت الضارب الذي أطلق علي النار وهو شاب يرتدي ثوباً أبيض، ورأيت هذا الخواجا ينتزع المسدس من يد الضارب وفي نفس اللحظة طوقته الراقصة بذراعيها وأخذت المسدس بعد سقوطه على الأرض وهي ممسكة به فظنته المجرم الذي أطلق الرصاص، فاستولت الدهشة على الحصرية. وسئل الخواجا فقرر في إجابته ما ذكرت في إجابتي فتهدم الاتهام.

ولكني عرفت اسم الخواجا وعنوانه، وخرجنا بعد انتهاء التحقيق فتحدثنا كأصدقاء ثم جلسنا على مقهى بللافيستا في ميدان باب الحديد، وصرح لي الرجل بأنه مستأجر لقتلي، وأن المحرض رجل ذكر لي اسمه ووصفه لي وصفاً دقيقاً أدركت منه أنه من اتباع البرنسيس فيزنسكي. تركتني المرأة كل ذلك الزمن حراً طليقاً آمناً لأنها كانت متغيبة عن مصر فلما عادت وضعتني تحت مراقبة أحد رجالها ثم دبرت لي هذه الحادثة.

هل البرنسيس فيزنسكي مجرمة؟

لماذا تلجأ إلى الإجرام للانتقام مني؟

البرنسيس امرأة رغم بلوغها سن الكهولة لها غريزة وعاطفة لأن قلب الإنسان لا يشيخ والحب في أفئدة الشيوخ أعظم رسوخاً وأقوى اشتعالاً منه في قلوب الشباب، فكذلك الصدق والخيانة أو الغدر تترك أثرها في الشيوخ عمقاً حاداً يحول العاطفة

من الحب الراسخ العنيف إلى كراهية وبغض ورغبة قوية في السحق.

كل خيبة في الحب تبعث في النفس الألم، وفي الأعصاب زلزلة وفي العقل ما يثير الغضب الشديد والحنق ولكن هذه الحال يزول تأثيرها عند الشباب بسرعة وتدوم في الشيوخ كما يدوم الحب.

يحب الشاب حباً خاطفاً يتأثر بالحسن أو الجاذبية فيندفع إلى حد الولع بالأنثى التي أحدثت في فؤاده هذا التأثير فإذا ارتوى الظمأ بنيل الأمنية تفتر فورة الشوق وتقل الرغبة حتى تتلاشى، لأن قوة الحيوية ونشاط العاطفة يبعثان على التوثب لا على الاستقرار على قياس رعونة الصغار ونشاط الشباب وبطء حركات الكهل أو الشيخ، فالحالة العاطفية في الشباب والشيوخ تماثل الحالة البدنية من النشاط والهدوء ذاتها، وغاية الحب عند الشباب المتعة ولكنها عند الشيوخ غاية الحياة ونهاية الأمل، لأن الشيخ يركز فيها بقية حياته وكل أمانيه فإذا صدمته الخيبة تصدم مع عاطفته حياته.

والحب الخاطف الذي يجيء مصادفة أو بتأثير رؤية محاسن ليست له قوة الحب الذي تغذيه الرغبة في زمان طويل بالمعاشرة والعناية والرعاية والاعتياد لأن جذوره تتغلغل في الفؤاد جذور الشجرة في الأرض مع طول الزمن واطراد النبات.

وهكذا كان حال البرنسيس، كونت شاباً على الصورة التي تريدها، تولته بالرعاية والعناية وألفته وظنت أنها امتلكته خاصة لنفسها فندَّ عنها وهدم أملها المركز أو غاية حياتها الباقية، فأحدثت الصدمة تأثيرها العنيف في نفسها وحولها من الإشفاق

والعطف إلى الرغبة في المعاقبة بكل وسائل الانتقام للسحق وعلى هذا الأساس يكون اندفاع البرنسيس فيزنسكي للانتقام مني تصرفاً له بواعث نفسية. ولست أنكر أن لها الحق في الغضب وفي محاولة معاقبتي على العقوق ونكران المعروف، ولكن من حقي أيضاً محاولة الهرب من الأذى والدفاع عن نفسي حباً في السلامة بشرط أن لا أقابل الشر بالشر.

فشلت محاولة قتلي بالرصاص ولكن الحادثة نبهتني لوجوب الاحتراس التام فامتنعت عن الذهاب إلى المقاهي في مواعيد منظمة زيادة في المحاذرة ولكن الحذر لا يمنع القدر. بدّلت مكان التسلية بغيره، فإذا نال مني ضيق الصدر أثناء غياب فرنسين الإسرائيلية أقصد إلى قهوة غناء الخواجا إلياس بشارع كلوت بك فأسمع الغناء وانصرف في هدوء بدون أن أشعر أحداً بوجودي بالرغم من وجود شفيقة القبطية في تلك القهوة.

وأراد القدر أن يلعب لعبته في غفلة مني فهيأ لي في ليلة مقابلة ضابط في الجيش كان من زملائي في المدرسة الحربية فسررت بهذا اللقاء ودعوته لتناول العشاء معي وشربنا كثيراً من الخمر فجره السمر إلى التحدث عن حادثة غرامة بصديقة له تدعى منتهى الأمريكية وهي راقصة في قهوة إلياس. تحدث عن حبه ووصف ما يعانيه منه وذكر أنه حضر من السودان في إجازة لرغبته في قضاء الأيام معها ولكن بينهما سوء تفاهم لا يريد أن يكون البادئ بمحاولة إزالته وطلب مني معاونته برأيي، فاقترحت أن أسبقه إلى القهوة واطلب منتهى لتشرب معي ما تشاء فلا تستطيع الرفض لأن طلب الخمر هو صناعتها وعملها المفروض عليها ثم يحضر هو فأناديه كأنني لم أره من قبل أحتفي بقدومه

بسبب الزمالة القديمة وطول الفراق، ألح عليه للجلوس معنا كأنني أجهل العلاقة التي بينه وبين الراقصة، وفي هذا المجلس تحمل ظروفه الصديقين على الصلح.

أعجب الاقتراح صديقي وبادرت بالتنفيذ فقصدت إلى المقهى وجلست قليلاً ثم طلبت الراقصة فحضرت لم يكن بيننا تعارف ولكنها علمت من الخادم أنني كنت صديق شفيقة وحميدة وأنني أنفقت عليهما مالاً كثيراً فاطمأنت للزبون الجديد أنه صيد دسم فجاءت على فمها ابتسامة عريضة وفي عزمها محاولة الاقتناص، ولكن زميلي لم يحضر فظننت أن طارئاً عطله ولكنه سيحضر، ورأيت من الضروري استبقاء الراقصة إلى جانبي حتى لا أضيع الفرصة التي هيأتها لإتمام المصالحة، حتى حان وقت انصراف الجمهور وإغلاق القهوة فألحت علي منتهى لنتم السهرة في بيتها فقبلت.

نهضت من الفراش في النهار الثاني وعزمت على الانصراف فوضعت على منضدة شيئاً من النقود أجرة المبيت فأظهرت المرأة استياء وأصرت على رفض النقود، ورأيت من الكياسة أن أقابل ظرفها، وعزمت على تعويضها من النقود هدية تساوي ضعف ما كنت أريد دفعه فرجوت منها أن تخرج معي للتسلي بنزهة قصيرة، فلبت رجائي وخرجت معي في عربة ولما وصلنا إلى ميدان العتبة الخضراء (ميدان الملكة فريدة الآن) طلبت من السائق دخول شارع الموسكي، ثم نزلنا أمام محل تجاري اسمه (la belle jardinère) لصاحبه الخواجا أسايس.

رجوت منها أن تختار معطفاً أو ثوباً ليكون الهدية الأولى مني، فامتنعت أولاً فألححت عليها حتى قبلت فصعدنا إلى

الطابق الأول، وبدأ العمال يعرضون عليها البضاعة وأخذت تختار وتقيس، وتنبهت شهيتها إلى الحدّ الذي أزعجني، دفعها الطمع إلى أقصى الحدود حتى كومت ركاماً من البضائع المختارة. كان في عزمي أن أدفع مبلغاً لا يزيد عن عشرة جنيهات، فبلغ ما كومته رقماً زاد على مائتي جنيه ،ولم يكن في مقدوري دفع هذا القدر من المال، فأصررت في سري على عدم الدفع وعلى الهروب من هذا المأزق فتركتها تختار ما تشاء من كل جديد من المغريات، وبارحت المكان بدعوى أنني ذاهب لاستحضار ساعة لي في دكان قريب.

بعدت عن الشارع كله وكلمت الخواجا أسايس بالتليفون ونبهت عليه بعدم تسليم أي شيء للسيدة حتى أحضر وأدفع الثمن، ثم أرسلت له بعد الساعة الخامسة كتاباً قلت فيه إنني لن اشتري ما اختارت لأنه كثير دفعها الطمع إلى الرغبة في الحصول عليه وأرسلت مع الكتاب اثنين جنيه تعويضاً عن الوقت الذي ضاع في عملية عرض البضائع. هذا التصرف يمنع كل الشك ويجعل الحادثة بعيدة كل البعد عن أي فكرة إجرامية، ولكن الخواجا أسايس رفع شكوى إلى النيابة يتهمني بمحاولة الاحتيال عليه.

وقدّم الخواجا إلياس صاحب المقهى الذي ترقص فيه «منتهى» بلاغاً يدعي فيه أنني شربت خمراً مع الراقصة في المقهى حتى سكرت وفقدت صوابها، ثم نزعت من يديها سواراً من الذهب أمام شفيقة القبطية وأمامه وبحضور اثنين من الخدم، مع الوعد باستبدال السوار بآخر مرصع بالماس. وانضم إلى الشهود رجل آخر ادعى أنه كان يجلس معنا في المجلس ويشرب معنا الخمر.

ألقي القبض علي وتولت النيابة التحقيق في البلاغين فقررت في دفاعي في حادثة أسايس أنها ليست جريمة نصب ولا شروع فيه، لأن عرض البضائع والامتناع عن الشراء عملية عادية تحدث بين كل شاري وبائع، لأن الخواجا لم يدَّع أنني حاولت أخذ البضائع أو نقلها من محله التجاري، ولأنه اعترف بأنني نبهت عليه بعدم تسليم أي شيء لمنتهى قبل حضوري ودفع الثمن، ودفعت الاتهام الثاني بأن الادعاء على هذه الصورة غير معقول، لأن الذي يريد سلب سوار من يد امرأة سكرى لا ينفذ رغبته في مقهى مزدحم بالناس ولا أمام الخواجا وخدمه وراقصة أخرى، أنكرت أن ثالثاً كان معنا في مجلس وسط الزحام، ولكن النيابة لم تقتنع بهذا الدفاع المنطقي، واعتبرت الحادثة جريمة نصب، وحادثة أسايس شروع في نصب، وأمرت بحبسي احتياطياً، فأرسلت إلى السجن.

واستدعيت مرة ثانية للنيابة لتسمع في حضوري شهادة الشاهد الذي ادعى أنه كان في مجلسنا أنا والراقصة فاستولت علي الدهشة حين رأيت وجه الرجل لأنه من أتباع البرنسيس فيزنسكي رأيته في الإسكندرية في بيتها مرات ولكنني لم أسمع اسمه لانعدام الصلة بيني وبين أتباعها. شهد الشاهد بأنه كان في مجلسنا لأنه صديقي، وأكد أنه رآني ألح على الراقصة للإكثار من شرب الخمر ورآني وأنا أنزع السوار من يدها مع الوعد باستبداله بآخر من الماس.

أدركت في الحال أن اليد الخفية لازالت تعمل في الخفاء لتحضير وسائل الانتقام وأيقنت بأن الحكم ضدي سيكون شديداً، لأن الأحكام الأولى التي صدرت ضدي أحدها سنة،

وهذه السوابق تحول الاتهام الجديد من جنحة إلى جناية، فيجوز للمحكمة أن تحكم بالأشغال الشاقة لغاية خمسة أعوام، لقد رضخت للأحكام الثلاثة الأولى احتراماً لها مع أنني المفرد الذي يعرف حقيقة التهم التي أسندت إلي، ولأن القضاء مرغم على تنفيذ حرفية القوانين بعد سماع شهادة الشهود، ولكن الاستمرار في الرضوخ لنظرية احترام الأحكام معناها إضاعة سني عمري بسبب التهم التي تكال لي وصدور أحكام ضدي بسببها. من حق كل إنسان الدفاع عن حياته والاحتفاظ بالسلامة.

ففي مقدوري عدم مخالفة القانون، ولكن ليس في مقدوري دفع اتهام باطل تدبر أسبابه وتجمع اليد الخفية الشهود الزور لإثبات الإدانة، فصار من المحتم علي أن أحمي حياتي من خصومي، والوسيلة المفردة للتمكن من الحماية هي عدم تنفيذ ما يصدر ضدي من الأحكام، وهذه النظرية والوسائل التي لجأت إليها لتنفيذها هي التي خلقت شهرة حافظ نجيب...

٨

لم تتركني فرنسين أثناء هذه المحنة، جازفت بكرامتها وحضرت إلى فناء محكمة الموسكي الجزائية في النهار المحدد للتحقيق الأخير معي، وصلت مبكرة حتى قبل نقلي من السجن إلى بناء المحكمة حيث تحقق النيابة قضيتي، ولما أودعت غرفة السجن هناك رأيت لتلك الغرفة نافذة مفتوحة عليها قضبان الحديد، ولكنها نافذة عادية فاستطعت التحدث مع صديقتي ساعتين قبل استدعائي للتحقيق.

أحضرت المرأة المخلصة معها طعاماً شهياً، فتناولته من بين القضبان ووضعته على حافة النافذة من الداخل وبدأت عمليتي الأكل والكلام، قلت:

«أنا لا أشك في طيبة قلبك وصدق إخلاصك يا عزيزتي، ولكنني في حاجة لأكثر من الطيبة والإخلاص، فهل في استطاعتي الاعتماد على عقلك وعلى جرأتك».

قالت: «بل اعتمد على كل ما أملك: الإخلاص، والعقل،

والعاطفة، والجرأة والمال، وسأبحث من اليوم عن محام قادر ليتولى الدفاع عنك».

قلت: «لا حاجة لي بالمحامي لأنني قررت العدول نهائياً عن الدفاع عن نفسي أمام القضاء، ولي وسيلة أخرى للخلاص، يتعذر أن تتم بدون معاونتك الجدية»

قالت: «تكلم، سأنفذ كل ما ترجوه بدون تردد».

قلت: «ما سأعرضه عليك مغامرة جريئة جداً، ولكنها السبيل المفرد لنجاتي من الخطر الذي ألقيت فيه، ومن حقي أن أشك في قدرة سيدة على تعريض نفسها للضرر بسبب دقة ما أطلب وصعوبة التنفيذ».

قالت: «إذا كنت واثقاً من النجاة بدون أي شك تجدني مستعدة للمغامرة مهما بلغت خطورتها».

قلت: «أنا على يقين من الخلاص إذا نفذت خطتي حرفياً».

قالت: «سأنفذها حرفياً رغم جميع العقبات والطوارئ، فتكلم بسرعة قبل فوات الوقت وضياع هذه الفرصة».

طلبت إليها تقريب أذنها مني وتوجيه وجهها للفناء ففعلت، فأسررت إليها إسراراً، وسمعت لها الخطة التي أعددتها للهروب. أما هي فكانت تصغي إلى بانتباه تام حتى انتهيت، وطلبت تكرار بعض العبارات فكررتها.

قالت: «سأكتب الآن مذكرة موجزة بما سمعت محاذرة من النسيان، وأعدك بتنفيذ رغبتك حرفياً كما رسمها خيالك وكما سمعتها منك فاطمئن».

وتمّ التحقيق أمام وكيل النيابة ثم أعدت للسجن بعد الظهر،

فلما خلوت إلى نفسي في الزنزانة، جعلت أفكر في الخطة وما تحتاج إليه من العناية اللازمة ومن الدقة في التنفيذ، ثم تولاني انقباض الصدر والكآبة لأنني رجحت عدم النجاح بسبب الدقة التي يحتاج إليها التنفيذ بينما يكون الاعتماد كله على سيدة ليس لها مران في مثل هذه الأعمال..

مكثت أكثر من أسبوع وأنا في ضيق شديد لا يفارقني القلق وضيق الصدر، ولم يكن من الحرص الواجب أن أحاول التحدث إليها في كتاب أسلمه لسجان أعده بأجر كبير، لأنني بهذا التصرف السيئ أعرض نفسي وأعرضها للفضيحة فآثرت الصمت والصبر رغم حالتي النفسية المضطربة.

سمعت في باكورة أحد الأيام جاويش الطابق الذي كنت فيه ينادي اسمي للذهاب إلى نيابة شبرا فانتفض جسمي من تأثير ما سمعت، أدركت أن الخطوة الأولى من خطتي بدأتها فرنسين في جرأة ونجحت، كل التدبير الذي رسمته لها: أن تذهب سيدة جميلة أنيقة إلى وكيل نيابة شبرا وتبلغه شفوياً هذا البلاغ عرفت شاباً اسمه إبراهيم أفندي محسن يدعي أنه سمسار ووكيل أشغال، وقد اعتادت أن توكل إليه شراء بعض حاجاتها من المحلات التجارية وفي بعض الأحيان من الصاغة، ولكن ما تساويه هذه الأشياء كان زهيداً لا يغري بالطمع للحصول عليه.

واستمرت هذه العملية البسيطة أكثر من عام حتى اطمأنت للشاب ووثقت به وحدثت مفاجأة أن قرطاً لها من البرلنت يساوي ٣٠٠ جنيه انفصل جزؤه الأعلى عن الأسفل، وكانت تحتاج لإصلاحه بسرعة لأنها ستتحلى به في المساء لتذهب إلى حفلة عائلية، فعزمت على الخروج والقصد إلى صائغ ليصلح

القرط، يضع له حلقة صغيرة بدلاً من التي كسرت أو يلحم المكسورة، وتقول:

«إن الصدفة جعلت إبراهيم أفندي محسن يزورها في تلك اللحظة ليسألها هل تطلب قضاء حاجة؟»

قالت: «فسررت بهذه الصدفة وأعطيته القرط المكسور وطلبت منه إصلاحه في الحال لأنني في حاجة إليه في نفس النهار. فوعدني برده في عصر اليوم، ولكنه طلب الفردة الثانية حتى يتم الإصلاح مع حفظ مقياس طول الفردتين، فسلمته القرط كله بدون تردد ولا شك بسبب الثقة التي اكتسبها والتي حملتني على الاطمئنان».

وقالت: «ولكن إبراهيم أفندي غاب خمسة شهور ولم يرد لي القرط ولم أر وجهه من تلك الحادثة فأدركت أنه محتال خبيث، حملني بنشاطه وبأمانته على الثقة به ليغتنم فرصة تمكنه من اختلاس شيء له قيمة. وقد سمعت من حكايات الناس أن الحكومة ألقت القبض على محتال مشهور يدعى حافظ نجيب، ورجحت بعض صديقاتي أن يكون هذا الشقي هو الذي سمى نفسه كذباً إبراهيم أفندي محسن وتمكن بالحيلة من أخذ قرطي...».

ثم ختمت السيدة التبليغ بهذه العبارة:

«وأنا ألتمس من النيابة عرض هذا المحتال عليَّ فربما يكون حافظ نجيب هو إبراهيم محسن سالب القرط»

فاستدعائي لنيابة شبرا معناه أن فرنسين نفذت هذه الخطة، وأن سيدة ذهبت إلى وكيل النيابة وبلغت على هذه الصورة فأرغمت نيابة شبرا على طلب حضوري من السجن لعرضي على الشاكين في ذلك النهار.

كنت أرقص من الفرح لأن بيني وبين الهروب من السجن دقائق قليلة إذا نجحت فرنسين في تنفيذ الجزء الباقي من التدبير وهو الأهم الذي يحتاج للمهارة والجرأة والدقة في التنفيذ كان المتبع في ذلك الحين أن كاتب السجن يكتب بياناً بأسماء المسجونين المطلوب نقلهم من السجن إلى النيابات أو إلى الجلسات، ويسلم هذا البيان إلى رئيس السجانين في عصر النهار ليسلم المسجونين في الصباح إلى الحراس الذين يقودونهم فرادى أو أزواجاً أو جماعات إلى الجهات التي طلبت إحضارهم.

ترسل ادارة السجن بياناً آخر إلى محافظة مصر لتطلب جنوداً من أقسام البوليس يتولون نقل كل مسجون إلى المكان المطلوب إرساله إليه وترسل المحافظة هذا البيان إلى المأمور المعين من بعد ظهر النهار إلى صباح النهار التالي له، ويحول المأمور هذا البيان إلى عامل تليفون المحافظة لينبه على كل قسم بوليس بإرسال الجندي أو الجنود المطلوبين منه مع ذكر عنوان النيابة أو المحكمة المطلوب نقل المسجون إليها.

وكان من النظام المتبع أن يطلب جندي واحد إذا كان المطلوب حراسته مسجوناً واحداً أو اثنين فيوضعان في قيد واحد من الحديد ويكفي للحراسة، ويطلب اثنان من الجنود لما يزيد عن اثنين، أما إذا كان العدد كبيراً فتطلب له عربة السجن.

لم تكن جلسة محكمة شبرا في اليوم الذي استدعتني فيه النيابة لعرضي على السيدة الشاكية إذن، سيطلب جندي واحد لحراستي، لكن أحداً لا يعلم من هو الجندي ومن أي قسم سيطلب، فيتحتم معرفته في مساء هذا النهار بالوسيلة الآتية:

يدخل الجاسوس من باب المحافظة فيمر في قبو على يمينه حجرتان الأولى بها الجنود المعينون للحراسة على مدخل سراي المحافظة، والثانية بها آلة التليفون والعامل الذي يؤدي عمله بها، فإذا انتهى من القبو ووصل لنهاية الغرفة الثانية يجد أمامه فناء المحافظة وعلى اليمين متسع من الفضاء يؤدي إلى باب به سلم يصعد إلى الطابق الرابع من بناء سجن الاستئناف ويسكن ذلك الطابق في ذلك الحين جنود من بلوك النظام، فإذا انحرف الداخل إلى هذه الجهة من نهاية حجرة التليفون يجد في ضلعها المطل على هذه الناحية نافذة كبيرة مردودة. ووراءها يقع موضع التليفون والعامل الجالس أمام الآلة، فإذا تكلم في الآلة يسمعه الواقف بجانب النافذة من الخارج.

في هذا المكان المحدد وقف الذي اختارته فرنسين لتنفيذ الخطة المرسومة لها، فسمع عامل التليفون يبلغ الأقسام الأمر بإرسال الجنود المطلوبين لحراسة المسجونين الذين سينقلون إلى شتى الجهات في الساعة السابعة من صباح النهار الثاني كان المطلوب منه سماع اسم قسم البوليس الذي يناط به إرسال الحرس لنيابة شبرا فأصغى للأوامر حتى قال العامل:

«يا قسم الدرب الأحمر.. يا قسم الدرب الأحمر.. خذ الإشارة دي. مطلوب إرسال عسكري واحد لسجن الاستئناف الساعة ٧ صباحاً لتوصيل مسجون واحد لنيابة شبرا، والإمضاء المأمور النوبتجي».

وتبدأ العملية الثانية بعد ذلك في قسم الدرب الأحمر نفسه وهي مراقبة توزيع العمل على العساكر، بعضهم للدورية وبعضهم للنوبة وبعضهم لحراسة القسم أو... أو... ثم توزع

الأعمال الخارجية ومنها: العسكري عبد الكريم عبد الله (مثلاً) لسجن الاستئناف لتوصيل مسجون لنيابة شبرا.

يعرف الجاسوس اسم العسكري المنتدب ويرى وجهه ويلبث يترقبه حتى يخرج يريد العودة إلى بيته فيسير في إثره حتى البيت ويعود إليه في الفجر ويتربص له حتى يخرج من البيت ويذهب إلي القسم وينتظره حتى يأخذ القيد الحديد من الداخل ويتجه إلى الشارع الذي يوصله إلى المحافظة وبها سجن الاستئناف فيسير خلفه.

والغرض من هذا الاحتياط المحاذرة من استبدال الجندي بغيره لسبب طارئ كالمرض في الليل أو الموت مثلاً فيقتضي الحرص والدقة في التنفيذ مراقبة الجندي حتى ينشط لتأدية المطلوب منه، ويسير المراقب خلف الجندي وعلى قرب منه حتى يصل إلى الشارع تحت الربع وهناك يرى زميلاً له آتياً من الجهة المقابلة فيشير إليه بيده يدله على الجندي ثم تنتهي عمليته وينصرف.

أما الزميل الجديد فيكون في ثوب بلدي وقفطان وعباءة وفي يده منديل كبير به طعام فيقابل الجندي في بشبشة وابتهاج ويقول له:

«صباح الخير يا جاويش عبد الكريم»

ثم يصافحه كأنه يعرفه فيظن الجندي أن الرجل رآه في القسم أو ماراً أمام محل تجارته وهو في الدورية فعرفه.. ويرغم الجاويش على مقابلة التحية بمثلها فيسأله المحتال:

«خير إن شاء الله.. على فين العزم»؟

ويقول الجندي: «إن شاء الله على سجن الاستئناف».

ويقول المحتال: «وحياة والدك يا جاويش تسأل عن الجاويش اللي رايح نيابة شبرا وتعطيه النصف ريال ده.. (يعطيه قطعة النقود) وتوصيه على المسجون.. يركبه الترام ويسقيه شاي في النيابة.. أصله قريبي ومطلوب منه كفالة اثنين جنيه..وأنا رايح افتح الدكان ثم أروح النيابة ادفع له الكفالة».

تم تنفيذ هذه الخطة حرفياً وفرح الجندي بقطعة النقود لأنه سيدفع منها قرش صاغ واحد للترام والشاي ويصير الباقي حلالاً له فابتسم للتاجر وقال:

«ده أنا نفسي اللي رايح نيابة شبرا مع المسجون بتاعك»

فضحك المحتال وقال:

«الحمد لله.. تعالى.. خد وياك فطوركم.. والله يا جاويش عبد الكريم حماتك بتحبك... أصل عمتي تعز ابنها وعاملة فطور عال بتاع بهوات».

وتأبط ذراع الجندي وسار به إلى قهوة بلدي على الطريق وفتح المنديل أمامه واخرج من جيبه جريدة نشرها على الدكة وتناول مما في المنديل فطيراً شهياً وجبناً وحلوى وضعها على الجريدة وألح على العسكري ليفطر فتنبهت شهيته للطعام اللذيذ وجعل يأكل والتاجر يحدثه عن المسجون قال:

«عمتي خايفة على ابنها مع أن المسالة بسيطة جداً.. النيابة مادام طلبت ٢ جنيه بس كفالة يعني رأيها إن الحكاية فالصو ويمكن تحفظ الشكوى وتفرج عنه النهارده ولكن لابد من الاحتراس والذهاب للنيابة لدفع المبلغ».

فقال العسكري: «الحرص واجب على كل حال.. وأنت سيد العارفين»

وتناول المحتال كمية ثانية من الفطير وضعها أمام الجندي وألح عليه يأكل واستطاب الرجل الطعام الشهي فأطاع بدون تردد بل باشتهاء..

وفكر المحتال لحظة ثم قال:

«والله يا جاويش عبد الكريم أنا مشغول النهارده قوي.. وورايا دفع كمبيالتين للتجار.. فإذا كنت تعمل معروف تأخذ معاك الاثنين جنيه ولما تروح النيابة تخلي ابن عمتي يدفع الكفالة ويوفر علي المشوار».

وفتح المحتال الكيس بسرعة ووضع في يد العسكري ٢ جنيه ذهباً ومعهما نصف ريال آخر وقال:

«الحتة أم عشرة دي كنت حاصرفها في المشوار أضيع النهار على نفسي... فاتفضل اصرفها أنت بدالي».

وزاد ابتهاج العسكري بالرزق الحلال الذي ساقه الله إليه بدون عناء وبدون أن يطلب منه شيئاً يظنه مخافة تضره، وطلب المحتال لسي عبد الكريم قهوة تعميرة، وقال له:

«الوقت لسه بدري، النيابة مبتشتغلشي قبل الساعة ٩ وحكاية الجدع كلها يروح يدفع الكفالة ويفرج عنه»..

اطمأن العسكري لأن في جيبه مقدار الكفالة وريال كامل رزق من عند الله وقضية المسجون سهلة: دفع الكفالة للإفراج عنه، فجعل يأكل بتمهل وشرب القهوة وحبس بالتعميرة.. ثم استأذن من التاجر الكريم ليذهب إلى السجن فصاحَبه المحتال وانصرف.

من باكورة النهار يصف السجان المسجونين المطلوبين للنيابات

أو لجلسات المحاكم في فناء السجن يجلسون القرفصاء بجنب الحائط وينادى عليهم بالأسماء من البيان المكتوب: فلان جلسة عابدين.. وفلان نيابة الموسكي.. وحافظ نجيب نيابة شبرا.. ويصل المنتدبون للحراسة فرادى في فترات متقطعة، يدق القادم جرس الباب فيفتح جاويش البوابة نافذة صغيرة من الباب يطل منها ليرى الطارق ثم يفتح الباب ويدخل العسكري ويقول: نيابة عابدين مثلاً..

ويكرر الجاويش العبارة بصوت مرتفع فينهض المسجون ويقترب من جاويش البوابة والجندي الذي حضر لاستلامه، يقدم المسجون يديه للقيد الحديد فيقيده الحارس وهو يجيب على أسئلة جاويش البوابة: اسمك إيه ؟ نمرتك كام ؟ من أي قسم ؟ ويسجل الجاويش هذه البيانات في سجل الباب ثم يطلب ختم العسكري ليختم به في السجل اعترافاً منه باستلام المسجون، ويفتح له باب السجن فيخرج ومعه المقبوض عليه.

ودق جرس الباب ودخل عسكري وقال: نيابة شبرا.. فحضرت ووضعت يداي في القيد وسئل الجندي عن اسمه كالعادة المتبعة وسلم ختمه للجاويش فختم به في السجل ثم فتح باب السجن فخرجنا منه إلى فناء المحافظة!

وقطعنا الفناء وأنا أتوهم أن الثواني التي تمر أعوام طويلة واجتزنا القبو ووصلنا إلى ميدان باب الخلق ثم اتجهنا في شارع محمد علي حتى بلغنا دار الكتب، وإلى جانب الرصيف رأيت عربة في الانتظار وفيها فرنسين فركبت إلى جانبها وناولت الجندي الذي لعب دوره ١٠ جنيه ذهباً فانصرف، وانطلقت بنا العربة إلى المسكن الذي أعدته لي للاختباء فيه!

كانت فرنسين في ثياب الحداد وعرفت منها أن زوجها مات لأنه كان يشكو من ربو مزمن ومن علة في القلب فعزيتها فقالت:

«المصيبة فادحة فلم يعد لي في الدنيا صديق سواك وأنت عاجز عن معونتي لأنك هارب تطاردك الحكومة».

قلت: «لا تتوهمي أن المطاردة ستكون سبباً في عجزي عن التمتع بكل حريتي، إنهم سيطاردون حافظ نجيب ولكنني سأترك لهم ذاك الاسم الذي يلوثونه والصورة التي خلقها الله وسأتحول إلى إنسان جديد يحمل اسماً نكرة ووجهاً كاذباً، فأختفي عن العيون في ظلام التنكر ولكنني سأعيش بين سمع الناس وأبصارهم أمتع نفسي بكل ما على ظهر الأرض من الملذات».

وقلت: «هوني عليك الأمر فلن تكتشف الحكومة نبأ هروبي إلا بعد أسبوع وقبيل الظهر في مثل هذا اليوم من الأسبوع، وحينذاك تبدأ المطاردة، إذن أمامنا سبعة أيام كاملة تكفي لخلق الإنسان الجديد والاسم الكاذب ولإيجاد المسكن الظاهر الذي يمكنني الاختفاء فيه ظاهراً للعيون بدون أن تكشف أمري أو تهتدي إلى سري».

قالت: «أظنك تمزح؟»

قلت: «بل هي الحقيقة.... وهي الوسيلة التي تربك خصمي العنيد فيعجز عن تدبير وسائل الانتقام مني بالكيد أو القتل، لأنه لن يعرف مكاني».

لم يصل حافظ نجيب إلى نيابة شبرا ولم تحضر أيضاً السيدة التي شكته فلم يعبأ وكيل النيابة بالأمر وأجّل التحقيق أسبوعاً لأنني في اعتباره مسجون لسبب آخر، وأمر بإعلان الشاكية

بالعنوان الذي ذكرته في محضر التحقيق لتحضر هي الأخرى في نفس اليوم الذي حدده لاستحضاري من السجن لعرضي عليها. ووصل كتاب من النيابة لإدارة السجن يأمر بإرسالي لنيابة شبرا في ذلك التاريخ فأودع الكتاب في درج الكاتب المختص لينفذه في الموعد المحدد.

أما جاويش الطابق الذي فيه محبسي فإنه تمم على المسجونين الذين في عهدته وثبت له أنني أرسلت في الصباح إلى نيابة شبرا ولم أرد ثانياً للسجن فبلغ الأمر إلى الباشسجان عند النداء عليه قال:

«تمام يا أفندم ما عدا واحد مسجون في نيابة شبرا»

واستمرت عملية «التمام» على هذه الصورة طول الأسبوع: السجن ناقص واحد على ذمة نيابة شبرا.

وجاء عصر يوم الاثنين الذي سبق الثلاثاء المحدد لإرسالي للنيابة، فسجل الكاتب اسمي مع المطلوبين للنيابات أو الجلسات واستلمه الباشسجان كالنظام المتبع أبقاه في مكتبة إلى صباح يوم الثلاثاء، ثم أعطاه لجاويش الطابق الذي احبس فيه فنادى على الأسماء وأشر أمام اسمي بأنني غير موجود في السجن وأنني في نيابة شبرا من أسبوع..

وجاء دوري أمام وكيل النيابة فسأل عن الشاكية ونودي عليها وأثبت أنها لم تحضر، وطلب المدعى عليه فقيل له إن السجن لم يرسله كما حدث في المرة السابقة فاستاء من تعطيل العمل وطلب مأمور السجن بالتليفون وسأله عن سبب عدم إرسال حافظ نجيب لنيابة شبرا لا في هذا النهار ولا في الأسبوع الماضي مع وصول خطاب من النيابة للسجن تأمره بإرسال المتهم

لإتمام التحقيق، وطلب مأمور السجن الباشسجان وسأله بدوره عن سبب عدم إرسالي للنيابة فأظهر الرجل التعجب وأكد للمأمور أنني أرسلت مع عسكري حرس إلى نيابة شبرا منذ أسبوع ولكن النيابة لم تردني ثانياً للسجن.

ونبأ المأمور وكيل النيابة بإجابة الباشسجان، وأنكرت النيابة وصول المسجون إليها فانكشفت الحقيقة بالتحقيق. رجعوا إلى سجل باب السجن الذي يسجل فيه الوارد والصادر من المسجونين والجهات التي يرسلون إليها أو العائدين منها فثبت أنني سلمت في التاريخ الأول للعسكري مرسى محمد نمرة ٢٧٤ من قوة قسم عابدين وطلبت نيابة مصر (التي تولت التحقيق في حادثة اختفائي) من قسم عابدين إرسال العسكري المذكور للمثول بين يدي المحقق فكانت إجابة القسم أن هذا الاسم غير موجود بين عساكر القسم وكذلك النمرة.. فحدث الارتباك وبلغ نبأ هروبي لمحافظة مصر، وهذه بلغته إلى رجال البوليس السري وإلى أقسام البوليس، ثم نشر نبأ الهروب في النشرة الإدارية التي تظهرها نظارة الداخلية وانطلق رجال البوليس السري يبحثون عن الهارب..

٩

لم يعجبني المسكن الذي اختارته فرنسين لاختبئ فيه، لأنها تعمدت أن يكون في درب داخل حارة يصل إليها من أزقة ملتوية مضللة، ظنت أن مثل هذا المكان يدعو للاطمئنان فنبهتها للخطأ، لأن حصري على هذه الصورة على مثال حصر الفار في المصيدة ولأن أسلم وسيلة للاختفاء هي الظهور بين الناس وعدم الاختفاء. ولم تتردد السيدة طيبة القلب المخلصة في تنفيذ رغبتي وبحثت بجد حتى اهتدت لبيت يطل على ميدان الظاهر بابه من شارع فرعي، به مسكنان خاليان في طابق واحد، فاستأجرت لنفسها أحدهما واستأجرت الثاني باسمي المستعار، فكنا منفصلين أمام السكان متصلين على الدوام في غفلة من الجميع.

تنكرت في زي رجل تجاوز الحلقة الرابعة من العمر وكان العصر عصر اللحى فعاونتني الشوارب الصناعية على إبدال ملامح الوجه بغيرها غريبة عن صورتي الأولى واتخذت لنفسي قميصاً ذا طبقتين من القماش بينهما كيس من المطاط يملأ بالنفخ فيه بالهواء فيرتفع في شكل كرش من ذوي الجاه العظيم، يصل الهواء إلى جوف الكيس بواسطة أنبوبة طويلة من المطاط ترتفع

إلى الكتف ثم تنثني لناحية الذراع وتمتد على طوله وتختفي تحت سوار شديد الضغط عليها وعلى الذراع نفسه فيمنع هذا الضغط الشديد تسرب الهواء، فإذا خلعت الأنبوبة من مكانها وزال الضغط الذي كان عليها وإذا أزيلت الصمامة التي على فوهتها ينطلق الهواء من جوف الكيس إلى الفضاء بصوت يسمع.

كنت نحيفاً لا يزيد وزني عن ٦٠ كيلو فضخمت بالهواء المحبوس بطني وفخذاي فصار لي مظهر رجل بدين قصرت البدانة من طولي فأصبح من العسير على الناظر التقريب بين هذا الجسم الضخم وجسمي النحيل الطويل حتى فرنسين لم تعرفني عندما فاجأتها لأول مرة بهذا التنكر. كانت الكافيه إجبسيان أرقى مقهى في القاهرة وهي قاعة مستطيلة فسيحة نظيفة مرتبة أحسن ترتيب ومن النظام في هذا المقهى الراقي الرقابة على الوافدين عليه فلا يسمح بالبقاء فيه إلا لمن لهم مظهر الوجاهة والعقل والأدب.

جلست وحدي في إحدى الليالي في النصف الأول أسامر فتاة من فرقة الموسيقى فرأيت رئيس البوليس السري المسيو كارتييه يدخل المقهى ويجلس إلى المنضدة على يميني معه يوزباشي إيطالي يدعى رنده، جلسا يتحدثان بصوت وصل إلى سمعي واضحاً تحدثا في شؤون شتى ثم انتقل الحديث إلى حافظ نجيب فسأل كارتييه زميله هل نفذ أوامره فقال:

«نعم».

وذكر أسماء رجال البوليس السري الذين وزعهم على أماكن الغناء والرقص ثم قال:

«الليلة يبدأ العام الجديد ولحافظ ولع بالمقامرة في هذه الليلة،

ومن المرجح أنه سيذهب إلى التروكاديرو لتجربة حظه وسنذهب معاً إلى هذا النادي قبيل نصف الليل عسى أن يساعدنا الحظ فنلقي القبض عليه».

نبهني هذا الحديث إلى الجهد الذي يبذله رجال البوليس السري للتمكن من القبض علي بسبب غرابة هروبي من السجن وخطر لي في تلك اللحظة أن أداعب رئيس البوليس مداعبة تثبت له أنه ساذج قصير النظر ونفذت الفكرة في الحال.

أمرت الجرسون باستدعاء سائق عربة فحضر فقلت له:

«إنني سأركب معه وقتاً طويلاً ولكنني سأدفع الأجرة بحساب أجرة الساعة».

وقبل الرجل وتمّ الاتفاق على دفع ١٢ قرشاً لكل ساعة، وانتظرت حتى انصرفت الفتاة لعملها ودفعت ثمن ما شربت وخرجت من القهوة وركبت العربة إلى الأوبرا فقط، ودخلت مقهى هناك، وطلبت ورقاً وكتبت بالفرنسية كتاباً إلى رئيس البوليس السري هذه ترجمته:

«كنت إلى جانبك الآن في الكافيه إجبسيان ومعي فرقة الموسيقى وسمعتك تتحدث مع اليوزباشي رنده على الوسائل التي لجأتما إليها للبحث عني وآخرها ذهابكما إلى التروكاديرو، فكنت يا سيدي على مثال العالم الذي كان يبحث في السماء عن كوكب جديد بمنظاره الكبير وهو ذاهل عن طفله الذي يحبو عند قدميه فداسه، وعجزك عن معرفتي وأنا إلى جانبك وقتاً يبعث في نفسي الاطمئنان لهذا العجز، ويجعلني ارتاح لتهنئتك بحلول عام جديد؟».

«حافظ نجيب»

غلّفت الكتاب وكتبت عنوان رئيس البوليس السري واستدعيت سائق العربة فذكرته بالمكان الذي رآني فيه ووصفت له المنضدة التي كانت إلى يميني وقلت هناك ستجد اثنان خواجات أحدهما يدعى المسيو كارتييه تسلمه هذا الخطاب ثم تعود إلي بالإجابة عليه، ودفعت له ريالاً من الحساب فاطمأن وعاد إلى المقهى وسلم الخطاب إلى رئيس البوليس ولست أدري كيف تأثير المداعبة في نفسه ولكنني تخيلتها.

بلغت البوليس شفوياً بأنني حضرت إلى مسكني في منتصف النهار فوجدت الباب مفتوحاً ولكنه مردود ووجدت خزانة الثياب مفتوحة تحطم قفلها وضاع منها ثوبان وقميصان ومناديل وصندوق صغير به ساعة وسلسلة من الذهب ودبوس به حجر من البرلنت وزنه ٦ قراريط وخاتم به حجر من البرلنت وزنه ٤ قراريط و٥٤ جنيهاً من الذهب.

أثبت أقوالي في المحضر وانتقل المأمور إلى المسكن ومعه كارتييه رئيس البوليس السري للمعاينة ولإثبات الحالة ثم قيدت القضية ضد مجهول، وقد عاونت المسيو كارتييه في تعليل كيفية دخول اللص المسكن أثناء غيابي ونصح لي بوضع مزلاق من داخل الباب يثبته فلا يتمكن أحد من فتحه من الخارج زيادة في الحرص والإطمئنان ليلاً، ما دمت أعيش وحدي. واطمأننت أنا لهذا المسكن وصاحبه أنهما سيكونان بعيداً عن مظان رئيس البوليس السري وعن أبحاثه الخاصة بحافظ نجيب فعشت فيه في هدوء تام...

وتكهرب فجأة هذا الجو الهادئ بمرض خطير فأجأ هذه السيدة المخلصة الوفية وأمر الطبيب بنقلها إلى المستشفي ففعلت

ثم أجريت لها عملية بدت خطيرة جداً، ولكنها آلت إلى الشفاء بعد قضاء أكثر من شهر في المستشفى الفرنساوي.

وقرأت يوماً في الصحف نبأً جديداً عن اتهام حافظ نجيب بالاحتيال على رجل إسرائيلي لسلب ساعته وأن التحقيق تم وأحيلت القضية إلى قاضي الإحالة لتحويلها إلى محكمة الجنايات.. فأدركت أن اليد الخفية لا تزال في غيابي تكدس القضايا لتصدر فيها أحكام ستنفذ فيّ إذا تمكن البوليس من القبض علي، وتحدَّد للمحاكمة تاريخ معين فحضرت الجلسة مع الحاضرين لأتمكن من رؤية الرجل الذي وجه إلي هذه التهمة فحلف اليمين وشهد بأنه صديق قديم لي وأنه غاب عن مصر زمناً طويلاً فلم يسمع شيئاً من حوادثي التي وقعت أثناء هذه الغيبة.

وقال إنه رآني ليلة في بار فدعاني للجلوس معه وشربنا أقداحاً من الكونياك وطلبت منه رؤية ساعته الذهب فأعطاها لي ففحصتها ثم أبقيتها في يدي ثم نهضت لقضاء حاجة وتركت الطربوش في مكانه على المقعد واختفيت. وصدر الحكم بحبسي ٣ سنوات...

كان خليل حداد معي في هذه الجلسة فثار وسألني لماذا أصبر على هذا الرجل؟ ولماذا لا أعاقبه؟ وقال:

«مادامت المحاكم تقتنع بقضايا من هذا النوع بمجرد سماع شهادة المدعي وتصدر فيها أحكاماً بالإدانة وبالعقوبة، فمن السهل على ملفق هذه القضية تكرار عمليات الكيد فيجمع ضدي أحكاماً تستنفذ كل عمري».

ولكنني خالفت رأي صديقي وطمأنته بشرح ما في نفسي

وما عقدت العزم عليه قلت له:

«لن أنفذ أي حكم من الأحكام التي ستصدر ضدي، سأترك لهم اسم حافظ نجيب يكيلون له التهم ويصدرون عليه الأحكام كما يشاء خصومي، سأختفي من العالم بجسمي وأترك لهم اسمي، وسأحمل أسماء كثيرة أختارها للظروف المتنوعة والمناسبات فيعجزون عن الاهتداء إلي ويتعذر عليهم تنفيذ الأحكام».

ونشرت في الصحف المصرية رسالة شرحت فيها ما شاهدته في جلسة المحاكمة وأكدت عزمي على عدم تنفيذ أي حكم يصدر ضد حافظ نجيب.

جعلت لي مقراً ثانياً في قصر الشوق بين حي الجمالية وكفر الطماعين غرفة واحدة أرضية يسكنها «عم دؤدؤ»، رجل تجاوز الأربعين يرتدي جلباباً أزرق يشد وسطه حزام من الجلد القديم وينتعل بلغة[1] وله لحية محنية خفيفة وعلى رأسه طاقية يلف حولها شد أحمر (نوع من القماش) وصناعته تاجر للأطفال.

وإلى جانب مسكنه الأرضي المظلم المحروم من الهواء ومن نور الشمس مصطبة منخفضة من الطين يضع عليها مقاطف مملوءة بالتبن يغطيه الخيش ويضع فوق هذا السطح في كل مقطف بضاعته من الحمص والفول السوداني واللب والفشار، ويعلق في حبل مثبت في الحائط حلوى تسمى خد البنت وهي شريط من الورق الملون لاصقة به سلسلة من قطع الحلوى خفيفة الوزن، يعرض بضاعته في الأوقات التي يكثر فيها لعب الأطفال

(١) حذاء من الجلد يلبسه الفقراء مفتوح من ناحية الكعبين.

في الحارة يبيع لهم ما يشاءون بالملاليم وأنصافها مع محاولة إرضاء زبون.

ولكن طبع «عم دؤدؤ» يجعله قليل الثقة بالزبائن فلا يبيع لهم إلا نقداً، وله مزاج مضطرب فتارة يعرض بضاعته كل يوم وتارة أخرى يغيب أياماً يدعي أنه يقضيها في زيارة شيخه السيد البدوي وغيره من أولياء الله الصالحين، كنت أتسلى بهذه العملية حين لا يدعوني العمل إلى مبارحة هذا المكان فليس في مقدوري الانسحاب طول اليوم في غرفة مظلمة يضيق فيها الصدر، فجعلت البيع للصغار تسلية ومظهر عمل يرغمني على البقاء داخل البيت المزدحم بالسكان.

وكنت أترك هذا المقر إلى غيره في شارع الشنواني وهو مسكن أرضي في بيت له بابان واحد منهما في حارة تؤدي إلى الشارع والثاني يؤدي إلى حارة ملتوية توصل إلى قرب الأزهر، وفي هذا المسكن جارية خرساء أتولى الإنفاق عليها، فإذا رغبت في التنكر بصورة جديدة أتحول في هذا المسكن إلى زي مناسب أخرج به إلى مسكني في ميدان الظاهر، وهناك أتحول إلى التنكر الذي أغشى به المجالس العامة والمقاهي أو المكاتب التي يستدعي الأمر اللجوء إليه، ويقتضي الحال المرور على هذه المساكن بالتوالي لتعود لي شخصية عم دؤدؤ الهادئ الوديع.

وفوجئت يوماً بدعوة لمقابلة المرحوم إسماعيل بك الشيمي في مكتبه فكان من الضروري الوصول أولاً إلى مسكن شارع الشنواني، ولكن الطريق من نهاية شارع أم الغلام إلى ميدان سيدنا الحسين كان مزدحماً جداً في تلك الأيام بسبب المولد فلا بد إذن من شيء جديد يغطي عم دؤدؤ. زيادة في التحصن

أحضرت طبلية وضعت عليها حلوى المولد: مآذن من الحلوى، وخيول، وعرائس، وسفن، وكلها حمراء وبيضاء كما يفعل باعة هذه الأنواع من الحلوى، فغطت الطبلية رأسي ودائرة كبيرة حوله فاطمأننت وانطلقت في الطريق وأنا واثق من العيون أنها ستستقر على الحلوى الملونة لا على وجهي.

وصلت من قصر الشوق إلى شارع أم الغلام الضيق الطويل، وتجاوزت انحناء في الطريق ثم اعتدل الشارع مفاجأة فإذا بي أرى على بعد أمتار قليلة مني كارتييه رئيس البوليس السري ومأمور القسم وعسكري واثنين من البوليس السري في ثياب بلدية.

أثرت فيَّ المفاجأة ولم يكن في مقدوري العودة لأن أنظارهم كانت متجهة إلى ناحيتي وكانوا على رأس حارة يعاينون منزلاً على ناصيتها حدثت فيه حادثة هامة، وكان من المفروض علي أن أستقر بسرعة على رأي بدون الكف عن السير في الاتجاه الذي كنت أسير فيه.. وجدَّت علي مفاجأة جديدة مزعجة لم أكن أنتظرها

سقطت اللحية المستعارة والشارب على صدري وتدحرجا إلى الأرض، وثبت لي أن كارتييه رأى الحادثة لأنه ابتسم وحول رأسه إلى ناحية أخرى ليوهمني بعكس الواقع وليزيد في اطمئناني، وكان غرضه أن يصبر علي حتى أصل إليه فيطوقني بذراعيه ويلقي القبض علي، ليكشف شخصية هذا المتنكر العبيط الذي تسقط منه لحيته بدون مبرر في الشارع.

لم يبق بيني وبين هؤلاء الناس سوى خطوات ولكن كارتييه لم ينبه الذين معه لأمري عاقداً العزم على مفاجأتنا جميعاً

بتطويقي، أدركت كل هذا وأصررت على عدم تمكينه من تنفيذ خطته. حول رأسه لناحيتي ليقيس مقدار بعدي عن ذراعيه، فاغتنمت هذه الفرصة السائحة وقذفت الطبلية لناحية وجهه بشدة فأصبت وجهه وصدمت حافتها أنفه فصرخ من الألم.

وفوجئ الجميع بهذه الحادثة وتولاهم الذهول لحظة ولكنها كانت كافية للتخلص من «البلغة» التي كانت تثقل خطواتي والانطلاق بأقصى سرعتي في الشارع الضيق كثير الالتواء. وانطلق ورائي العسكري بحذائه الثقيل ورجال البوليس السري والمأمور ولكنني بعدت عنهم كثيراً وصار البعد يزيد عن خمسين متراً... وكنت أخشى الانعطاف لناحية الزحام فيرى الناس الهارب والمطاردين فيسدون في وجهي طريق النجاة ويلقون القبض على وجاءت الصدفة بالفرج القريب..

رأيت أمامي باب حمام أعرفه منذ الطفولة لأن له باباً يؤدي إلى طريق ضيق جداً يلتوي مرات ثم يصل إلى صحن الحمام، فإذا تجاوزته أصل إلى باب آخر للحمام ومنه إلى حارة توصل إلى شارع الشنواني. لم أتردد طبعاً في الاندفاع من الباب إلى السرداب وفي قدمي شراب[1] من الصوف البلدي (شغل يد) يقيني خشونة الأرض.

ووصلت إلى صحن الحمام مندفعاً بأقصى سرعتي وإذا بي أفاجأ بنساء عاريات صرخن عند رؤيتي، غلبهن الحياء في أول الأمر واختبأ بعضهن وراء الفسقية (النافورة) ليستترن وصياحهن يتعالى، فاغتنمت فرصة الارتباك وقطعت الصحن، ووصلت إلى الباب الثاني للحمام في الوقت الذي وصل فيه المطاردون

(١) جورب.

للمدخل المؤدي للصحن الحاشد بالنساء.

فوجئ رجال البوليس بمشهد أبدان النساء العاريات فتولاهم الارتباك لحظة وصرخ فيهم المأمور يأمرهم بالانطلاق في إثري ولكن النساء غضبن أشد الغضب من جرأة الرجال الوقحاء فعمدن إلى القباقيب[1] يضربن بها رؤوس الجماعة وأسرع بعضهن إلى ماء النافورة يحملن منه في الطاسات ويرششن بها المهاجمين، وعلا الصراخ وارتفعت الأصوات فاستولى الرعب على المطاردين وانهزموا أمام كتائب النساء العاريات المهاجمات وعادوا أدراجهم ساخطين.

ونشرت بعض الصحف في النهار الثاني كلمة اعتذار لمن كن في صحن الحمام وعبارات شكر لدفعهن المطاردين وتعطيلهم عن اقتفاء أثري فصارت الحادثة حديث الناس يتفكهون بها في المجالس، ولكنها صارت أيضاً سبباً يزيد في حنق رئيس البوليس السري علي وفي نشاطه للقبض علي.

(١) أحذية خشبية كان معتاداً في مصر استخدامها في الحمامات.

١٠

كان رئيس النيابة رجلاً تقياً ولكن ذكاءه كان محدوداً، وكان عنيداً في تصرفاته معي اعتقد أنني مجرم خطر على الأمن العام فيجب تطهير الهيئة الاجتماعية من وجودي فيها وكان رأيي أنه غبي ومخطئ في اعتقاده فلا يجوز تمكينه من تنفيذ رغبته، وبقدر إلحاحه على البوليس السري لتنشيطه للبحث عني كان نشاطي يزداد لمداعبة هؤلاء الناس. وخطر لي أخيراً أن أداعب رئيس النيابة نفسه مداعبة لطيفة مبتكرة.

قررت أن أعمل خادماً في بيته فوسطت خليل صديقي ليتفق مع المخدم[١] على إغراء دسوقي خادم رئيس النيابة ليخرج من بيت سيده ويخدم عند إفرنجية بأجر مضاعف فنجحت الحيلة، وخرج الخادم وأسند إليه عمله الجديد وسخا خليل على المخدم وأعطاه جنيهاً، فصار له مركز ممتاز عنده.

واستدعاه في يوم آخر وعرض عليه خادماً أسمر البشرة يقرب

(١) صاحب مكتب تشغيل الخدم.

لونه من الزنوج ورجا منه أن يركزه في بيت محترم لأنه يعرفه من زمن طويل في خدمة صديق له مات وزاد في قوة تأثير التوصية جنيه من الذهب انتقل من جيب خليل إلى يد المخدم، سر الرجل من تصرفات الزبون الكريم وأخذني معه إلى دكانه بشارع محمد علي ليتولى أمري فجلست هناك أياماً أنتظر فرج الإله الكريم فإذا جاء الليل أنصرف لأعود في النهار الثاني. أرسلني المخدم مرتين إلى بيتين لأخدم ولكنني رفضت الاستمرار في كل بيت منهما لأسباب اختلقها، ولم يطق الخادم الجديد البقاء في منزل رئيس النيابة فتركه وخرج.

وألح الرئيس على المخدم ليبحث له عن خادم عاقل يستمر في خدمته فلما حضرت للدكان في صباح أحد الأيام جرني إلى البيت العامر وهو قريب من الدكان. دخلنا من فجوة على شكل بوابة كبيرة إلى رحب به عدة بيوت والأول منها ليمين الداخل هو بيت رئيس النيابة ويلي الباب الخارجي ردهة كبيرة بها غرفتان متقابلتان إحداهما لاستقبال الزائرين والثانية لخادم المنزل وعرضني المخدم على الست الهانم فقالت ممتعضة:

«كل الخدامين زي الزفت دايماً يدلعوا زي العيال، واحنا غيَّرنا اثنين وده الثالث في ١٨ يوماً»..

وقال المخدم: «الخدام الجديد ده على ضمانتي أنا، أصله كان خدام بهوات تقال عاش عندهم طول عمره وهو جدع وأمين ولسه ما تمرمطش.. أهو ده إلي حيعمر وينفع بإذن الله».

قالت الست: «بكرة نشوف قالوا الخبر بفلوس قلنا بكرة يبقى بيلاش».

وكرر المخدم عبارات الثناء عليّ ثم تركني للبيت وانصرف وبدأت الست تسألني فقالت:

«اسمك إيه يا شاطر؟».

قلت: «اسمي مبروك»..

قالت: «إن شاء الله امال تبقى مبروك علينا.. دخّل هدومك في المندرة اللي على الشمال، واغسل بلاط الحوش أحسن المنيل اللي قبلك ما رضيش يمسحه».

فدخلت الغرفة المخصصة لسكني، فوجدت أثاثها من البلاط القديم وفراشي حصيراً ولحافاً ومخدة، وخزانة الثياب حبلاً مثبتاً في زاوية من الركن الداخلي، ينشر عليه ثوب الخادم إذا كان يملك أكثر مما يستر جسده.

كان ثوبي صوف فريسكا كحلي وبه خطوط رفيعة بيضاء فخلعت الجلباب وطرحته على الحبل ونزعت النعل واستعددت للمسح. دخلت الفناء الداخلي فوجدته مربعاً فسيحاً أرضه من البلاط القديم السميك ورأيت في أحد الأركان بئراً، فنشلت منه ماء، ثم صفقت وطلبت مكنسة وقطعة من الخيش، فأسعفتني بهما زينب. وزينب خادمة صبية لها لمحة جمال ولها دلال، لأنها ربيت في هذا البيت من صغرها، فشملها حنان الست وعطفها وصارت يدها ورجلها.. فحصتني الصبية من رأسي إلى قدمي بنظرات جريئة ثم سألتني:

«هل أنت بربري؟»

فقلت: «لا يا ست.. أنا مولد أمي سودانية وأبوي فلاح»..

فقالت: «طيب يا مبروك.. اتجدعن وامسح الحوش كويس

علشان البيه ينبسط منك لما يرجع من الديوان».

فقلت: «حاضر يا ست زينب».

وتناولت المكنسة، كنست بها الحوش ثم غسلت البلاط ثلاث مرات والرؤوس تطل علي من النوافذ. واسترحت قليلاً ثم غسلت الردهة الخارجية وتحولت إلى غرفتي فعنيت بنظامها، ثم انتعلت نعلي ولبست ثوبي وجلست استريح خلف الباب وعاد البيه الكبير من الديوان وسمع من الست عبارات الثناء على الخادم الجديد.

كان الرجل رب أسرة كبيرة غني بالصغار فاعتاد ملازمة بيته عقب عودته من العمل إلى صباح النهار الثاني فصادفني في طريقه وهو خارج فقال:

«الست مبسوطة من شغلك.. فخليك نشيط على طول».

فقلت أتملقه: «بنفسك يا بيه أخلي الست راضية عني».

أرسلت للسوق لشراء اللحم والخضار وبطيخة فلم أتغيب في السوق وعدت بسرعة، وكررت الست عملية وزن اللحم فاطمأنت أنه زاد عن الوزن المطلوب قليلاً، وأعجبت بالخضار لأنها طازجة وبالبطيخة لأنها كبيرة وحمراء وكثيرة الحلاوة ورخيصة.. وأطلت الست هانم من النافذة فرأت الفناء الداخلي يغسل ويمسح بعناية فأرسلت طعام الفطور وزادت عليه قدحاً من الشاي.

دام الحال على هذه الصورة شهوراً، نشاط في تأدية العمل المطلوب مني وأمانة في كل ما أشتريه من السوق مع الزيادة في وزن اللحم والسمك والفاكهة، عناية بالصغار بعد عودتهم من المدرسة فنالني الرضا عني من جميع أفراد البيت، وبخاصة لأنني

أتوضأ عند البئر لأؤدي الصلاة في غرفتي.

وكنت أشتري الصابون والزهرة وأغسل ثيابي بنفسي، وأنشرها على الحبل في الغرفة وأحافظ على نظافة بدني وثوبي، فزاد هذا في اطمئنان ربة البيت وصارت ترسل إلي صغيرها المفطوم حديثاً لأداعبه وأمنعه من الصراخ فجعلته لعبة أتسلى بها في الوحدة. وفي كثير من الليالي كانت زينب تأتي به لأنهم عجزوا عن إسكاته فأحمله وأدور به في الغرفة، بينما ترقد الخادم الظريفة على فراشي مستسلمة للنعاس.

اكتسبت ثقة الجميع بسلوكي المرضي عنه وبالوداعة والحلم والأمانة وبلغ العطف علي إلى الحد الذي سوغ للست هانم التفكير في تزويجي من زينب لتضمن بقائي معها في خدمة الأسرة. ولم تتهيب مكاشفتي برغبتها، قالت إن زينب تربت في البيت من الصغر، وإنها مؤدبة وعاقلة وأمينة، فهي بنت البيت التي لا يمكن التفريط فيها ولا الاستغناء عنها. وقالت أيضاً:

«وأنت رجل عاقل ومتدين ومؤدب وأمين، وتصلح زوجاً لزينب، فإذا قبلت الزواج منها فمن السهل إقناع البيه الكبير وإتمام الأمر، فتعيش في البيت كأنك من أهله».

وقلت: «إن رضا الهانم يشرفني، وإن زينب تكون أحسن زوجة، ولكنني لم أفكر في الزواج لأنني خادم وفقير ومرتبي قليل لا يكفي للإنفاق على زوجة».

ودافعت الهانم بأننا لا نحتاج إلى نفقات معيشة لأننا نعيش في البيت كسائر أفراد الأسرة، ولأن مرتبي جنيه، ومرتب زينب يساوي أجري فيكفينا هذا المبلغ لقضاء ما نشتهيه خاصة. فقلت:

«ولكنني لا أستطيع الزواج إلا بعد موافقة والدتي، وسأحاول إقناعها حتى لا تغضب».

فاقتنعت الهانم بهذا الاعتراض وسألتني عن والدتي أين مقرها وعرفت مني أنه في مدينة طنطا.

كانت زينب مختبئة وراء نافذة تسمع الحديث راضية مبتهجة، فاعتبرتني من ذلك الوقت خطيبها فبدلت سلوكها معي واندفعت لمعاونتي في عملي. فإذا ذهبت لشراء حاجات البيت من السوق أجدها غسلت فناء البيت بدلاً مني. وإذا رأت على الحبل ثياباً أعدت للغسيل تغسلها قبل طلوع النهار فأراها منشورة نظيفة. وفي كل مرة تحمل إلي الطعام أرى فيه زيادة واضحة، فقطعة اللحم صارت قطعتين، وزادت كمية الفاكهة وكذلك المقدار المعين من الخبز..

وكنت من حين لآخر أشتري لها منديلاً للرأس، أو شراباً رخيصاً، أو شيئاً من الحلوى أهديه لها فتسر وتفرح ويظهر الارتياح في نظرتها والحنان في ابتسامتها. لم أعد غريباً عنها في نظرها فجعلت تظهر العطف عليَّ في وضوح تريد أن تؤثر في نفسي تأثيراً يحملني على التعجل لإتمام عقد الزواج.

ليس من حق أي إنسان أن يعيب عليها هذه الرغبة، لأنها صبية بلغت العشرين من عمرها، وهي ممتلئة صحة وعافية ولأن الغريزة قوة طبيعية في الشباب تحفزه لطلب الاقتران، يستوي في الأمر الذكر والأنثى. ولم تجد أمامها رجلاً غيري لأنها نشأت في هذا البيت الشريف معزولة عن الخارج وعن جميع الرجال، فلا سبيل للتنفيس عن عاطفتها إلا بالزواج، وقد اختاروا لها الزوج فلا غرابة إذن إذا نظرت إليه على هذا الاعتبار، وإذا فعلت

ما يحفزه إلى الإسراع بالتعاقد الشرعي ليتم الاقتران الفعلي.

كنت أشفق على الفتاة لأنني على يقين من الأمر أنه لن يتم وأن استرسالها في الأمل ستعقبه حسرة وألم حين أهرب منها ومن البيت، لأنني لم أخدم هناك بقصد الزواج والإشفاق على عاطفة متنبهة تبث للتنفيس عن الغريزة المكبوتة، فصار من الضروري وقف هذا التعذيب بالخروج من البيت.

قلت للست هانم يوماً:

«أريد الذهاب إلى طنطا لرؤية والدتي وأرجو الإذن لي بالسفر».

وقالت: «هل تريد أن تنال رضاها في موضوع زواجك بزينب؟»

قلت: «نعم.. بإذن الله.. فأرجو الإذن لي بالتغيب ١٥ يوماً».

فظهر عليها الارتباك وقالت:

«ولكن البيت لا يستغني عن خدمتك مثل هذه المدة».

وهكذا كان رأي رئيس النيابة ولكنني أصررت على رأيي وزدت عليه أنني طلبت شهادة من المخدوم.. فانتهى الأمر بقبول رغبتي، وكتب لي الرئيس الشهادة وعدد فيها صفاتي من حسن الخلق والنشاط والأمانة. وأحضر المخدم الخادم الجديد وقضيت معه ثلاثة أيام أرشده إلى ما يجب عمله، ثم استأذنت للسفر، فشددت الهانم التوصية حتى لا أزيد في الغياب عن الأسبوعين.

أما زينب فناولتني ما أعدته لي من الطعام ودموعها تجري

على خديها في هدوء وكاد قلبي ينفطر لهذا التألم الصامت بتأثير الحياء، فشجعتها على الصبر وودعتها وانصرفت في أسف وتألم لأن جميع أهل البيت الشريف غمروني بالعطف البريء جزاء ارتياحهم لخدمتي.

قلت إنني خدمت في بيت رئيس النيابة لأداعبه فيجب أن أسبق الزمن (هنا) وأثب أعواماً لأظهر نوع هذه الدعابة وتأثيرها في الرجل. أسلمت نفسي للقضاء في ١٩١٣ لتصفية الحساب بيني وبين الحكومة لأسباب هامة طرأت عليَّ وبدلت إصراري الأول بغيره، والعقوبات الصادرة بأحكام غيابية من محاكم الجنايات تسقط بمجرد القبض على المحكوم عليه، فأعيدت الإجراءات من جديد وقدمت لمحكمة الجنايات في إحدى القضايا، وجلس رئيس النيابة في كرسي الاتهام.

ولما جاء دوره حمل عليَّ حملة قاسية، ومن أقواله:

«إنني مجرم بالطبيعة، فاسد الأخلاق، وخطر على الأمن العام وعلى الهيئة الاجتماعية».

وسألت في هدوء المرحوم توفيق رفعت باشا رئيس الجلسة قلت له:

«من الذي يصفه حضرة رئيس النيابة هذا الوصف؟».

قال: «طبعاً أنت»؟.

قلت: «هل لهذا الرئيس رأيان أحدهما شفوي يعلن أمام المحكمة، والآخر كتابي ينكره بعد اعترافه فيه؟»

قال: «لم أدرك قصدك مم تذكر!»..

فأخرجت من حذائي ورقة أعطيتها للحاجب فسلمها لرئيس

المحكمة، فتناولها وقرأها في دهشة، ثم نظر إلي نظرة استفهام.. قلت:

«هل يعترف حضرة رئيس النيابة بأن هذه الورقة بخطه وبتوقيعه؟».

ووصلت الورقة إلى يد الرجل فقرأها ثم قال:

«نعم هذه الورقة بخطي، ولكني أعطيتها لخادم كان في بيتي اسمه مبروك».

قلت: «أنا يا سيدي خادمك مبروك».

تنبَّه جميع الحاضرين لهذه المفاجأة، وسألني المرحوم محمود أبو النصر المحامي عن علاقة هذه الورقة بالقضية، وكذلك رئيس المحكمة، فقلت:

«عليَّ أن أثبت أنني مبروك الذي حرر له حضرة رئيس النيابة هذه الشهادة، فيثبت أن ما وصفني به في شهادته الكتابية يخالف كل المخالفة ما ذكره الآن للمحكمة عن أخلاقي وخطري على المجتمع».

وقال رئيس النيابة: «كان مبروك أسمر اللون من أم زنجية ووالد ريفي فمن المستحيل أن نصدق أنك أنت مبروك».

قلت للمحكمة: «هل ينكر حضرة رئيس النيابة أنه عرض علي الاقتران بفتاة من بيته؟»

فاستولت الدهشة على الجميع، وظن رئيس المحكمة أنني أريد النيل من رئيس النيابة، فقال بحدة:

«ما هي العلاقة بين ما تذكر وموضوع هذه القضية؟»

قلت: «إن رئيس النيابة يطعن في أخلاقي، ومن حقي هدم

جميع ما تذكره النيابة في الاتهام، وهذه الشهادة تهدم ما ذكره عن أخلاقي، فمن حقي أن أثبت أن هذه الشهادة كتبت لي بالذات وأنا متنكر باسم مبروك وأخدم في بيته».

قالت المحكمة:

«ورينا إزاي إنك مبروك!».

فقصصت على الجميع نوع حياتي في بيت رئيس النيابة، واطمئنان الجميع لأمانتي وأخلاقي حتى بلغ الارتياح إلى رغبة في استبقائي في البيت بإتمام اقتراني بربيبتهم (زينب)».

وسألت المحكمة رئيس النيابة: «هل هذا صحيح؟».

قال: «نعم».

قلت: «لا يستطيع أي إنسان غير مبروك أن يذكر ما ذكرت عما حدث داخل هذا البيت، وهذا يثبت أنني خدعت حضرة رئيس النيابة لأختبئ في بيته أكثر من ستة شهور، ولأقنعه عملياً بنوع أخلاقي وصفاتي فلا يلجأ إلى الخيال لوصفي أمام المحكمة بمثل ما ذكره اليوم».

وحدثت ضجة عالية من الحاضرين، ورفعت الجلسة للاستراحة ليتمكن رئيس النيابة من إسكات غضبه وتهدئة نفسه.. فلما أعيدت الجلسة لم يظهر رئيس النيابة وحلّ مكانه غيره، تعمدت حضور هذه المحاكمة وعرضت نفسي لحكم حضوري لمجرد الرغبة في مداعبة ذلك الرجل، فلما تمّ ما أردت لم أعد إلى السجن وهربت.

١١

انقلبت العلاقة بيني وبين فرنسين إلى صداقة متينة بل إلى أخوة وزالت جميع الحواجز التي تفصل إنساناً عن آخر، وكنت في حاجة إلى المال للمضاربة فلم تتردد في تعويض كل ما ادخرت، ووثبت لهذه المجازفة راضية مطمئنة في غير مبالاة بالنتائج وقبلت أن تكون العملية باسمها، وأن يكون لي نصف الربح إذا نجحنا. وشاء الحظ الحسن أن ننجح ففرحت وصفّت تجارتها الأولى وقصرت عملها على المضاربة وتسليف النقود، وكان نصيبي من الربح كبيراً في العام الأول فاستطعت بقوة المال تنفيذ جميع رغباتي.

في صدري غلٌّ من الهيئة الاجتماعية بسبب حملات الصحف عليّ اعتباطاً لتلويث اسمي واعتقاد الناس صحة ما ينشر بدون وزنه. ولجوء الجميع إلى التندر بهذا الاسم مع الإسراف في تخيل حكايات ونوادر ينسبونها إليّ كما كانوا يفعلون بجحا، فدفعني هذا الغل إلى التنكر للرأي العام وللهيئة الاجتماعية ثم استخففت بالقوانين والأخلاق والعادات والتقاليد وتعمدت أن أعيش في حرية مطلقة بدون تقيد بنظم الاجتماع عن نفسي.

عرف رجال البوليس أنني كنت متنكراً بزي بائع حلوى وأقيم في حي بلدي، وكانت عقيدتهم أنهم بعد الاستيلاء على جميع ما كنت أملك تحولت إلى مفلس فلا يكون في مقدوري سوى المعيشة في جو المفلسين، فاتجه البحث عني في تلك النواحي بواسطة رجال البوليس السري العادي.

أما أنا فاخترت مسكني في فندق جزيرة بالاس أوتيل باسم المسيو بنفيه وصناعتي التجارة والوساطة بين مصانع أوروبا ومكتب قومسيون مدام فرنسين واخترت مسكناً ثانياً في فندق سافوي باسم البارون دي ماسون. وهو رجل ثري يهوى البحث عن الآثار ويضطره العمل للغياب أياماً كثيرة وللحضور بدون نظام معين.

وحضرت مسكناً ثالثاً لخليل صديقي بشارع درب الجماميز على مقربة من شارع محمد علي، وجعلت فيه ملجأ لي للاحتياط من الظروف الحرجة إذا طرأت مفاجأة، واخترت للخدمة في هذا البيت زنجية صماء لتعجز عن سماع أحاديثنا فلا تجد ما تتحدث به عنا. نظمت وسائل التنكر والوقاية على هذه الصورة وانطلقت في مغامراتي بدون مبالاة بجميع أهل الأرض، وفي عزمي أن أترك كل شخصية لي إذا تعرضت للشك فيها كما تركت شخصية عم دؤدؤ بدون أسف عليها.

كنت في مساء أحد الأيام في مينا هاوس ومعي خليل حداد في جلسة هادئة نشرب خمراً، فرأيت سيدة شابة حسناء فتانة مع ثلاثة من زملائها، امرأتين ورجل، فلفت جمالها نظري ونشط رغبتي كما لفت أنظار جميع العيون المبصرة، وكل حسن

يلفت النظر، ولكن قوة الجاذبية تلهب العاطفة وتجذب الفؤاد وتزلزل الأعصاب، وهكذا فعلت بي تلك الحسناء بتأثير جمالها النادر وبما توفر لها من فتنة وقوة الجاذبية..

بلغت بي قوة الاشتهاء حداً لم أعرفه من قبل ظننت أن رأسي يدور وأن قلبي ينخلع من الصدر ليطير إليها قلت لخليل:

«سأفقد عقلي إذا لم أنل هذه الحسناء».

قال: «لقد فقدت عقلك مرات فلم يبق لك ما تفقده».

قلت: «تحقَّق من محاسن هذه المرأة لتدرك أن لها ميزات لم تتوفر لغيرها».

قال: «كل حسناء تلهب العاطفة يظن الإنسان أنها أجمل نساء العالم، فليست العين ميزاناً صادقاً لأنواع الجمال لأن قوة الشوق تطفف الوزن».

قلت: «لقد تولاني الولع سواء أكان الباعث عليه صادقاً أو خادعاً، فليس لصدق التقدير أهمية إنما هي لنوع المؤثر وقوة التأثير وفعلهما في العاطفة، فليس يهمني شيء سوى الشعور بالواقع ونتيجته في نفسي».

قال: «أنت شهواني، تندفع بتأثير الاشتهاء إلى كل ما تظنه يرضي الرغبة الجامحة، فأنت كالورقة الجافة تطوحها الريح فتلقيها تارة في حديقة وتارة في الوحل».

قلت: «الهناء هو إمتاع النفس بما تشتهي. وهذا الهناء لا يوصف بعقل الغير، إنما بشعور الإنسان وحده وبارتياح النفس لما تشتهيه وتحصل عليه».

قال: «ستبدد حياتك في الاندفاع بقوة الاشتهاء المتجدد،

فكل حسن يبعثك على التمني، وكل حسناء تنشط الرغبة فيها فتكون الحماقة والجنون».

قلت: «إن حياتي مبددة بسبب جميع ظروفها، فليس لي ما أحرص عليه أو أحاول حمايته لاستبقائه، فمحاولة إمتاع النفس وهناء وقتي ربح أنعم به بدلاً من الخسارة المستمرة».

قال: «هذه فلسفة سفساط».

قلت: «المناقشة مضيعة للوقت، وأفضل منها محاولة الاهتداء إلى عنوان هذه الفتانة، والوسيلة سهلة، نقتفي أثرها إلى أن تستقر لتنام»..

وهكذا فعلنا.. فتنقلت ثم استقرت في جزيرة بالاس أوتيل حيث نزلت فصار من السهل تحقيق التعارف لأن السائحين والسائحات تجمع بينهم زيارة الآثار ومعالم القاهرة، وموائد الطعام، والسهرات العامة أو الخاصة.

كنت من نزلاء سافوي أوتيل باسم البارون دي ماسون، فعرفتني بهذا الاسم في دار الآثار عند زيارتها، توليت قيادة الجماعة هناك وجعلت أشرح لهم تاريخ الفراعنة عند كل مناسبة فأصغت إليَّ بانتباه وجعلت توجه إلي الأسئلة لاستكمال الشرح. واجتمعنا للعشاء في الكونتيننتال وكان موضوع السمر الحديث عن مصر، عن ماضيها ومجدها القديم وأسباب تأخرها. فلحظت الفرق الكبير بين معرفتي وبين ما يتحدث به غيري عن جهل أو عن معرفة سطحية حصل عليها من مطالعة ما كتبه عابرو البلاد.

وأعلنت عن ابتهاجها بمسامرتي وعن رغبتها بزيارة الآثار في صحبتي، وأظهرت استعدادي لخدمتها في ارتياح ومسرة، وحددنا موعداً لزيارة الأهرام، راجعت التاريخ قبل البدء بهذه

الزيارة، ورتبت الأمور بنظام يجعلنا ضمن عدد قليل من السائحين والسائحات لكي لا تبعدها الظروف عن ملازمتي، فزرنا الأهرام وفي غرفة الملك سمعت مني تاريخ خوفو باني الهرم الأكبر، وكل ما نسب إليه من المظالم في عملية نقل الأحجار وعملية البناء.

وأغريتها بامتطاء بعير لزيارة بقية المنطقة، وأخذت لها صوراً شتى في أوضاع مختلفة، جعلتها تدرك نشاطي في خدمتها بتصرفات تدل على التأدب وعلى الاحترام، فصارحتني ونحن نتناول طعام الغذاء بأنها سمعت مني محاضرة في التاريخ في جوف القبر بأسلوب أعجبت به وحملها على الإكبار، وقالت إنها لن تتمم سياحتها في مصر إلا إذا كنت معها طول الرحلة، لتعتمد عليَّ في شرح التاريخ على الآثار بدلاً من الاعتماد على المترجمين من الجهلة.

تم التعارف بيننا على أساس سليم يحمل الفريقين على تبادل الاحترام والمودة الهادئة، وتحولت من كبرياء الحسناء الفتانة إلى أخلاق صديقة ترتاح لأخلاق صديق دل على الإخلاص في جميع تصرفاته، ودل على حسن النية والبراءة من كل رغبة بالابتعاد عن كل حديث عاطفي وباختيار المعاني والألفاظ الواضحة. وزرنا المساجد التاريخية فشرحت لها تاريخ صاحب كل مسجد. وشرحت طويلاً حوادث التاريخ التي سبقت مقتل الحسين ابن الإمام علي، ومناشئ الخلاف والحروب التي قامت بين الخليفة الرابع ومعاوية ثم انتهيت إلى مأساة الحسين.

لم تكن المرأة في ذلك الزمن في مثل تبرج المرأة العصرية واستهتارها، كانت صورتها بدون مساحيق ولا ألوان تتألق في

ثيابها إنما في مظاهر تدل على الاحتشام. وكانت أحاديثها متزنة في حدود الأدب الكامل والوقار، تنبو أذنها عن الهنات والسخف، وتوجه الحديث على الدوام إلى النواحي الأدبية أو الاجتماعية أو السياسية، ولا تخلو مجالس السمر بعد العشاء من الفكاهات ولكنها تكون على الدوام من النوع الراقي المختار بعناية. وامتازت تلك الحسناء على غيرها بصفات كثيرة.

كانت أرملة شابة تدعى الكونتس سيجريس، ترملت ولم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها. ولدت في إسبانيا ونشأت فيها، فلما صارت في سن الصبا بدا حسنها ونضج جمالها وبلغ حد الإبهار، فاقترن بها الكونت سيجريس من رجال السلك الفرنسي، وكان من سلالة عائلة فرنسية نبيلة ورث ثروة ضخمة خلف شطراً كبيراً منها لزوجته بعد وفاته.

عاشت الكونتيس الفتانة في باريس ثلاثة أعوام في قصر زوجها فطارت شهرة حسنها على ألسنة الذين عرفوها، والحسن الباهر وقوة الجاذبية تجذب الأنظار والرغبات إلى المرأة فصارت أمنية عشاق المحاسن، ولكن المطامع وقفت عند حد الاشتهاء والتمني، لأن أخلاق تلك الصبية الإسبانية وآدابها وطهارتها حصنتها من الشهوات ومن شراك الذئاب. وزاد عدد الطامعين بها بعد وفاة الكونت زوجها.

ظنوا أنها لن تقوى على الحياة المنفردة، وأن الشباب والجمال والثروة ستكون من الأسباب التي تدفعها للتمتع بالحرية واستكمال ما ينقص المرأة بتأثير الغريزة، فحامت حولها الأماني والرغبات والشهوات والمحاولات فاستخفت بكل وسائل الإغراء، واحتفظت بحصانتها موفورة وبكرامتها سليمة وبسمعتها بريئة لم

تنل منها الظنون ولا الألسن الثرثارة. ولكن صيادي النساء تدفعهم قوة الاشتهاء إلى الدأب في المطاردة وتحين الفرص للانتهاز، فلما عقدت العزم على قضاء الشتاء في سياحة في مصر خفّ وراءها بعض هؤلاء الطامعين من ذوي الألقاب الضخمة.

كنت أرى بعضهم يقتفون أثرها في كل مكان تقصد إليه، يتوددون كمعارف ويعرضون خدماتهم كأصدقاء ويحاولون نيل رضاها بجميع الوسائل. عجبوا أشد العجب لارتياحها لزمالة البارون دي ماسون، وهو عجوز حرم من ضخامة الاسم والشهرة ومن الشباب ومن الثروة الكبيرة، شخصية تكاد تكون نكرة أو عادية ليست لها مميزات تغري الصبية الحسناء بالانحدار إليها.

وفات هؤلاء أن الكونتس كانت تعرف نواياهم وأغراضهم ومطامعهم فعقدت عزمها على التحصن منهم لا على الاطمئنان لهم، ووضعت الصدفة في طريقها البارون دي ماسون وقد وصل إلى الكهولة فحصنته من نزق الشباب وجموح الشوق وتنبه العاطفة الوثابة. ولحظت عليه التأدب والاتزان والوداعة والتواضع مع امتيازه عن غيره بالمعرفة والكياسة، فاطمأنت له في مجلسه في مصاحبته في زيارة آثار مصر ومعالم مدينة القاهرة.

لم تزن ذلك الكهل بميزان الناحية الجنسية، فلم يعد يهمها الشباب ولا اللقب ولا الثروة إنما قدرته بالصفات والأخلاق والأسباب التي تكون تعارفاً بريئاً وصداقة لا علاقة عاطفية أو غراماً. واطمئنان المرأة للصداقة البريئة يدفعها إلى الثقة بالصديق وإلى الارتياح لمجلسه، وعلى التوقان إليه في غيابه، وإلى تفضيله على غيره في حالات كثيرة، وهذه المؤثرات التي تلوح ناشئة

بباعث المودة قوى خفية تقلل من تحفظ المرأة وتزيد في متانة الرابطة التي تربطها بالصديق.

قلت إن الكونتس إسبانية بنشأتها وتعليمها، رأت المحبين في بلادها يدورون في الشوارع يناجون الخيال بالغناء بأصوات مرتفعة، ورأت العاشق يقف في جوف الليل قريباً من شرفة المحبوبة يلحن ألحان الغرام على آلة وترية ينادي هواه هواها وتناجي عاطفته عاطفتها. ورأت الأبطال من الشباب يصارعون الثيران، يغامرون بالحياة للتغلب على الثور ابتغاء الحصول على إعجاب المشاهدين وعلى تصفيقة من يد ناعمة مجهولة من الخلق مغمورة بين الآلاف من أمثالها.

فالإسبانية تحب الموسيقى والغناء والبطولة وتعجب بالمغامرات والمغامر الجريء، وتطالع القصص الخيالية التي تكتب عن هذا النوع، فهي من طراز غريب على الرجال في باريس لأنه يخالف ما ألفوه من عقلية المرأة الفرنسية وعاداتها، ولهذا السبب لم يفلح فرنسي في التأثير في عاطفة الحسناء الشاذة. والمرأة على الدوام وفي كل زمان ومكان لها عاطفة الأنثى وغريزتها.

إنما تقتضي الحكمة معرفة الوسائل التي تلفت نظرها وتنبه عاطفتها وتجردها من تحصنها، فتخلع الستر العازل عن طبيعتها وتعود لأنوثتها وتلبي نداء القلب في حنان واستسلام. لست أعني هنا المرأة المستهترة ولا المحترفة والتي تتاجر بأنوثتها، إنما أتحدث عن ذات المعرفة والثقافة والأدب والكمال، عن ذات الدروع التي تدفع عنها الأهواء والشراك، يظن العقل العادي أنها العصبية التي تذدّ فؤادها عن المؤثرات العاطفية.

وكان رأيي من فجر الشباب أنها ذات العاطفة المنتبهة

والإحساس الرقيق، وأنها أكثر شعوراً بالمؤثرات العاطفية من تاجرات العواطف، وأنها الطاهرة العفيفة التي تلبي نداء الغريزة في الحالات المشروعة، فإذا أحبت فإنها تفني في الحب وتنسى ملذات العالم ومبهجات الحياة جميعاً لتحصر عاطفتها وفؤادها وخيالها في دائرة الحب وحده، به تعيش، وله تحيا وفيه تموت. ولكن أين هو الرجل الذي يستحق هذه المرأة الطاهرة وذلك النوع من الحب الجارف العفيف؟

لم تبد مني نظرة عميقة في محاسن الكونتس الفاتنة، كنت أكتفي بلمحة خاطفة تصورها في ذهني ثم يخلو خيالي بهذه الصورة الذهنية ليتمتع بكل جزء من أجزاء الجمال، فتزيدها فتنة بالمحاسن في خفاء عن العيون والمشاعر الأجنبية. وكنت أسمع صوت الحسناء فيخيل إلي أنني أصغي لموسيقى روحية تصل إلي من عالم الأرواح، فأغمض عيني لأستوعب كل لفظ وكل عبارة ولأدرك كل معنى واضح أو مستور، ولم أحاول أبداً اغتنام أي فرصة سانحة لألمس أي جزء من أجزاء ذلك البدن، كانت له قدسيته في اعتباري وتقديري، فإذا لمست بإرادتها يدي المصافحة أو اعتمدت على ذراعي بحالة لا شعورية أبذل جهدي لأقوى على احتمال سيال الكهرباء.

ووثقت الحسناء من تصرفاتي أنني بريء من كل رغبة منفرة، متأدب في مجلسها، أحترمها عن تقدير لا للمداجاة والتغرير، فاطمأنت ودفعتها الثقة على التجرد من التكلف لتكون في صلتها بصديقها طبيعية صريحة راضية. وسمعتها مرات تعلن أن الصداقة لدى المرأة العاقلة أفضل من أية علاقة غيرها، وأن الزوج الذي يعجز عن اكتساب صداقة امرأته يفشل في حياته الزوجية.

١٣

لم تعم الأبصار في القاهرة عن هذا الحسن الجذاب، فوثب للاقتناص أفراد من أعظم الطبقات الاجتماعية، مكنتهم مراكزهم العالية وثرواتهم الكبيرة من التعرف إلى الكونتس، ومن دعوتها إلى رحلات خلوية أو إلى سهرات. وأدرك الجميع أن الحسناء كانت تعتذر عن قبول الدعوة إذا عرفت أن البارون دي ماسون صديقها غير مدعو معها، فلجأ الجميع لدعوة البارون ليضمنوا قبول الكونتس دعوة الداعي، ولم يسىء أي إنسان الظن برابطة الصداقة التي بين الأرملة الحسناء وصديقها الكهل، لأن أحداً لم يخطر بباله أن وراء الشعر الملون المرسل شباباً وقوة وفتوة، وأن خلف التجاعيد البادية والصدر الهادئ ناراً تلظّى من غرام مشتعل وعواطف مصهورة، وأماني وآمال وشراك منصوبة.

وكان أعظم المصريين ولعاً بالحسناء، سرحان باشا، عظيم له شباب وثروة ضخمة وجاه ونفوذ، فظن أن هذه المميزات تكفي لامتلاك فؤاد المرأة امتلاك العقار أو الخيل أو الرقيق ولجأ إلى وسائل الشرقيين في محاولة إغراء المرأة فدعاها إلى حفلة ساهرة

بقصره الضخم الفخم، ودعا معها خليطاً من عظماء المدينة والسفراء وعقيلاتهم وكبار السائحين والسائحات، وسخا في نفقات هذه الحفلة سخاء يصور كرمه وثروته وجاهه تصويراً يؤثر في العقول.

وصلت الكونتس إلى الحفلة مع الكهل البارون دي ماسون، فوجدت وكيل الباشا في انتظارها ليكون في خدمتها خاصة. وتحولت أنظار الحاضرين لناحية الإسبانية الفتانة بعضها للإعجاب بالحسن والشهرة، وأخرى للحسد بتأثير الحقد النسائي، جلست الكونتس في زاوية من القاعة الفسيحة في هدوء بدون مبالاة بالأنظار المسلطة عليها، وعلى حجرها كتاب صغير تعبث به يدها بدون قصد، فتنبه سعيد أفندي وكيل الباشا للكتاب فجعله وسيلة للتحدث إلىالكونتس فقال:

«يلوح لي أن لهذا الكتاب أهمية حتى حملته معك إلى هذه الحفلة؟»..

ولم ترتح الحسناء لهذه الملاحظة فعمدت إلى الاستخفاف بها فقالت:

«ليست لهذا الكتاب أية قيمة أو أهمية لأنه قصة بوليسية للتسلي وإضاعة الملل من الوقت».

فقال: «وهل للقصة الخيالية الموضوعة أهمية تقتضي الاهتمام بها حد حملها في حفلة؟».

فتضايقت الكونتس من ملاحظات تلك العقلية الشرقية على تصرفها، ولكنها، كظمت ما في نفسها وقالت:

«صوَّر المؤلف بطل هذه القصة مغامراً ظريفاً، وجعل جميع تصرفاته في كياسة وتأدب مع اعتماده على المنطق، فهو مغامر

جريء جداً، وأنا إسبانية ترتاح للبطولة والمغامرات التي تتم في هدوء وتعقل».

وقال الرجل: «هذه قصة خرافية وضع حوادثها قصصي، أما نحن هنا في مصر فلدينا مغامر جريء دوَّت شهرته بسبب غرابة حوادثه وأعاجيب حيله، ولولا أنه إنسان معروف، وله عائلة وماضٍ لتوهمنا أنه شخصية خرافية.. إنه يفلت من رجال البوليس ويهرب من السجون بوسائل تلوح كالسحر..».

قالت: «وأين هو الآن؟ يسرني أن أرى رجلاً من هذا النوع».

قال: «ليس له مكان معروف، ولا صورة ثابتة، ولا أثر يدل عليه، ولا زملاء يُهتدى بهم إليه.... يفاجئ الناس بحوادثه الغريبة الغامضة فتجري على الألسن وتبعث على الدهشة وعلى الإعجاب.... فهو حديث الناس في المقاهي والمجالس والأندية».

وقالت: «هل له نصيب من التعليم والثقافة؟».

قال: «نعم له نصيب وافر من المعرفة، وله حكمة مكتسبة من التجارب القاسية، ويشيع الذين عرفوه من قبل أن له مرحاً وكياسة وتصرفات نبيلة أو شاذة».

قالت: «ولماذا يعجز البوليس عن القبض عليه مادام رجلاً معروفاً للناس؟».

قال: «يعرف الناس للآن أن اسمه «حافظ نجيب» ولكن أحداً لم يحصل على صورته.. وحتى الصورة الطبيعية لا تفيد في الاهتداء إليه لأنه لا يظهر بها إطلاقاً ويبدلها بالتنكر كما يبدل غيره ثيابه»..

قالت: «زادني حديثك عن هذا المغامر شوقاً لرؤيته والتحدث إليه».

قال: «كلنا يتمنى أن يحقق رغبات الكونتس ولكن الوصول إلى معرفة ذلك الهارب المطارد عملية متعذرة لأنه محكوم عليه غيابياً بعشرات السنين، فهو نشدة البوليس على الدوام، وليس من المعقول أنه يكشف تنكره للناس، محاذرة من اهتداء حفَّاظ الأمن إلي».

قالت: «آسف كثيراً للظروف التي تمنع رؤيتي هذا المغامِر، لقد قرأنا أوصافاً لمغامرين خلقهم الخيال ولكنني لم أصادف طول حياتي مغامراً له حيز في الوجود والحياة».

قال: «إذا كنت راغبة في الاطلاع على قصص حوادثه ونوادره يكون من الميسور الحصول عليها إنها قصص موضوعة بعيدة عن الحقيقة، ولكنها تقرب الخيال من الواقع».

قالت: «وما هي قيمة المطالعة عن المغامرين؟.. أنا أرغب في رؤية مغامر جريء أثناء مغامرة من مغامراته».

قال: «مما يؤسف له أن اختفاء هذا الرجل عن العيون يجعل من المتعذر تحقيق رغبتك..».

وقال البارون دي ماسون: «هل يرضيك حقيقة رؤية هذا المغامر في مغامرة جريئة؟».

قالت: «نعم».

قال: «إذن سأعرفك بحافظ نجيب المغامر الذي يفر من العدالة ويطارده رجال البوليس في نشاط وحنق عليه».

فاستولى العجب على سعيد أفندي وقال:

«هذا بعيد الاحتمال يا سيدتي الكونتس! لأن الهارب من العدالة والمطاردة لا يكشف شخصيته الحقيقية لأي إنسان، أو يكون أحمق سفيهاً».

فنظرت الكونتس إلى البارون نظرة استفهام، كأنها تقول له:

«هل سمعت ما يقول هذا الرجل؟».

وقال البارون يوجه حديثه للكونتس:

«ليس يعنيني رأي الناس، إنما يعنيني ما أعد به، وقد وعدتك بتقديم حافظ نجيب إليك ليتشرف بالوجود في مجلسك وأنا مسؤول أمامك وحدك عن صحة ما قلت وعن تنفيذ وعدي».

وقال سعيد أفندي محتداً:

«الأقرب إلى المعقول أن جناب البارون عرف إنساناً عادياً سمَّى نفسه حافظ نجيب، وليس هو المغامر الذي يطارده رجال البوليس!».

وكررت الكونتس نظرتها إلى البارون، فقال:

«ليس من عادتي توكيد ما أعد به ولكن.. مادام لهذا المغامر أهميته في وزنك، وما دمت راغبة في رؤيته ومحادثته، وما دام هذا الأمر يلوح متعذراً في تقدير الناس، فإنني أتعاقد معك على تحقيق رغبتك بشرط أن تدفعي لي جزءاً من أتعابي سلفاً».

فضحكت الكونتس وقالت:

«وما هو مقدار العربون، وما نوعه؟»،

فقال: «العربون رغبة أرجو تحقيقها كما تريدين أنت تحقيق رغبة لك.. فهل يرضيك أن تشربي معي قدحاً نخب ذلك الذي ضيعنا الوقت في الحديث عنه بدون مناسبة؟».

فنهضت الكونتس من مجلسها وتأبطت ذراع البارون واتجها إلى المشرب المعد لتناول الشراب وطلب قدحين ولكن سعيد أفندي لم يشأ أن ينهزم وأن يتركهما براحة فلحقهما في المشرب يتسم في مرح وقال:

«يعجبني ظرف جناب البارون وقدرته على انتهاز الفرص!.... ها هو ذا قد نال الحظوة لدى الكونتيس ليشرب نخب مغامر من المستحيل أن يلقاه إذا أراد البر بوعده!»..

فظهر الامتعاض على وجه البارون وقال موجهاً حديثه للكونتس:

«يلوح لي أن هذا الرجل يتحداني ويكذب وعدي لك لقد كرر تكذيبه مرتين ليشككك في صدقي، وهذا تحدٍ لا يطاق، وتمنعني عزة نفسي من احتماله».

وضرب المنضدة بيده ضرباً خفيفاً كأنه يفكر ليقرر رأياً حاسماً، ثم قال للكونتس في جد وحزم:

«سأثبت لك صدقي، وسأنفذ وعدي لك وأقدم لك المغامر الجريء حافظ نجيب هنا في هذه الحفلة أمام جميع الحاضرين، إذا تنازلت وشربت معي قدحاً ثانياً.. نخب صاحبي»...

ولم تتردد الكونتس في إجابة طلب البارون فطلبت القدحين، كأنها عقدت العزم على الانتصار لصديقها نكاية في ذلك الثقيل الذي أزعجها بحماقته. وأحس سعيد أفندي أن جرأة البارون في الرد على تحديه بلغت أقصى حدود الجرأة وكبر عليه أن يلطم هذه اللطمة أمام الكونتس، فأدار لهما ظهره في صمت وخرج من المشرب في حنق واضح.

كان الرجل على علم بأن الحفلة هيئت خاصة لتكريم

الكونتس ولبهر نظرها بمظاهر الثروة الضخمة والجاه العظيم، وأن الباعث عليها رغبة الباشا في لفت نظر تلك الحسناء إليه، وثبت له من تصرف الكونتس مع البارون أن رابطة الصداقة بينهما قوية، وأنه سيكون عقبة في طريق الباشا، وعز عليه أن يستخف به البارون وهو ضيف صاحب القصر، فعقد العزم على الدس والوقيعة.

قصد إلى الباشا ونقل إليه ما شاء حتى نشط غضبه، فأسرع إلى المشرب في حنق حتى دنا من الصديقين، وجعل يحدق في وجه البارون يريد افتراسه بنظراته ثم قال:

«سمعت أن البارون دي ماسون وعد أن يحدث في قصري حدثاً».

فوقف المخاطب وأحنى رأسه للتحية وقال:

«كذبني سعيد أفندي مرات أمام هذه السيدة المحترمة، فمن واجبي أن أدافع عن كرامتي وأثبت له أن الرجل النبيل لا يكذب على السيدات».

فزاد غضب الباشا وقال:

«يلوح لي أن الخمر لها تأثير قوي في جو بلادنا».

وقال البارون في هدوء:

«نحن نشرب الخمر مع لبن الرضاع، فليس لها تأثير فينا».

فانفجر غضب الباشا في وضوح وقال مهدداً:

«اسمع يا بارون... لم يخلق للآن الرجل الذي يجرؤ على دخول بيتي بدون إرادتي».

وقال البارون في برود:

«هل يسمح صاحب هذا القصر لضيفه بالكلام في التليفون؟».

وأدرك الباشا أن البارون يتحداه فكاد يتميز من الغيظ، ثم أشار إلى واحد من أعوانه فدنا منه، فقال له:

«أرشد البارون دي ماسون إلى مكان التليفون».

وترك المكان في غضب واضح وفريق من المدعوين في دهشة من سماع هذه المشادة وسار رجل الباشا أمام البارون وتبعه هذا في هدوء كأن شيئاً لم يحدث...

ونهضت الكونتس في كبر واستياء بسبب هذا الطارئ المزعج، وبحثت عن صديقها حتى اهتدت إليه وهو عائد إلى القاعة الفسيحة فتأبطت ذراعه وقالت له:

«سيظن هؤلاء الناس اعتباطاً أنك السبب في هذه المشادة، وأنك تجاوزت حدود اللياقة والتأدب الواجبين في الحفلات، أما وأنا أعرف الحقيقة وأقرر أن سعيد أفندي هو الذي سبب هذه المزعجات بحماقة فإنني أشترك معك في الدفاع عن كرامتك وأتحدى الحاضرين جميعاً»..

فارتاح البارون لهذا الإخلاص الواضح، وضغط على يد الكونتس ضغطة خفيفة دلالة على الشكر، ثم لزم الصمت فقالت:

«وأنا أقترح عليك أن نترك الحفلة لصاحبها ونغادر هذا القصر احتجاجاً على الاعتداء على كرامتك».

فقال البارون: «ولكن هذا التصرف يمكّن الباشا ووكيله من الاعتقاد بأن انصرافي قبل تنفيذ وعدي عجز عن تنفيذ ما وعدت به».

قالت: «وماذا يهمنا من رأي الباشا وجماعته؟».

قال: «يهمنا أن يعلم أن جاهه ونفوذه وقوة بأسه لا تمنع رجلاً نبيلاً من تنفيذ وعده لأجمل سيدة في العالم».

قالت: «ولكنني أحلُّك من هذا الوعد، لنتفادى العواقب فليس من التعقل أن تعرض صاحبك الهارب المطارد لخطر الاعتداء على حياته بسببي لتحقيق رغبة طائشة مني».

قال: «ولكنني تقيدت بوعدي مع غيرك.. وصاحبي لا يخشى الخطر على حياته، ويشرفه أن يقتحم هذا القصر ويظهر أمام هؤلاء الحانقين عليه وعلينا بدون تهيب ولا محاذرة سيتحدى القوة إجابة لرغبتك».

قالت: «الحقيقة أنني مضطربة».

قال: «اطمئني فإنك إلى جانب رجل».

لم يسكت غضب الباشا لأنه اعتبر إجابات البارون تحدياً لعظمته أمام الكونتس، وعقد العزم على الشر، فطلب من البوليس قوة يستعين بها في القبض على حافظ نجيب إذا صح أنه يجرؤ على الحضور إلى القصر. وزّع رجال البوليس لحراسة منافذ القصر من الخارج ، ووُضِع فريق من البوليس السري على أبواب ونوافذ غرفة المائدة، ونبه على رئيسهم بالقبض على المغامر إذا ظهر، وبالاستعداد لطرد البارون بالقوة إنما في سرعة تمنعه من إحداث ضجة تعكر مزاج ضيوفه..

ارتاح الباشا لهذه الوسائل واطمأن لأنه سيسحق كبرياء البارون الوقح أمام صديقته الكونتس الحمقاء، واستقر بعيداً عن ضيوفه ينتظر الوقت المناسب للمعركة. وقد حان هذا الوقت بعد انتظار طويل، دخل المدعوون غرفة المائدة الفسيحة الفخمة،

ودخلت معهم الكونتس ممسكة بيد صديقها الكهل ثم أجلسته إلى جانبها ونظراتها القاسية تتحدى جميع الأنظار المسلطة عليها تعلنهم أنها تستخف بالعالم كله.

ووقف الباشا عند رأس المائدة وقد شبَّك ذراعيه على صدره، وجعل يتفرس في وجه البارون بنظرات تدل على الغضب وعلى التحدي، ثم قال:

«نحن في انتظار تشريف صاحبك طريد العدالة يا بارون!»..

فلم يكترث الرجل لغضب الباشا وتحديه ولكنه انتصب واقفاً في بطء ونظر إلى خصمه نظرة طويلة عميقة وهو يبتسم، ثم قال في هدوء:

«يسرني ألا يطول انتظاركم لصديقي طريد العدالة.. إنما من حقكم عليّ أن أمهد لظهوره بينكم بكلمة ضرورية تضع الأمور في مواضعها الحقيقية، لأن كثيرين من الحاضرين لم يعرفوا أسباب هذه الحادثة الطارئة، ومن العدل أن يعرفوها على حقيقتها..».

«لست مشاغباً في حفلة يتحتم فيها التأدب ومراعاة التقاليد وواجبات الضيف لمضيفه العظيم. لقد غمرنا الباشا بكرمه المشهور وشرفني بدعوتي لهذه الحفلة، ومن واجبي كسائح الاعتراف بما سمعناه وعرفناه من سمو أخلاق مضيفنا العظيم الشأن».

«ويؤلمني طروء هذه المشادة بين أحد رجاله وبيني بدون مناسبة، ولكنني كنت المعتدى عليَّ، كذبني سعيد أفندي مرات أمام صاحبة العصمة الكونتس سيجريس، ومن واجبي الاحتفاظ بكرامتي في كل زمان ومكان، فألجأني هذا الواجب إلى الدفاع عن هذه الكرامة».

«أردت أن أثبت لحضرة الكونتس أن الرجل النبيل لا يكذب على السيدات، وأردت أن يعرف سعيد أفندي أنني لا أعد وعداً إلا إذا كنت قادراً على تنفيذه، وأردت أن يرى بعينيه تحقيق وعدي، هذا هو الذي وقع فعلاً وسبب الاعتداء الثاني على أخلاقي، فقد ظن الكثيرون أنني تجاوزت حدود اللياقة والأدب بسبب الإفراط في شرب الخمر، وهذا الشرح يكفي لرد اعتباري».

«لقد صدق سعادة الباشا حين قال لم يخلق للآن الرجل الذي يجرؤ على دخول قصره بدون إرادته... وأنا أؤكد هذه الحقيقة وأعلنها، وهكذا صديقي حافظ نجيب طريد العدالة يعرف ما لهذا القصر من الاحترام والإجلال، ولا يسمح لنفسه بدخوله بدون إذن من صاحبه العظيم، فحين وعدت الكونتس بتقديم صديقي لها كنت على يقين من وجوده في هذه الحفلة بدعوة أرسلت إليه، وكان غرضي أن يتم التعارف بين الكونتس وبينه في الخفاء وبدون ضجة فاضحة لولا تكذيبي مرات، الحادث الذي أدى إلى غضب سعادة الباشا».

وقال الباشا في غضب:

«هذه كذبة جديدة يا بارون، فنحن لا ندعو المجرمين إلى حفلاتنا!»..

فأحنى البارون رأسه دلالة على الاحترام رغم اللطمة وقال:

«لم ترسل الدعوة إلى صاحبي باسم حافظ نجيب لأنه لا يحمل أبداً هذا الاسم تخلى عنه، إنما دعي إلى هذه الحفلة بالاسم المحترم الذي اختاره لنفسه فشرفه وحمل الغير على احترامه».

فقال الباشا مهدداً:

«كفي سفسطة. فجميع الحاضرين هنا شخصيات معروفة محترمة، ليس بينهم صاحبك المجرم، ويلوح لي أنك سترغمني على طردك من بيتي!.».

فابتسم البارون وقال:

«يلوح لي أن غضب الباشا يجعله يتعجل الأمور.. والحلم وسعة الصدر يحمدان في مثل هذا الظرف الشاذ، لقد وعدت الكونتس سيجريس بأن أقدم لها صديقي هنا في هذا القصر رغم جميع الأخطار التي تهدده، وسأنفذ هذا الوعد أمام الجميع عسى أن تكون غرابة الحادث تسلية لهم وقلت لسعادة الباشا إن صاحبي دعي إلى هذه الحفلة، فقيل لي إنني أكذب وها أنا أقدم للجميع الدليل القاطع على صدقي».

وضع البارون يده في جيبه واخرج منه بطاقة الدعوة، ثم هزها بيده أمام الجميع وقال:

«لم أكذب حين قلت إن حافظ نجيب طريد العدالة دُعي إلى هذه الحفلة بالاسم الذي يتنكر به، وهذه هي بطاقة الدعوة التي أرسلت إليه من هذا القصر.. باسم البارون دي ماسون».

دوّى هذا الاسم دوياً في آذان الجميع، فوجئوا به فظهرت عليهم الدهشة وتولاهم الفزع فابتعدوا عن المغامر الجريء، توهموا أنه بعد فضح شخصيته سيحدث حدثاً... أما الكونتس سيجريس فصرخت صرخة عالية ووثبت من مكانها في اضطراب، لا لتبتعد عن المغامر بتأثير الخوف كما فعل غيرها من الرجال والسيدات إنما لتطوق الرجل بذراعها وهي تقول:

«هذا كثير جداً.. هذه جرأة جنونية».

وقال: «رغبت يا سيدتي المحترمة في رؤية حافظ نجيب فحققت رغبتك بسبب إجلالي لك.. رغبت في رؤية المغامر المشهور فإذا قدمته لك كرجل ترينه إنساناً عادياً.. جاكتة وبنطلون كغيره من خلق الله لا يميزه عنهم شيء.. فتعمدت أن تعرفي حافظ في مغامرة تمثل أمام عينك.. إكراماً لك.. كل كلمة قيلت يا سيدتي، وكل تصرف تمّ في هذه الليلة كان بتدبير يوجه الظروف والناس إلى الهدف الذي أريده، فكل ما رأيت وسمعت كان تمهيداً لكشف شخصيتي أمامك في هذا الموقف الحرج»..

قالت وهي تتنهد:

«هذا عجيب جداً وبديع ومدهش ولكنني أخشى عليك أن يقتلوك».

وخانتها قوتها فألقت رأسها على كتفي.. وهمست في أذني همسة لم أحتمل وقعها في نفسي فكدت أجثو عند قدميها للشكر...

استولت الدهشة على «سرحان باشا» كما استولت على غيره، وزلزله الغضب، ولكنه تمالك أعصابه وقال لرئيس البوليس السري:

«أدِّ الواجب».

وصاح الرجل يأمرني بالذهاب إليه ولم أحتمل هذا التصرف فثرت عليه، قلت:

«ما شاء الله!!!.. أراك تناديني بصيغة الأمر كأنك القوي

صاحب السلطان وكأني الضعيف الذي يخضع لك ويرتجف أمامك تذكر وضعي ووضعك لقد ضللتك أعواماً وجعلتك تتخبط في الظلام فعجزت عن الاهتداء إلي. فكنت أنا القوي وأنت الضعيف العاجز.. وضللتك ورجالك الليلة، ودخلت هذا القصر أمام عيون الجميع وهي كفيفة لا تبصر، فكنت الضعيف العاجز وكنت القوي».

«والآن بعد أن كشفت شخصيتي أمام رجالك المسلحين توهمت أنني وقعت في الشرك وتعذر خلاصي فتظاهرت بالقوة وتحولت إلى بطل يصدر أوامره إلي!!!.. سأقابل إذن غطرستك بمثلها.. وأنذر الجميع الآن أنني لن أكون مسؤولاً عما سيحدث هنا إذا لم تنفذ رغبتي كما أريد.. لن أحاول الهرب.. ولكني أريد أن يوضع القيد الحديدي في يدي أمام الكونتس سيجريس... أو..».

فقال الباشا: «لقد ضحى هذا الرجل تضحية غالية... فيحسن أن تنفذ رغبته».

فاقترب رئيس البوليس السري مني ووضع القيد في يدي ودموع الحسناء تجري غزيرة على خديها من الإشفاق... فرفعت يداي أمامها وقلت:

«انظري يا سيدتي هذه القيود الحديدية... إنها كل ما في استطاعة القوة أن تفعله بي.. ولكنني أستخف بهذه القيود الثقيلة.. وفي مقدوري التخلص منها ومن السجن الذي سألقى فيه وأحضر لمقابلتك جهاراً نهاراً ظاهراً للعيون إذا رغبت في هذه المقابلة».

فصرخت الكونتس من الفرح وقالت:

«هل هذا صحيح؟».

قلت: «إنني لا أكذب على سيدة ألم يكفك البرهان؟»

قالت: «إذن تعال لمقابلتي حين تستطيع».

قلت: «لا يحسن أن تحددي بنفسك الوقت المناسب، إنما أرجو أن تدركي مقدار ولعي بالحصول على موعد قريب».

قالت: «هل يناسب ظروفك أن يكون الوعد غداً في جزيرة بالاس أوتيل لشرب الشاي؟».

قلت: «شكراً لك».

وتحولت لناحية المدعوين والمدعوات وقلت:

«اشهدوا علي أنني أعد الكونتس سيجريس بالذهاب إليها في جزيرة بالاس أوتيل في الساعة الرابعة بعد الظهر لأتشرف بشرب الشاي على مائدتها.. مهما كانت العقبات والحوائل».

فدوّت الغرفة بتصفيق حاد من السيدات وسمعت صوتا ناعماً يقول:

«برافو برافو إنه حقاً مرح وظريف وجريء..».

فانحنيت أمام الكونتس أحييها تحية الوداع، ثم قلت لرجال البوليس:

«ها أنا ذا تحت أمركم».

فخرجنا من غرفة المائدة وأبعدنا عنها، وبدأ رجال البوليس يتولون عملهم المألوف فدفعوني دفعاً، وجروني جراً هذا يمسك بذراعي، وآخر يقبض على مؤخر عنقي، وثالث يقبض على ثوبي، وليس هذا بعجب لأنهم يؤدون الواجب ويدلون على النشاط وعلى الحذر من إفلات الشيطان منهم..

في الفناء الداخلي بسراي محافظة مصر وفي الجهة الشرقية منه يقوم البناء الذي يسمى سجن الاستئناف، ويسجن به المتهمون الذين لم يفصل في قضاياهم حتى يتم الفصل فيها، ثم يرسل الذين صدرت ضدهم أحكام إلى السجون الأخرى.

خرجنا من قصر سرحان باشا في عربتين وصلنا إلى هذا السجن عند منتصف الليل، وجاء مأمور المحافظة الذي عليه النوبة فانضم إلى الحراس الذين حملوني إلى السجن، وفتح الباب الخارجي في ضجة، ثم فتح باب العنبر فصرنا في جوف السجن، واختاروا لي أول زنزانة على يمين المدخل وهي خاصة بالمحكوم عليهم بالإعدام ودفعوني دفعاً فيها ثم أغلقوا الباب.

يحرس هذا البناء من الداخل سجان واحد مسلح، يسهر طول الليل، ويمر كل نصف ساعة على مفاتيح الساعة المثبتة في الحيطان في كل طابق ليؤشر بالمفتاح على الساعة الليلية التي يحملها، فيحدث المفتاح ثقوباً في الورقة المثبتة على وجه الساعة ليثبت أنه قضى الليل متيقظاً لم ينم ولم يغفل عن المرور على كل طابق. ويحرس فناء السجن خارج العنبر سجان آخر يقضي الليل على مثال نظام الحارس الداخلي. وينام في كشك وراء باب السجن سجان برتبة جاويش يراقب حراس الليل من وقت لآخر.

استدعى مأمور المحافظة سجان العنبر واسمه أحمد أبو طاحون، وقال له:

«ستحرس الليلة باب هذه الزنزانة لأن المسجون الذي بها شيطان».

فصحت من داخل الزنزانة:

«يا جاويش أحمد.. احترس جداً لأنني سأهرب الليلة، وإذا هربت فإنك ستحاكم، فيجب أن يختموا لك باب الزنزانة بالشمع الأحمر لتسلمهم الأختام سليمة فتنجو من المحاكمة».

وسمع السجان هذه النصيحة ورفض استلام الحراسة على باب الزنزانة إلا إذا ختمت بالشمع، فأرغمتهم الظروف على تنفيذ رغبة السجان، فأحضر الجاويش النوبتجي «محمود توفيق» الشمع وقطعة من القماش وشمعها في الباب وصدغه وختم بختم مأمور المحافظ النوبتجي.

وانتقل الجماعة إلى فناء السجن وأمروا السجان الثاني بالبقاء تحت النافذة طول الليل لحراستها محاذرة من هروبي. فقال السجان:

«النافذة محروسة بقضبان من الحديد السميك وعليها شبكة ضيقة الفتحات لا تمكّن ذبابة من الخروج منها فمن المستحيل أن يفر منها المسجون».

وانتهت عملية وضعي في السجن فخرج الضابط ومعه رئيس البوليس وأغلقوا باب السجن وهم في اطمئنان على المسجون الخطير أنه صار في قبضة الحكومة مع استحالة الإفلات من السجن الذي وضع فيه تحت الحراسة القوية.

يفتح السجن في الصباح رئيس السجانين وتجيء معه قوة السجن من السجانين لاستلام العمل ولكن مأمور المحافظة رافق الباشسجان لفتح السجن ولتسليمه المسجون (حافظ نجيب) الذي تولى وضعه في الزنزانة ليلاً، وسأل المأمور الجاويش محمود:

«تمام يا جاويش؟».

فقال: «تمام يا أفندم لم يحدث شيء».

وسأل السجان الحارس تحت نافذة الزنزانة نفس السؤال، فكانت الإجابة تبعث على الاطمئنان: «تمام يا أفندم الحائط سليم، وقضبان النافذة سليمة، والشبكة السلك سليمة، وفتحوا باب العنبر ووقفوا أمام باب الزنزانة فقال الحارس أحمد أبو طاحون:

«تمام يا أفندم باب الزنزانة سليم، والأختام الشمع سليمة في مكانها ولم يحدث شيء».

فاقترب المأمور من الأختام وتحقّق من سلامتها ثم أمر الباشسجان بفتح باب الزنزانة ليسلم المسجون، ففتح الرجل الباب ودخل منه المأمور ثم صاح في دهشة واضطراب:

«الزنزانة فاضية! فين المسجون يا سجان؟»

واستولت الدهشة بل الذهول على أحمد أبو طاحون وجعل يفحص الزنزانة بنظره وهو يضرب كفاً بكف، ثم قال:

«وأنا مالي أنا لم أكن داخل الزنزانة مع المسجون.. كنت خارج الباب وأحرسه وأحرس الأختام.. والحائط سليم والباب سليم والأختام سلمتها لكم سليمة.. فأنا غير مسؤول عن هروب المسجون».

وقال المأمور: «إزاي خرج المسجون من الزنزانة مع بقاء حيطانها سليمة وسقفها وأرضها سليمة! كيف تمكن من الهروب وهو لم يخرج لا من النافذة ولا من الباب!.. دي حاجة تجنن تمام!».

ثم صرخ في السجان:

«فين المسجون يا راجل؟».

فقال الباشسجان: «السجان غير مسؤول عن هروب المسجون لأنه لم يخرج من الباب الذي يحرسه، أما الوسيلة التي مكنته من الهرب فالنيابة هي التي تحقق في الموضوع لتهتدي إليها..».

فصاح المأمور: «ما شاء الله!.. كل واحد عاوز يتخلص من المسؤولية! أنا وضعت المسجون في هذه الزنزانة وتركتها في حراسة السجانين، فكيف هرب المسجون منهم لازم أحاكم الجميع».

فقال الباشسجان: «لا فائدة يا بيه من هذه المناقشة الآن، لأن الحادثة خطيرة ويجب تبليغ الجهات المختصة في الحال للمبادرة بعمل الإجراءات السريعة».

فاتجه المأمور في ارتباك إلى مكان آلة التليفون واتصل بحكمدار بوليس مصر. الحكمدار:

«ألو.. المأمور أنا المأمور النبوتجي بالمحافظة يا سعادة الباشا».

الحكمدار: «نعم عايز إيه؟».

المأمور: «وضعنا حافظ نجيب أمس ليلاً في الزنزانة بسجن الاستئناف، وختمتها بالشمع الأحمر بختمي، ووضعت حراسة أمام الباب وتحت النافذة.. ولما حضرت إلى السجن في هذا الصباح لتسليم المسجون الباشسجان وجدت حيطان الزنزانة سليمة والنافذة سليمة والباب والأختام الموضوعة عليه سليمة. ولم نجد المسجون في الزنزانة».

الحكمدار: «أنت مجنون يا أفندم! أمال إزاي هرب المسجون؟ منين خرج؟».

المأمور: «أنا مش قادر أفهم إزاي هرب، وعلشان كده قلت إنها حاجة تجنن».

الحكمدار: «بلغ الحكاية دي لرئيس البوليس السري.. الشمس لم تشرق للآن... ابعتوا عساكر تحاصر جزيرة بالاس أوتيل من ناحية البر، امنعوا الخروج والدخول فيها، أرسلوا زوارق تحاصر اللوكاندة من ناحية النهر فتشوا اللوكاندة.. فتشوا كل الغرف، تحققوا من شخصية كل إنسان فيها ونفذوا بسرعة هذه الأوامر..».

ونفذت أوامر الحكمدار بالسرعة التي أرادها، فحوصرت جميع جهات الفندق بالجنود والضباط وحضر رئيس البوليس السري الإفرنجي مع رجاله المختارين وبدأوا تفتيش اللوكاندة. أيقظوا الخدم واستدعوا مدير اللوكاندة واطلعوا على البيانات الخاصة بأسماء النازلين فيها وأرقام حجراتهم، ثم فتشوا الحجرات واحدة بعد الثانية، ليتحققوا من شخصية المقيم بها.

ودقوا باب غرفة الكونتس سيجريس فاستيقظت من النوم وفتحت الباب، فرأت أمامها مدير الفندق ومعه رئيس البوليس السري الذي رأته في الليل في قصر سرحان باشا حين وضع القيد في يدي صديقها أمامها، فظهر على وجهها الغضب وسألت في جفاء:

«ماذا تريدون؟»

قال رئيس البوليس:

«نستأذن من حضرة الكونتس لتفتيش الغرفة!».

فقالت: «لماذا ؟ وبأي حق تفعلون هذا؟».

قال: «ليس لنا الحق طبعاً إلا بإذن منك، ونحن نريد تفتيش جميع حجرات اللوكاندة لأن حافظ نجيب هرب من السجن، ولأنه وعدك بالحضور لشرب الشاي معك، ولهذا السبب نريد أن نتحقق من عدم وجوده في الفندق للاختباء»..

وظهر الارتياح على وجه الحسناء، وقالت:

«وهل تظن أنني أسمح لرجل بالاختباء في غرفتي ؟ هل من الكياسة في هذا البلد أن يقال لسيدة محترمة مثل هذا القول؟».

فقال رئيس البوليس: «من حقك يا سيدتي هذه الملاحظة، ولكننا ننفذ أوامر إدارية بسبب حادث جنائي، فالإجراءات لا تراعي الكياسة.. ولا تميز بين الرجل والسيدة لأن الأمر يشمل الجميع».

فقالت: «ادخل.. فتش الغرفة كما تشاء بإذني لتطمئنوا لعدم وجود الهارب عندي».

وتم التفتيش، وانحنى رئيس البوليس أمام السيدة احتراماً لها لينصرف، فقالت تشيعه بالتهكم عليه:

«ولكن هروب المسجون الخطير معناه أنه سيبر بوعده وسيحضر ليشرب الشاي معي... أليس هذا رأيكم؟».

فقال: «لقد عودنا الشيطان الجرأة في مغامراته ومفاجآته الطريفة، ولست أظن أنه يعجز عن الحضور في الوعد الذي حدده.. ولكننا نؤدي الواجب في حدود مقدرتنا أكرر معذرتي يا سيدتي وسيكون رجالي هنا طول النهار، وهم على استعداد لخدمتك».

وصدق الرجل في إنذاره لأنه عيّن باباً واحداً للدخول منه

وللخروج، وترك عليه حراساً على رأسهم ضابط إيطالي ومعهم موظف من إدارة الفندق يدلهم على شخصيات السائحين والسائحات الذين يخرجون من الفندق، أما الغريب الذي يجيء للوكاندة فيوقفه البوليس ليتحقق من شخصيته.

استمر الحال على هذا النظام طول النهار، وتضايقت إدارة الفندق من هذه التصرفات فقال المدير لرئيس البوليس:

«أتمنى عدم مغامرة ذلك الرجل بالحضور لشرب الشاي، لأن المصادمة التي تحدث بين البوليس وبينه تكون مزعجة تبعث نزلاء اللوكاندة على الاستياء وعلى التذمر، لأن المكان يجب أن يدوم فيه الهدوء التام».

وقال رئيس البوليس: «كلنا تحت رحمة الظروف الطارئة والمفاجآت».

فقال المدير: «من المحقق أن لذلك الشيطان عيوناً ترى الحصار المضروب على اللوكاندة وقوات الجنود المستعدة للقبض عليه إذا اجترأ على الحضور، فإذا كان له عقل سليم فإنه يمنعه من الحضور حباً في السلامة».

فابتسم رئيس البوليس وقال: «ليس من عادة الرجل الاصطدام بالقوة مع رجال البوليس، لأنه يلجأ على الدوام إلى الحيلة في جميع مغامراته، فلا خوف إذن من مصادمات بالقوة، إنما نحن نرجح أنه سيحضر حفلة الشاي متنكراً».

١٤

حان موعد الشاي.. وجلست الكونتس بين أصدقائها المدعوين وكانوا عدداً قليلاً من الرجال والسيدات، وجميعهم من النازلين في الفندق المعروفين من إدارته حق المعرفة، ولم يحضر معهم أي غريب.. فاطمأن مدير الفندق بعد انتهاء الحفلة لأن المغامر لم يزعج أحداً بحضوره، ودار الحديث على المائدة عن الحوادث التي وقعت في قصر سرحان باشا، وجرأة البارون دي ماسون عندما تحدى الجميع وكشف تنكره وأعلن عن نفسه، وقالت إحدى السائحات:

«كان المغامر في صورة بطل خيالي ظريف جداً وهو يلتمس منك تحديد موعد لشرب الشاي معك.. وقد دفعني الإعجاب به إلى التصفيق بحرارة، وقد أشهد الحاضرين على قوله الدعوة وعلى وعده بالحضور لشرب الشاي... ولكنه لم يحضر».

وقال آخر: «لقد وعد الرجل بالتخلص من السجن والحراسة الشديدة وقد فعل بسرعة، والذي في مقدوره الهروب من السجن بالوصف الذي سمعناه لا يعجز عن الحضور لشرب الشاي».

وقالت الكونتس: «ألا ترون أن الفندق محصور برجال البوليس طول النهار، وأننا الآن تحت مراقبتهم، فليس من العقل أن يعرض الإنسان نفسه لخطر القبض عليه أو قتله، لقد سرني كل السرور عدم حضوره»...

وقال أحد سكان الفندق المقيمين به ويدعى الميسو بنفيه:

«لم أكن موجوداً في حفلة سرحان باشا أمس، وأسفت كثيراً لعدم رؤية ما حدث من المغامر الجريء في تلك السهرة... لقد وصفت الصحف حادثة هروبه بأنها غريبة لا يتصورها العقل»..

وقال آخر: «سمعنا من بعض ضباط البوليس أنهم سجنوه في غرفة بابها مصفح بالحديد، وعلى نافذتها قضبان سميكة من الحديد، وأنهم ختموا الباب بالشمع، وحرسوا الباب والنافذة، ولكنه تمكن من الخروج من هذا القبر الضيق بدون أن يحدث كسراً أو نقباً لا في الحيطان ولا في الباب... ولا تزال وسيلة هروبه مجهولة تبعث على الدهشة والحيرة والارتباك»...

ونهض الجميع عن مائدة الشاي وتفرقوا، وصعدت الكونتس درجات السلم تريد البلوغ إلى غرفتها لاستبدال ثوب العصر بغيره للمساء، وكان يصعد إلى جانبها المسيو بنفيه فقال:

«أليس من الغريب أن ذلك المغامر الجريء يعجز عن الحضور لشرب الشاي كما وعدك؟».

قالت: «لا لا مكان للومه على عدم الحضور لأن استبقاء السلامة في هذه الظروف أفضل من مغامرة جديدة لا فائدة منها، ولكنني على يقين من أنه سيحاول مقابلتي».

قال: «ومن أين هذا اليقين؟».

فارتبكت الكونتس قليلاً من هذه الملاحظة الدقيقة، ثم قالت:

«يقول المنطق إن الرجل المطارد الذي يتحدى القوة ويكشف تنكره ويعرض نفسه للقبض عليه لأنني رغبت في رؤية مغامرة، لم يفعل ذلك كله ولم يعرض نفسه للخطر إلا تحت تأثير دافع قوي.. وهذا الدافع هو الذي قواه على الهروب من السجن، وهو الذي سيدفعه لمحاولة مقابلتي في ظرف مناسب لا يكون فيه خطر عليه».

فابتسم بنفيه وقال: «هذا منطق سليم يصح أن يرتكز عليه اليقين فأنا من رأيك تماماً يا سيدتي، بل أزيد على يقينك يقيناً آخر إذا سمحت بالإصغاء إلي».

قالت: «تكلم».

قال: «يقول المنطق إن الذي كشف تنكره لإرضاء رغبتك، والذي تحدى القوة أمامك، والذي طلب منك موعداً لشرب الشاي وفي يديه قيد الحديد، والذي هرب من السجن وهو تحت الحراسة القوية، لا يعجز إطلاقاً عن البر بوعده والمجيء إلى مائدتك ليشرب الشاي إلى جانبك».

قالت: «ولكنه لم يحضر».

قال: «أنت إذن غير منطقية وضعيفة الثقة بحافظ نجيب صديقك.. قلت إن قوة نفسية هي التي دفعته للمخاطرة بحياته ليرضي رغبتك، فهل تعمل عمل هذه القوة العاطفية الدافعة؟ هل زالت أسباب وجودها؟ انزلي إلى أعماق صدرك ووجهي لنفسك هذه الأسئلة؟».

فقالت: «ولكنه لم يحضر يا صاحبي وأنا أبرر عدم حضوره بدون الشك في رغبته أو في قدرته».

فقال: «الذي يثبته المنطق لا يصح أن تنفيه الحواس، وأنا أؤكد عكس ما شعرت به بعض حواسك: بصرك وسمعك... وأجزم بأن صديقك حافظ كان معنا على مائدة الشاي».

فقالت: «هذا مستحيل.. لأنني أعرف الذين كانوا معنا وليس حافظ أحدهم».

فقال: «إذن سأقدم لك الدليل الحاسم.. فقومي باستبدال ثوبك وقابليني في غرفة التدخين لأن حافظ يريد مقابلتك.. وقد حمّلني هذه الرسالة لك».

فقالت: «أنت تمزح يا رجل!».

فقال: «لا أظن رجلاً نبيلاً يسمح لنفسه بالمزاح مع سيدة في مثل الحالة النفسية التي أنت فيها، سأنتظرك في غرفة التدخين».

كان الاثنان على مقربة من غرفة بنفيه فانحنى لها يحييها ودخل غرفته، وأسرعت الكونتس إلى غرفتها لتبدل ثوبها وهي في اضطراب نفسي وارتباك، ولكن فؤادها كان يشعر بالارتياح والاطمئنان.

نزلت الى غرفة التدخين هادئة متزنة كعادتها فوجدت بنفيه جالساً يدخن في غليونه، فوجهت إليه نظرة طويلة للاستفهام، فأجاب عليها بدق الجرس يستدعي الخادم، وأمره بإعداد عربة ثم قال للكونتس:

«ليس هذا المكان صالحاً للتحدث فيه ولا مقابلة من يتربص له رجال البوليس، والأسرار لا تذاع بين الجدران لأن وراءها الآذان، إنما الاطمئنان يكون في الفضاء الواسع على الأرض المنبسطة المكشوفة فتعالي نبعد عن هذا المكان.. لأنه يريد أن يراك».

فنهضت الحسناء مطاوعة وركبت العربة إلى جانب زميلها، فانطلقت إلى الجزيرة بطيئة كما أمر بنفيه لأن الغرض هو التنزه وإمتاع النظر بمشاهد الطبيعة في جو هادئ ساكن.. واختار الرجل المكان الذي يصلح للتخلص من العربة ومن آذان السائق، وسار في الشارع الفسيح إلى جانب الكونتس ساكتاً هادئاً كأنه تحت تأثير سحر الطبيعة ذات المشاهد البديعة.. وقطعت الحسناء هذا السكون وقالت:

«أين ينتظرنا حافظ نجيب؟»

قال: «أنت معه الآن»..

قالت: «هذا مستحيل!.. فأنت المسيو بنفيه التاجر المعروف.. وليس لك صورته ولا بدنه ولا صوته».

قال: «وهل كنتم تعرفون أن البارون دي ماسون هو حافظ نجيب قبل أن يكشف تنكره؟ وهل كانت صورته وصوته يماثلان صورة وصوت ذلك المغامر؟ فلماذا لا يختفي وراء اسم بنفيه وبدنه كما اختفي من قبل وراء أسماء كثيرة مزيفة؟»".

فقالت: «ولكن».

فقال: «هل كنت تريدين أن يحضر حافظ حفلة الشاي في صورة أجنبي غريب ليلفت إليه أنظار رجال البوليس؟ أليست صورة بنفيه واسمه المزيف من البواعث التي طمأنت مدير الفندق ورجل البوليس السري؟».

قالت: «ولكن كيف تريد مني أن أعتقد أنك هو.. أين الدليل الذي يمنع تأثير هذه الفوارق؟».

فقال: «أنت تذكرين طبعاً كل ما حدث حين كشف البارون

دي ماسون تنكره في قصر سرحان باشا».

قالت: «نعم».

فقال: «لقد حوطت حافظ بذراعيك.. وسقط رأسك على كتفه».

قالت: «نعم».

فقال: «لم أكن معكم في تلك الحفلة.. ولم يسمع أحد ما همست به في أذن حافظ نجيب».

قالت: «نعم».

قال قلت في همسك: «دافع عن حياتك.. لأنني أحبك».

فارتجف جسم الحسناء وقبضت يديها على كتف الرجل، وحققت النظر في وجهه لحظة ثم ارتمت على صدره في عناق طويل وقالت:

«هذه حقاً مفاجأة!.. هل أنا في يقظة ؟ هل أمكن أن تهرب من السجن وأن تحضر لمقابلتي؟ هذا غريب وبديع ومدهش! من المتعذر أن يبلغ الخيال القصصي إلى مثل هذه المغامرات!..».

تنبهت عاطفة المرأة بتأثير الارتياح أولاً للأخلاق الرضية، وتحوَّل الارتياح إلى اطمئنان ثم إلى صداقة ومودة وائتلاف، وجاءت المغامرة الجريئة في قصر سرحان باشا فحملتها على الإعجاب بالمغامر، وعلى الخوف على حياته وتمني نجاته وتحولت كل هذه المؤثرات النفسية بقوة الدفع إلى إعجاب ثم إلى عطف شديد فحب طارئ...

لم تر الحسناء وجه حافظ نجيب الحقيقي لأنه مستور وراء وسائل التنكر والشعور المستعارة والظلال التي تدل على الكهولة،

فلم تكن البواعث على العطف والحب الشباب والجمال والفتوة، إنما كانت من نوع آخر أقوى من الأول: كانت ارتياحاً واطمئناناً وصداقة ومودة، ثم إعجاباً بالجراءة وبالشجاعة في المآزق الحرجة والمقدرة على الإفلات من الأخطار. قدَّرت المرأة الأخلاق والمعرفة والثقافة ودلائل الرجولة، وزاد في قيمة التقدير تضحية المقامر بحريته وحياته لإرضاء رغبة من رغباتها فقدرت الصفات لا الموصوف، والرجولة لا الرجل....

لم أترك لها فرصة للاحتراس من الشرك المنصوبة لاقتناص عاطفتها واحتلال فؤادها، ولم أتح لها أسباباً تمكّن العقل من التفكير والفحص، جعلتها تقع تحت مؤثرات نفسية عنيفة متوالية جمعتها لتصب مباشرة على عاطفتها لا على عقلها، فتنبهت مفاجأة واندفعت في السبيل الذي وجهتها إليه فاستسلمت، قالت:

«أريد أن يكتمل إعجابي بمعرفة الوسيلة التي تمكنت بها من الهروب من السجن، يلوح لي أنها عجيبة لها غموض السحر وروعة الخيال!»،

قلت: «ليس من عادتي الارتجال في تصرفاتي ولا ترك الوسائل للصدف، فكل تصرف وكل حركة يتحتم أن تكون بعد درس وتدبير وترتيب يؤدي إلى النتيجة التي أهدف إليها، وقد دبرت عملية الهروب من شتى الأماكن التي يجوز سجني فيها قبل موعد الحفلة وقد قضت الظروف بوضعي في سجن الاستئناف بعد القبض عليَّ في قصر سرحان باشا، لأنه أمتن استحكاماً من غيره، والحراسة فيه أدق منها في أي سجن آخر كما يتوهمون».

«البوليس يطاردني في نشاط مستمر فيجوز أن يوفق للقبض علي مصادفة أو بسبب خطأ في تصرفاتي فيجب أن أدبر وسائل الهرب قبل وضعي في السجن وعزلي عن العالم، ومن هذه الوسائل أن يكون لي في سجن الاستئناف مثلاً واحد من السجانين أملكه وأعتمد عليه وأنا مطمئن لأمانته وإطاعته العمياء والسجان الذي اخترته وامتلكته في هذا السجن جاويش يدعى محمود توفيق».

«خرج في ظهر النهار الذي تكون الحفلة في مسائه في وقت الاستراحة ليتناول طعام الغداء، وسار في ميدان باب الخلق خالي البال من كل مفاجأة، ولكن واحداً من أعواني يدعى خليل حداد كان في إثره حتى بلغ مدخل شارع درب الجماميز، وهناك لحق به وقال له: «يا جاويش محمود أنا رسول إليك من الثعلب»،فظهر على الرجل الاضطراب من تأثير المباغتة، فقال خليل: «إذا لم تصدقني فها هي بطاقته الشخصية»،وقدم له قطعة مستديرة من النحاس عليها رسم ثعلب فارتبك الجاويش وتلاشت قوة إرادته وأظهر الخضوع التام، وقال: «أنا تحت أمرك يا سيدي»،فقاده خليل إلى مسكن متواضع في إحدى حارات ذلك الشارع، وقدم له طعاماً للغداء، وعرض عليه الأوامر الصادرة إليه لتنفيذها في حالة القبض علي وحبسي في سجن الاستئناف».

«من هذه الأوامر أن يكون الجاوش النوبتجي في تلك الليلة، وهذا يستدعي أن يتفق مع الجاويش الذي عليه النوبة لمبادلته بأية تضحية ومنها أن الضرورة تحتم عليه أن يكون معه مفتاح التأمين، ومفاتيح السجن تسحب جميعها من السجانين في آخر النهار

ولتحفظ بعيداً عن أيدي حراس الليل، وهذا المفتاح سيصل إليه بعد انصراف موظفي السجن وغلق الباب الخارجي».

«ومنها وسيلة إخراج المسجون من الزنزانة بدون شعور أي إنسان بهذه العملية وبدون إدراك الوسيلة. وشرحها له شرحاً وافياً حتى لا يخطئ في التنفيذ».

«وألقي القبض عليَّ في حفلة القصر وحبسوني في زنزانة ختم بابها بالشمع وجعلوا أمامه حارساً يحرسه، ووضعوا في فناء السجن الداخلي حارساً ثانياً يحرس نافذة غرفتي التي تطل عليه، وهذا هو كل ما في مقدورهم عمله في السجن للحراسة. مفتاح التأمين يفتح أبواب حجرات جميع السجون المصرية عدا الباب الخارجي للسجون، وهذا المفتاح يكون عادة مع مأمور السجن، ومع وكيل السجن، وآخر مع رئيس السجانين، وينتقل في بعض الظروف إلى أيدي غيرهم من السجانين، فمن السهل جداً أخذ بصمته على الشمع وعمل مفاتيح من نوعه تؤدي عمله».

«فأرسلنا واحداً منها إلىالجاويش محمود داخل رغيف ومعه طعام العشاء وكان يعلم بأن العجوة التي مع الطعام في جزء منها مخدر».

«من عمل الجاويش في الليل المرور على السجان الحارس في مركزه وفحص ساعته وتنشيطه على السهر، وهكذا فعل وكان ظريفاً مع كل سجان، فأعطاه قطعة من العجوة فأكلها، وأثَّر المخدر في الوقت المحدد له، ولما تحقق الجاويش من السجان الأول أنه مخدَّر علم له ساعته بالمفتاح المثبت في الحائط ليثبت أنه كان متيقظاً طول الليل، وفتح باب العنبر بمفتاح التأمين الذي أرسلته إليه وكان السجان الثاني أحمد أبو طاحون مخدراً كزميله فعلم

الجاويش ساعته، وأوقد مصباح الكؤول وسخن فوق اللهب موسى حلاقة له يد، ثم كشط الختم بشمعه من صدغ الباب وفتح باب الزنزانة بمفتاح التأمين فخرجت من الحبس، وأغلقنا الباب وسخنًا الشمع تحت الختم ولصقناه في مكانه الأول».

«وفي الفناء الكبير داخل العنبر باب عادي يؤدي إلى فناء محكمة الاستئناف ففتحه الجاويش وخرجت منه وأغلقه خلفي، واختبأت في تجويف فتحة الباب محاذرة من عين الحارس الواقف في كشك خشبي على سطح السور الواصل بين بناء المحافظة وبناء السجن، وهذا المركز يمكن الحارس من مراقبة فناء السجن الداخلي وفناء محكمة الاستئناف. كان طول هذا السور قريبا من ٣٠ متراً، وكذلك عرض فناء دار المحكمة، تربصت أنتظر الفرصة التي تسمح لي باجتياز الفناء لأصل إلى الباب الأخير من الناحية الشرقية لبناء المحكمة، فهناك عدة درجات وحولها سياح من الطوب والجبس (درابزين)»، فإذا تمكنت من الصعود إلى نهايته أصير قريباً جداً من أعلى السور الذي يطل على شارع درب سعادة، وفي الجهة الشرقية من السجن سور يمتد من الناحية القبلية من حدود بناء السجن إلى أول بناء المحكمة، وطوله يبلغ تقريباً من ١٥٠ متراً، وعليه حارس مسلح كشكه في الناحية القبلية من السور ولكنه لا يبصر الجزء الذي سأثب منه إلى هذا السور وأهبط منه إلى الشارع».

«انتظرت طويلاً حتى تحرك الحارس فوق السور الأول فقطعه إلى نهايته، ثم أدار ظهره لناحيتي ليعود أدراجه فاغتنمت هذه الفرصة وقطعت فناء المحكمة وارتقيت الدرجات والحاجز والسور ووثبت الشارع درب سعادة.. عملية بسيطة سهلة أديتها في خفة القرد».

«كنت أرتدي الفراك بدون معطف ولا قبعة لأنني تركتهما في قصر سرحان باشا، فسرت متئداً حتى وصلت إلى دار الكتب بشارع محمد علي، وركبت عربة إلى درب الجماميز إلى المسكن الذي يقيم به خليل حداد، وهناك تتكون في الصورة المعروفة للمسيو بنفيه وأخذت معطفاً وقبعة وعدت إلى الطريق، ثم ركبت عربة وصلت بها إلى فندق جزيرة بالاس أوتيل، فسرت إلى غرفتي ونمت».

«وتحقَّق رئيس البوليس من شخصيتي، وعرف من مدير الفندق أنني زبون دائم معروف وموثوق من أخلاقي، فحمتني هذه الاحتياطات من الشك في أمري وطمأنت رجال البوليس، وانصرف هؤلاء لحراسه الفندق من الخارج والتحقق من شخصيات من يدخله أو يخرج منه».

«ومن الملح التي تستحق الذكر أن مدير اللوكاندة دعا رئيس البوليس السري لتناول الغداء على مائدته الواقعة بجواري، وتبادلنا الحديث أثناء تناول الطعام وكان يدور حول حافظ نجيب والتساؤل عن جرأته: هل تدفعه للمخاطرة بنفسه لحضور حفلة الشاي أو يؤثر السلامة على الوفاء بوعده لسيدة؟».

قالت: «كتبت الصحف عن حادثة الهروب أنها عجيبة تلوح للعقول أنها تمت بواسطة السحر، وشرحك يجعلها بسيطة وممكنة!».

قلت: «تصرفات كثيرة تعجز العقول عن إدراك أسبابها أو وسائلها فتتوهم أنها مدهشة أو في حكم المعجزة، والحقيقة أنها على مثال هروبي المدبر وسائلها طبيعية أو سهلة في مقدور كل عقل سليم اللجوء إليها وعملها، وكل غرض يسهل البلوغ إليه

إذا رتبت التصرفات التي تؤدي إليه، وإذا نفَّذت الوسائل بعناية ودقة وجرأة».

وضع البوليس رقابة دقيقة على الكونتس سيجريس لاعتقاده أن حافظ نجيب يهيم بها، وقد غامر تلك المغامرات الخطرة للفت نظرها إليه وحملها على الإعجاب به ومن المحقق أن الولع بتلك الحسناء سيدفعه لمحاولة الاتصال بها متنكراً في شخصية جديدة، فإذا وضعت الكونتس تحت المراقبة يمكنه معرفة كل من يتصل بها، فإذا كانت الشخصية جديدة وغير معروفة توضع أيضاً تحت المراقبة للتحقق منها ومعرفة حقيقتها.

وعرف رئيس البوليس السري من المراقبين أن الكونتس تلازم المسيو بنفيه وأنه يتودد إليها بصورة ظاهرة تدل على ولعه بها، وهي لا تنفر منه وتخلو به في غرفة التدخين أو في حديقة الفندق للمسامرة في عزلة عن الناس، ولكن المسيو بنفيه رجل معروف في الفندق من زمان بعيد لا يجوز الشك فيه، إنما من الحكمة الاعتماد عليه كعاشق لمعاونة البوليس في مراقبة كل من يحاول الاتصال بالكونتس، لأن أحسن المراقبين للمرأة الرجل الذي يحبها، لأن الغيرة تدفعه للشك في كل غريب يدنو منها.

ولم يتردد رئيس البوليس في تنفيذ خطته فقابل المسيو بنفيه والتمس منه معاونة العدالة في الاهتداء إلى الشقي، وصارحه بأنه: سيحاول الاتصال بالكونتس سيحاول إيهامها بأنه واقع في غرامها ليستهويها ثم يسلبها جواهرها على الأقل.

في عصر ذلك النهار انفرد المسيو بنفيه بالحسناء في حديقة الفندق وحدثها في هذا الموضوع حديثاً طويلاً. فقالت:

«إذن كفَّ البوليس عن مراقبتي وتركها لك؟».

فقلت: «نعم.. وأكد لي رئيس البوليس أن حافظ نجيب خطر عليك سيحتال باسم الحب ليسلب مالك وجواهرك».

قالت وهي تبتسم: «وهل هذا صحيح؟».

فقلت: «أنا على يقين من الشقي أنه يطمع في أكثر من المال والجواهر يطمع في الحصول عليك أنت».

قالت: «وهل في مقدوره تحقيق هذه الرغبة؟».

فقلت: «ليس الأمر مستحيلاً».

فقالت: «سنرى كيف يحاول إتمام هذه الحيلة.. ولكن ألا ترى أن اعتماد البوليس عليك من أوضح الأدلة على غباء أولئك الناس؟».

فقلت: «فكرة واحدة خاطئة تضيع من القائد الأعظم معركة، وفكرة مراقبتك بواسطة منافس حافظ نجيب في الحب فكرة صائبة ومنطقية، ولكن الخطأ كل الخطأ جاء من الثقة بالمسيو بنفيه».

فقالت: «لقد مللت الإقامة في القاهرة، وسأعيِّن وقت رحيلي عنها».

قلت: «الأهم من هذا تعيين وقت زواجنا».

فقالت: «لقد صارحتك بأنني أعجب بك.. بل أحبك، ولكن الاقتران بك متعذر لأن البوليس مستمر في مطاردتك، وهذه المطاردة تنغص العيش وتمنع الهدوء والاستقرار في حياة زوجية هادئة».

فقلت: «هل هذه هي العقبة المنفردة التي تعطل الاقتران؟».

فقالت: «نعم».

فقلت: «وإذا كف البوليس عن المطاردة بسبب زوال أسبابها، هل تقبلين الاقتران بحافظ نجيب؟».

فقالت: «بدون تردُّد.. بل أجد هناء في ذلك الزواج».

فقلت: «هل تقسمين على هذا؟».

فقالت: «أقسم».

فقلت: «لقد تفاهمنا وتم الاتفاق بيننا، وكل رجائي منك الانتظار أياما قبل مغادرة مصر، وسأغيب عن هذه الأيام في رحلة إلى الأقصر وأسوان لأن أعصابي مزلزلة بتأثير ما توالى عليَّ من المؤثرات العنيفة».

١٥

من الشخصيات التي تنكرت بها في ذلك الحين نفسه شخصية الشيخ «صالح عبد الجواد»، وهو قروي متحضر يقيم في مسكن متواضع بشارع الأنتيكخانة، تتولى الخدمة فيه جارية صماء تدعى حليمة، ولا يزوره في هذا البيت سوى خليل حداد، لجأ حافظ إلى هذا المسكن بعد مقابلته الأخيرة للكونتس واستدعى صديقه خليل، فجرت بينهما هذه المحادثة.

قال الشيخ: «جد طارئ هام يستدعي مغامرة جديدة».

قال خليل: «كثرت المغامرات الكثيرة بسبب هذه الكونتس، وليس في الدنيا امرأة تساوي شيئاً من هذه الجهود التي تبذل».

فقال الشيخ: «الذي يلعب الورق يتلهى، والذي يلعب البلياردو يتسلى، فكذلك المغامرات تسلية العاطل».

قال خليل: «وما نوع المغامرة الجديدة ؟ هل تريد السفر إلى المريخ؟».

قال الشيخ: «لا إنما أريد رحلة قصيرة إلى القبر فقط».

قال خليل: «وهل عزمت على الانتحار؟».

قال الشيخ: «الضعيف الجبان هو الذي يدفعه اليأس إلى الانتحار، أما أنا سوف أكتفي بالموت».

قال خليل: «يلوح لي أنك أصبت بالجنون!».

قال الشيخ: «سأموت، وسأدفن، ثم أقوم من الموت وأخرج من القبر لكي أتزوج الإسبانية الحسناء».

قال خليل: «ولماذا تبتغي الموت مادمت تريد العودة إلى الحياة؟».

قال الشيخ: «لأن الموت هو السبيل المفرد الذي يزيل العقبة التي تمنع الزواج».

فقال خليل: «أؤكد لك أنك مصاب الجنون».

قال الشيخ: «أؤكد لك أنك غبي لا تقبل الكونتس الاقتران برجل يطارده البوليس والموت يسقط الأحكام الغيابية التي صدرت ضدي، ويسقط القضايا التي لم يتم الفصل فيها، فيكف البوليس عن مطاردتي، فأعيش بين الناس في حياة جديدة هادئة وأحمل اسماً جديداً ليس له علاقة ماضية بالناس».

قال خليل: «خيال بديع!.. ولكن كيف تموت؟ وكيف تعود إلى الحياة؟ وكيف تتمكن من الخروج من القبر؟».

قال الشيخ: «يتم هذا كله بوسائل بسيطة سهلة ولكنها تلوح للأغبياء عملاً سحرياً».

قال خليل: «أمن أجل امرأة وغرام طارئ زائل تغامر هذه المغامرة الجنونية؟».

قال الشيخ: «لكل شيء ثمن يدفعه الراغب فيه، فكذلك

الهناء بالحصول على الحسناء التي أشتهيها لها ثمن يتحتم أن أدفعه».

قال خليل: «قلت لك إن هذا التصرف جنون، والزمن كفيل بنسيان هذه المرأة كما نسيت كثيرات غيرها من قبل».

قال الشيخ: «سأكون مريضاً من هذه اللحظة، وسألازم الفراش إلى أن تتم عملية الموت».

ومرض الشيخ صالح فعلاً واستدعي الطبيب المختار لمعالجته، فقرر بعد الفحص أن القلب ضعيف، ثم كتب الدواء وأمر بالراحة التامة. واستدعى الطبيب مرات بعد ذلك فلاحظ في بعضها تحسناً في صحة المريض، ولاحظ بعد ذلك هبوطاً في القلب ثم استمرار في الهبوط، فبدَّل الدواء، واستمرت هذه المخادعة أياماً حتى حار الرجل في أمر هذا القلب الذي يقوى ثم يضعف رغم العلاج.

وكان الطبيب يظهر الاحترام لخليل لأنه يدفع له الأجور بسخاء يدل على إسراف ولما ظهر الاستياء على الدكتور في الزيارة الأخيرة سأله خليل بحرارة ورجا منه أن يصارحه بالحقيقة فقال الطبيب:

«الحالة اليوم سيئة جداً.. فالقلب ضعيف جداً.. ولمرضه مفاجآت.. وربما يموت المريض بعد ساعات».

فقال خليل: «هل أستدعي أهله من البلد؟».

فقال الطبيب: «يحسن استدعاؤهم لأن الأمل في الشفاء ضعيف».

أدى الرجل الغافل واجبه ثم انصرف، ولكنه لم يترك لشأنه

سيق في تلك الليلة لسهرة حمراء شرب فيه الخمر وأفرط في الشرب ولم يشعر بالملل من طول السهرة لأن الحفلة كانت عامرة بذوات الحسن من الجنس الناعم والدلال المغري، فقضى السهرة حتى انبثق ضوء الفجر وآذن الليل بالانصراف، وكذلك أهل هذا المجلس.

وصل الطبيب إلى بيته سكران من الراح ومن مفاتن الملاح، فقيل له في البيت إن خليل أفندي حضر في الليل مرتين لاستدعائه لعيادة الشيخ صالح، فلم يعبأ السكران بالمريض لأنه مخمور فقد الاتزان وصار في حاجة إلى النوم والراحة فآوى إلى الفراش والشمس ترسل أشعتها على الكون. وفي هذه الظروف التي قست على أعصاب الطبيب وعلى عقله حضر خليل أفندي وبلغه نبأ حضوره مرتين بالليل للسؤال عنه، ثم نبأ بوفاة الشيخ...

كان الطبيب مقتنعاً بأن المرض في القلب، وأن الشفاء متعذر فصار من رأيه أن الموت نتيجة طبيعية لتلك الحال فكتب شهادة الوفاة التي تمكن من دفن الميت، وهو تحت تأثير اعتقاده. وتحت تأثير الخمر والسهر الطويل والضعف والرغبة القوية في النوم، وتيسرت الأمور وثبت موت الشيخ صالح وبدأت عملية تجهيزه للدفن، تمت هذه العملية بمباشرة خليل أفندي حتى وضعت الجثة في النعش وسارت الجنازة في طريقها إلى القبر.

ولكن الغرض الأساسي لم يتم لأن المراد إثبات موت حافظ نجيب لا الشيخ صالح عبد الجواد، فنبأت شخصية مجهولة محافظة مصر بموت حافظ وهو متنكر باسم الشيخ صالح وبأن الجثة ستدفن في مقبرة بالمجاورين واهتمت المحافظة بهذا النبأ السار وأرسلت بعض رجالها إلى المقبرة قبل وصول الجنازة

البطيئة السير، وكشفوا وجه الميت قبل دفنه وتحققوا منه فاقتنعوا بأنه الشقي حافظ الذي يطاردونه، وثبت لهم الوفاة بأمر الصحة الذي يأذن بالدفن، وتمّ دفن الجثة أمامهم في القبر الذي أعد لها من قبل، وانصرف المشيعون الذين جمعوا للسير في الجنازة.

وبلغ هؤلاء الشهود المحافظة بموت الشقي ودفنه مع إتمام جميع الإجراءات القانونية التي تفرضها مصلحة الصحة. ولقي هذا الموت ارتياحاً من جميع الجهات الحكومية، وتمموا واجبهم بإثبات هذا الموت في النشرة الإدارية لإعلان الجميع بالكف عن البحث عن حافظ نجيب بسبب وفاته.

يقتضي الحال وصف المقبرة التي هيئت لدفن حافظ نجيب لأنها لعبت دوراً هاماً في إثبات موته ودفنه ثم العودة إلى الحياة وإلى ظهر الأرض، ومكنته من الحرية ومن السعي لتحقيق غرضه. المقبرة فناء به قبران متجاوران وغرفة للانتظار ودورة مياه، ويحيط بالجميع سور مرتفع له باب من قضبان الحديد يوصل من الشارع إلى داخل المقبرة. تمّ بناء هذه المقبرة بسرعة وتم إعداد القبر الأول لاستقبال الميت الذي رجح أهله أنه في خطر الموت، ولم يتم بناء القبر الثاني الملاصق له إنما بقيت فيه وعلى حافته مواد البناء لإتمام القبر في الوقت المناسب.

ودفنت جثة الميت في القبر الأول بعد عصر يوم الخميس وانصرف المشيعون، أما رجال البوليس فقصدوا إلى المسكن الذي كان مأوى لهذا الشقي المطارد ففتشوه فلم يهتدوا إلى شيء يهمهم، وسألوا الجارية الصماء في محضر تحقيق فثبت فيه أنها لا تعرف شيئاً عن سيدها سوى أن اسمه الشيخ صالح، وأنها لم تلاحظ شيئاً سوى غيابه الطويل عن البيت، وأنه لزم البيت

والفراش في النهاية بسبب مرضه، وأن الطبيب كان يعالجه، وكانت الحال أحيانا تقتضي استدعاءه وبقي على تلك الحال حتى مات ثم نقلوه للدفن. وكان هذا المحضر خاتمة إجراءات البوليس.

أما الميت فبقي في القبر جثة لا حراك بها، وكان حافظ تحت تأثير مخدر قوي جعله في جمود يشبه جمود الموت، وزال تأثير المخدر بعد ساعات وأخذت الأعضاء تعود إلى الحركة الظاهرة، تحرك الذراع أولاً وغيّر وضعه ثم استقر وسكن وقتاً غير قصير. وجعلت الأعضاء الأخرى تتحرك من حين إلى حين، تحرك القدم وسكن، وتحرك الذراع ثانياً واستقر، وتحرك الرأس ليستريح في وضع جديد، فساعدت هذه الحركات على نشاط الدورة الدموية ثم على التنبه قليلاً قليلاً وعلى التنفس بصوت يسمع.

وتحرك جسم الميت كله بعد ذلك، انقلب إلى اليمين واستقر برهة، وتحوَّل إلى اليسار واستراح، ثم زادت حركة الذراعين، وأخيراً حاول الجسم النهوض فبذل جهداً حتى تمكن من الجلوس، ولكنه لم يتحمل هذه الحركة العنيفة فسقط ثانياً على الأرض برهة طويلة، ولما زاد نشاط الحركة الدموية عادت للجسم بعض قوته فاستطاع الجلوس إنما في إعياء شديد وحرك حافظ ذراعيه حركة اختبارية كأنه يدفع عنه سبب هذا الضعف، فبدأ عقله يستيقظ وينبه الشعور.

أحس صداعاً شديداً فقبض على رأسه بيديه وقال: «ما هذا الصداع الشديد؟ وقال بعد برهة: وأين أنا؟ وتنبهت الذاكرة قليلاً ثم قال: «تذكرت.. أنا في القبر... لقد دفنوني... ولكن هل نفذ خليل جميع توصياتي؟»... ومد يده إلى جانبه يبحث

فاهتدت اليد إلى الشيء الذي يبحث عنه فتناوله وضغط على زر فيه فسطع النور من مصباح كهربائي صغير. ومد يده إلى الناحية الثانية وبحث فوجد زجاجة صغيرة تركت إلى جانبه، فتناولها ورفع سدادتها بأسنانه. ثم رفعها إلى فمه وصب فيه ما فيها من السائل المنبه. أخطأ حافظ في هذه العملية.

كان من الواجب أن يتناول المنبه جرعات على مرات بينها فترات راحة، فيسبب له الخطأ سرعة في الدورة الدموية ودواراً لم يحتمله فسقط على الأرض وسكن عليها وقتاً غير قصير حتى زالت قوة المؤثر فتلاشى الدوار. ونهض فجلس برهة يستجمع شتات أفكاره، ثم انتصب واقفاً ومشى في قبره خطوات حتى وصل إلى ركن فيه فركع وجعل يزيح عنه الرمل حتى كشف عن صندوق من الخشب كان مخبأ في فجوة في الأرض، فرفع غطاء الصندوق وأخرج منه مطرقة متوسطة الحجم وأجنة[1] وكيساً فيه ثوب كامل.

واتجه إلى الحائط الذي يفصل بين قبره والقبر المجاور الذي لم يتم بناؤه، فثقب فيه بالمطرقة والأجنة ثقباً جعل يوسعه إلى الحد الذي يمكّنه من الخروج منه، وهكذا تمكن من مبارحة جوف القبر والوصول إلى فناء المقبرة، ثم استتر بجانب السور بعيداً إلى جانب الباب وارتدى ثيابه، وكان في الثوب مفتاح يفتح باب المقبرة ففتحه وخرج، ثم أغلقه بالمفتاح وسار في الطريق المؤدي إلى المدينة وصوت المؤذن ينبّه الناس لصلاة الفجر.

طال غياب حافظ وانقطع عن الاتصال بالكونتس، فرحلت

---

(١) قطعة من الحديد يتم استخدامها بالدقّ على مؤخرتها للهدم أو إحداث فجوة في جدار.

إلى الوجه القبلي وزارت آثاره وقضت أياماً للتسلية في الأقصر وأسوان ثم عادت إلى القاهرة وسألت إدارة فندق الجزيرة عن المسيو دي بنفيه فقيل لها إنه لا يزال غائباً في أعماله كعاداته. وعلمت في المساء أثناء سهرة مع بعض أصدقائها نبأ موت حافظ نجيب ودفنه وما نشرته الصحف عن هذا الحادث، ولم تصدق ما سمعته أولاً ثم ثبتت لها الوفاة حين قرأت الخبر في جريدة عرضها عليها أحد الحاضرين.

ولم يكن في مقدور الحسناء إظهار حقيقة شعورها أمام الحاضرين فكتمت نفسها. وسمعت ما قيل عن ذلك المغامر بعد موته صاغية إلى الأقوال بدون الاشتراك في الحديث، ولما انتهت السهرة صعدت إلى غرفتها منقبضة الصدر بسبب ذلك الحادث فخلعت ثوبها واستبدلته بقميص النوم وذهبت إلى الفراش لتنام، ورفعت الغطاء قبل الاستلقاء على السرير فرأت تحته كتاباً مغلقاً كتب إليها بعنوانها وخبئ في ذلك المكان الذي لن تصل إليه يد إنسان إلا في ضحى النهار الثاني بعد مغادرتها الغرفة.

فضت الغلاف في قلق فوجدت به ورقة بها هذه العبارة:

«سيدتي المحترمة:

من زمن غير قصير تتوالى أمامك مفاجآت متنوعة، وموت حافظ نجيب ليس آخرها... فإذا خرجت في الساعة العاشرة صباحاً وحدك وقصدت إلى مينا هاوس منفردة تجدين في انتظارك مفاجأة جديدة قد تكون سارة».

وكررت الحسناء مطالعة الكتاب ثم قالت:

«لقد ثبت موت حافظ.. فمن الذي بمقدوره أن يباغتني بمفاجأة سارة؟»

وهزت كتفيها استخفافاً بالأمر. ثم رقدت في سريرها وأطفأت النور واستسلمت للتفكير حتى غلبها النوم.. ولكنها تذكرت الخطاب في الصباح عقب تنبهها من النوم، وترددت طويلاً قبل الاستقرار على رأي ثم استراحت لفكرة الذهاب إلى مينا هاوس، وعللت هذه الرغبة بأنها لن تخسر شيئاً بالذهاب إلى ذلك الموعد فإذا لم تجد المفاجأة التي يتحدث عنها المرسل المجهول يكون هذا الشوط نزهة تروح بها عن النفس.

قضت شطراً من الصباح في الاستحمام وتناول الفطور، ثم ارتدت ثياباً وقصدت منفردة إلى فندق مينا هاوس في غير اكتراث، ولكنها فوجئت في بهو المكان برؤية المسيو بنفيه، فتولتها الدهشة وارتجفت. ورآها الرجل لأنه كان في الانتظار فنهض من مكانه ونشط لمقابلتها وهو يبتسم، ثم حيّاها ومد يده لمصافحتها، فقالت:

«بنفيه... هذا مستحيل !... لقد مات ودفن، ونشرت الصحف نبأ الموت، فكيف يمكن أن يظهر أمامي المسيو بنفيه!».

فقال: «هل أزعجتك هذه المفاجأة».

فقالت: «أنا مضطربة... ومن حقي.. أن أضطرب.. هل أنت حقيقة بنفيه؟».

فقال: «طبعاً أنا بنفيه.. عبدك».

فقالت: «والذي نشرته الصحف؟»

قال: «أنباء صادقة».

قالت: «قالوا إن حافظ مات ودفن».

قال: «نعم مات ودفن، وأعلن الجميع نبأ وفاته.. حتى في نشرة حكومية رسمية».

قالت: «إذن لم تكن أنت حافظ نجيب!».

قال: «برهنت لك من قبل فاقتنعت بأن البارون دي ماسون وحافظ نجيب وبنفيه أسماء لشخص واحد..».

يتناول ذراعها ويذهب بها إلى مقعد فيجلسان، وتلبث برهة قصيرة تدقق في وجهه ثم تقول:

«كيف أصدق أنك مت ودفنت وأنت الآن أمامي في صحة وعافية؟».

قال: «موتي ودفني والإعلان عن ذلك، هي الوسيلة المفردة التي تسقط جميع الأحكام الغيابية التي صدرت ضدي، وكذلك تسقط القضايا التي لم يفصل فيها، وتمنع أيضاً البوليس من مطاردتي والبحث عني».

قالت: «وهل الذي يموت ويدفن، يعود ثانياً إلى الحياة؟».

قال: «نعم.. لأن روحه لا زالت باقية على ظهر الأرض... أنت روحي... أنت حياتي... ولقد وعدت بالاقتران بي إذا كفّ البوليس عن مطاردتي.. وها أنا ذا أمامك أتمتع بالحياة وبكل حريتي... ولم أخسر بعملية الموت والدفن سوى اسم حافظ نجيب... الاسم الذي منعوني من حمله أعواماً..».

قالت: «رأسي يدور... لقد خبلتني هذه المفاجأة.. هل يصدق العقل أنك تعود إلى الحياة بعد الموت، وإلى ظهر الأرض بعد الدفن؟».

فقال: «كان الموت والدفن مغامرة كسائر المغامرات».

قالت: «قلت لك إنني في اضطراب، وعقلي يعجز عن تصديق أنباء موتك ودفنك ثم عودتك للحياة.. فاشرح لي الأمر لأفهم ولأصدق ولأطمئن؟».

قال: «في مقابلتنا الأخيرة أقسمت لي أنك تقبلين الاقتران بي إذا كف البوليس عن مطاردتي».

قالت: «هذا صحيح».

قلت: «وقلت لك إنني سأغيب أياماً فلا تنزعجي لغيابي».

قالت: «وهذا صحيح».

قال: «فالأيام التي غبتها عنك هي التي قضيتها في المرض والمعالجة ثم في الموت والدفن والخروج من القبر، لأعود إليك طليقاً حراً ليست عليَّ أحكام، وليس للبوليس سبب يدعوه لمطاردتي».

وانطلق العاشق يقص على الحسناء المحبوبة الحيل التي لجأ إليها للحصول على حريته.. قالت:

«يا إلهي هذه مغامرة جريئة جداً!».

قال: «كانت الوسائل بسيطة وسهلة، ولكنها أيضاً مغامرة جنونية، لأن أي خطأ في التنفيذ بعد تناول المخدر يؤدي إلى الموت، ولكنني أستخف بكل خطر حتى الموت في سبيل الوصول إليك».

قالت: «لقد غامرت بحياتك من أجلي مرات، وهذه المغامرات الخطيرة أدلة تقنعني بأنك صادق في الحب... فأنت رجل تستحق قلب المرأة التي تحبها... وسأصدق في وعدي لك... سأقترن بك وسنقضي شهر العسل في سياحة في النيل».

فانحنى العاشق وقبَّل يدها وتم عقد القران.

وانقضى شهر العسل في ذهبية صعدت في النيل إلى أسوان ثم عادت إلى القاهرة... ووجد الزوجان في تلك العزلة الهناء والصفاء والارتياح والمسرة، تماثل الشعور.. ولبت العاطفة نداء العاطفة وتم ائتلاف الروحين، فني أحدهما في الثاني.

دام هذا الصفاء أكثر من عام فدب في نفس المرأة شيء من الملل وسئمت الحياة الهادئة المستقرة بسبب تماثل الأيام والليالي والساعات. وحتى كؤوس الغرام، لم تعد لها قوة تبعث على الانتشاء وعلى تنبيه الرغبة، فأكثرت من السياحة والانتقال من بلد إلى بلد، ومن جو إلى جو، طلبت التلهي في شتى دور الملاهي ولكن هذه المسليات عجزت عن إزالة الملل وانقباض الصدر، وصارت صورتي في نظرها صورة إنسان عادي لا يميزه عن غيره أي شيء.

لقد أعجبت بالمغامر الجريء وحياة الهدوء والسكينة والصفاء منعت المغامرات فمنعت القوة على الإعجاب. فانكشفت الحقيقة للعين: حمل الإعجاب المرأة على حب المغامر لا على حب حافظ نجيب... ولم تغب هذه الحقيقة عني من أول الشوط، ولكنني مفتوناً بالحسن أريد إمتاع النفس بامتلاكه وقتاً ما، طال أو قصر، وقد حققت رغبتي بالحيلة وامتلكت التي استعصت على الرجال، وشبعت من الهوى ومن الهناء.

وثارت عليَّ عزة نفسي على المرأة التي ملت معاشرتي، وانطفأت في عاطفتها الشعلة التي تبعث فيها الحرارة فدلت على الاحتضار بالملل والسآمة وانقباض الصدر. فعقدت العزم على الانفصال عنها بصوره تحفظ لي عزة النفس والكرامة، وترغمها

على احترامي كلما ذكرت علاقتي بها وإخلاصي لها.

قضيت معها السهرة الأخيرة أنوع لها المروحات، وأبذل الجهد في الترفيه عنها لألطف شيئاً مما تشعر به من انقباض الصدر والضيق، واغتصبت من فمها ابتسامات وضحكات، ولبثت في خدمتها حتى رقدت في فراشها وقبلتها قبلة أخيرة هادئة وديعة صامتة كأنها همس الروح وانصرفت إلى غرفتي المجاورة كأني أريد النوم.

واستيقظت في الصباح في كآبة وضجر كعادتها من شهر وقضت الوقت المبكر في الاستحمام والتزين ثم نادت زوجها لتناول طعام الفطور فلم يلب النداء كعادته. فدخلت غرفته من الباب الداخلي الموصل بين الحجرتين فلم تجده، إنما رأت على المنضدة كتاباً بعنوانها فقرأت فيه هذه العبارة:

«إخلاصي لك يحملني على تضحية هنائي في سبيل هنائك، وقد لحظت عليك الملل من هذه المعاشرة والسآمة من كل ما أحوطك به ضجر من خمد الشعور في عاطفته وملأ الضيق صدره وما دمت عاجزاً عن الترويح عن نفسك وعن تلطيف أسباب ضجرك من هذه الحياة فإنني أنزاح عن طريقك لأرد لك حريتك كاملة عسى أن تجدي ارتياح نفسك وهنائها بباعث جديد. وأسأل الله لك السلامة والمسرة أين تكونين».

لقد اختفي حافظ من حياة تلك الحسناء الفتانة، تركها لوحدها في الحياة، ولاشى الزمن الطويل آثار تلك النار التي اشتعلت في فؤادها، حولها إلى رماد وحول الزمن الذي تمتعت فيه بالهناء والغبطة إلى صورة ذهبية أشعر بالارتياح لها كلما مرت بالبال ونفض عنها التفكير غبار النسيان.

فكرة الرهبنة

١

حملتني الكبرياء وعزة النفس على التخلي عن المرأة التي ولعت بها عندما أيقنت من عاطفتها أنها ارتوت وتشبعت ثم ملت وسئمت. لم تعد الحياة إلى جانبها بدافع من الشعور المتماثل أو التجاذب العاطفي أو الائتلاف الروحي بل تحولت إلى مشاركة فيها صورة إكراه، فاقتضى الحال تحرير السائمة من أسبابها لترد إليها الحرية والاستقلال.

كان هذا رأيي، ولم أتحول عنه حتى في زمن الشيخوخة، فضحيت عاطفتي للاحتفاظ برجولتي وليس من السهل الإقدام على التضحية وكبت الشعور لأن التخلي عن المرأة المحبوبة معناه ترك العاطفة في نار مشبوبة والألم يمزق الفؤاد وفي حرمان النفس من هنائها المختار، تعذيب طويل لا يحتمل ولا يطاق.

لست أعرف نوع تأثر تلك الحسناء من هذا الافتراق، هل أسفت عليه أو ارتاحت له، لم يعد يهمني شيء من نتائج تصرفي من تلك الحسناء المغامرة، وانصرف همي إلى نفسي أحاول معالجتها بشتى الوسائل التي تلطف الألم وتؤدي إلى

النسيان. كانت صورتها في ذهني في كل لحظة من ساعات النهار والليل، وكان الحرمان يعيد إلى الذاكرة ما عرفت إلى جانبها من ألوان المتعة والمسرة والهناء، فتزيد هذه المؤثرات في آلام النفس وعذابها.

لجأت إلى الخمر أصب في جوفي لأفقد الذاكرة فيقل أو يزول تأثيرها في الشعور وفي الأعصاب فصرت أسكر حتى أنام مخموراً فإذا استيقظت وتنبهت ذاكرتي، أعدو عليها من جديد بالخمرة الكثيرة. ومن أحسن الحظ أن المخدرات الأوروبية كالكوكايين وأمثاله لم تكن معروفه في مصر في ذلك الزمن، فنجوت من خطر اللجوء إليها لنشدان النسيان.

دامت هذه الحال وقتاً غير قصير، فأثرت الخمر في صحتي وكدت أصاب بالإدمان، ومن عادة الإنسان محاولة المحافظة على صحته لاستبقاء الحياة والعافية حتى ولو كان نصيبه في تلك الحياة التعاسة والفقر والشقاء. أدركت ما يؤدي إليه الإدمان من المسكرات، فدفعني الخوف على الحياة على استبدال هذا النوع من المعالجة إلى البحث عن غيره لألطف آلام النفس بنسيان الغرام الذي تغلغل في فؤادي وعزلني عن جميع ملذات الحياة.

استعرضت الماضي كله فكان سلسلة من أنواع الشقاء وألوان العذاب، وحددت حالي في المجتمع فرأيته صورة لإنسان لا تربطه بالجماعة أية رابطة من نوع ما بين الناس وبعضهم ليس لي أهل ولا أقارب ولا أصدقاء ولا عمل منظم ولا عقل مركز ولا هدف، ولا استقرار، ولا أمل، فما هي قيمة الحياة في نظر هذا الإنسان؟ وما هي الضرورة التي ترغمه على البقاء وسط الجماعة معزولاً عنها هذه العزلة؟

جميع ما أحاط بي من الظروف وما صادفت من شتى المؤثرات العنيفة، وكل من عاشرت من الخلق، وكل ما رأيت في مسرح الحياة أسباب قوية تبعث على الاستياء وعلى النفور من هذا المحيط كله، ويبعث على الرغبة في التخلص من هذه الحياة الشقية، فهل أنتحر؟ الانتحار نوع من الجنون، أو هو فرار من المعركة بتأثير الجبن، فثارت كبريائي ضد هذه المخاطر فتحولت عنه وجعلت أبحث عن وسيلة تعزلني عن المجتمع وما فيه من أسباب الشقاء والتعذيب بدون الانتحار.

فكرت طويلاً تفكير المضطرب مزلزل الفكر والأعصاب فلم أهتد لوسيلة معقولة تحمل على السكون إليها في ارتياح، تركت الخمر وجعلت أقتل الوقت بمطالعة الروايات لتشغل الوقائع الخيالية خيالي عن الأشجان مسببات التألم وانقباض الصدر، فصادفت قصة عاطفية بطلها ملك لفرنسا وبطلتها عذراء يحبها الملك وتبادله هذه العاطفة في تعقل حداها إلى كبت شعورها وكتم سرها حتى عن العاشق، ولم تطق الاحتمال والبقاء بين الآدميين فاعتزلت المجتمع وفرت منه إلى الدير لأن أسواره تحبس نظرها عن كل ما في الحياة من المشاهد والمؤثرات، ولأن الصلوات تلهيها عما في نفسها من المنغصات، وللاستقرار في قبر فسيح يدفن فيه الجسد مع بقاء الحياة...

ولكن الترهب جائز للرجل المسيحي ولست نصرانياً، وكان هذا الاعتراض يصرفني عن تنفيذ هذه الفكرة، ولكن الرغبة القوية في اعتزال العالم هدت العقل إلى المبررات المعقولة. قلت لعقلي: أنا رجل بدون عقيدة وبدون دين لم تؤثر في الوراثة لأنني لم أنشأ نشأة منظمة في حياة عائلية تكون أبنائها بالتربية

وتكون سلوكهم بتأثير العادات والتقاليد ولم تعلمني المدرسة تعليماً دينياً يثبت في عقيدة ويكون لي مبدأ.

كان عمل المدرسة إرغامي على حفظ سور من القرآن لا أفهم معاني عباراتها، فكنت أحفظها عن ظهر قلب خوفاً من الضرب بالخيزران وهو العقاب الذي عرفناه في زمان الدراسة الابتدائية. واضطراب حياتي وجميع ظروفي على ظهر الأرض لم تسنح فيها فرصة تحدوني إلى الاطلاع على كتاب ديني.

بل جميع ظروف الحياة الاجتماعية ومشاغلها تبعد الإنسان المتحضر عن تذكر الدين أو حصر تصرفاته في حدود الشريعة إلا عند عقد الزواج أو تأدية شهادة أمام المحكمة. وأنا كسائر الخلق في هذا المجتمع لم يطرأ عليَّ الباعث الذي يرغمني على التفكير في العقيدة والدين.

وقلت: اليهودي والمسيحي والمسلم كلهم يعبدون الإله الخالق، ويعترفون بأنه الإله الخالق المفرد، وهو الإله الذي يعبده الرهبان في أي دير ألتجئ إليه، ومادمت عاجزاً عن الجزم بأي أنواع العبادة هي الأدنى للحقيقة، فلماذا لا أجعل هذا العجز سبباً منطقيا أستند عليه في عباده الله الخالق «وحده» الشائع في عقائد اليهود والنصارى والمسلمين.

سألت نفسي: لماذا لا يلجأ الإنسان إلى الدير ليحيا فيه حياة الرهبان؟ فكان الجواب: يفر الإنسان إلى الدير لسبب من عدة أسباب منها: الفقر والعجز عن العمل، أو عدم احتمال الآلام والمنغصات في الحياة، أو الطمع في الوصول إلى منصب ديني كبير، أو الرغبة في العبادة والانصراف لله، ويكاد السبب الأخير يكون نادراً أو معدوماً اطلاقاً.

وقلت: المفروض أن الدير مكان معزول عن العالم ييسر للراهب تأدية واجباته الدينية في هدوء والعبادة للتفكير عن خطاياه لاكتساب رضا الله، فالذين وراء أسوار الدير ليسوا من القديسين الأطهار ولا من الصديقين الأبرار إنما هم من الآدميين مثلنا يتعبدون للاستغفار من خطاياهم، فأنا كأي واحد منهم أريد العزلة في الدير لأحبس حريتي فلا أخطئ بين الجماعة بسبب ظروف الحياة وأمنع نفسي من شرب الخمر ومن التلهي ومن الإسراف في التبذل ومن تصرفات كثيرة يقولون عنها إنها تتنافر مع الأخلاق الحسنة والفضيلة.

أقنعتني نتيجة هذا البحث بجواز القصد إلى الدير، بدون أن يكون في عملي ضرر ينال أي إنسان أو أي مكان أو أي دين يفرض له الاحترام، ونشطني لتنفيذ هذه الرغبة خاطر جديد خبيث أوحى إلي بأن دخول الدير مغامرة جريئة من نوع جديد... فابتسمت لوسوسة الخبيث وعقدت العزم على دخول الدير والترهب وعرضت الأمر على بعض الزملاء المشتغلين بالسياسة من منشئي النهضة الوطنية فحبذوا رأيي، وقال أحدهم:

«يجوز أن يكون الدير وسيلة لذهابك إلى الحبشة في منصب مطران الحبشة، وذلك البلد لا يزال مستقلاً، ومنصب المطران هناك منصب عظيم جداً، واحترام الأحباش للجالس على كرسي المطرانية أعظم من إجلالهم للجالس على العرش».

وقال الثاني وهو على فراش مرضه الأخير:

«وفي مقدور المطران المثقف ثقافة عالية أن ينشئ هناك جيشاً يعلم ضباطه في النمسا أو ألمانيا، فيصير في مقدوره اغتصاب السودان وإنقاذ مصر من المحتلين».

وقال الأول: «هذا سر خطير.. فاحتفظ به لنفسك، ولا تيسر لأي صديق معرفته».

فودعت الرجلين وانصرفت لأقصد إلى الدير، ولكن أي دير؟ وأين هو الدير؟ فلابد من الاهتداء إلى المكان، وإلى الوسائل التي تمكن من دخول الدير، لابد من الاسترشاد برأي خبير... ومن هو الإنسان الذي ألجأ إليه واطمئن أنه كتوم لهذا السر الخطير؟.

٢

تذكرت أن فريد فهمي كان زميلاً لي في المدرسة الحربية المصرية، وأن من صفاته الوداعة والحلم وحسن الخلق والهدوء التام، كان بين الطلبة زملائه شبحاً يتحرك يسمع ويطيع وينفذ الأوامر في صمت وكان الشاب يأنس إلي في أوقات الفراغ الطويلة فنتحدث ونتناقش ونتسامر.

وعرفت منه حينذاك أن أباه قسيس كنيسة حارة السقايين بالقرب من ميدان عابدين وعلمت بعد أعوام أن هذا الشاب ترك المدرسة الحربية وتزوج بسبب وفاة والده واختياره ليحل مكانه قسيساً لتلك الكنيسة، فترك الشاب الجندية ليرتدي ثوب الكهنة وأبعد عن العمل العسكري ليؤدي عملاً دينياً في الوسط الذي نشأ فيه وألف عاداته وتقاليده. تذكرت هذا الصديق القديم وصفاته فلم أتردد في القصد إليه لأعتمد عليه في إرشادي عن كل ما يتعلق بالأديرة القبطية وأماكنها.

ولم أخطئ الظن لأن (القس بطرس) لم ينس صديق فريد فهمي ولا نوع الصداقة البريئة التي كانت بينهما ولم تبدل ثقته

بالصديق حافظ نجيب بسبب المغامرات التي صورتها الدعاية في صورة جرائم ضد الهيئة الاجتماعية وحقوق الناس، قابلني مقابلة حسنة، حملتني على حسن الظن بقوة الصداقة القديمة وعلى الثقة بالرجولة ومتانة الأخلاق.

ومكثنا طول الليل في الخلوة وفي التحدث عن رغبتي في دخول الدير واعتزال العالم، ووضع حد نهائي للحياة المضطربة التي دفعتني مرغماً في سبيل المغامرات، فخلقت لي صورة خيالية في أذهان الناس من أوصافها الذكاء النادر، والجرأة الجنونية، وقوة الحيلة والمهارة في اغتصاب أموال الناس بالاحتيال، والقدرة على الهروب من السجون بوسائل تلوح سحرية وأوصاف بعيدة عن الحقيقة تناقلها مع المبالغة غير المحدودة، فخلقت المبالغات والخرافات وسفه الأحلام شهرة داوية لحافظ نجيب خيالي.

لم تكن للقمص بطرس معرفة وافية بالأديرة وافية القبطية لأنه قسيس علماني لا راهب خريج من الدير وكل ما وصلت إليه من معلومات أن في برية شيهات ثلاثة أديار متباعدة عن بعضها: دير أبو مقار، ودير الأنبا بشوى ثم دير السريان، وأكد لي أن الوصول إليها يكون من كفر داود.

واكتفيت بهذه المعلومات العامة طبعاً، وعمدت إلى تنفيذ عزمي من صباح النهار الثاني، فسافرت بالقطار إلى كفر داود ووصلت إليها في نهاية النهار، وبحثت عن جمل استأجره لأقطع به الصحراء لأصل إلى الدير، وهداني البحث إلى الجمل وصاحبه فقضيت الليل في بيته لنبدأ من الفجر. وهكذا فعلنا، فقطعنا الصحراء حتى وصلنا إلى دير أبو مقار بعد العصر، والمبنى

قاعة من الحجر متينة البنيان تحيط بها تلول من الرمال على بعد منها تكاد تخفيها عن الأنظار المتجهة إليها من بعض الجهات.

بالقرب من الباب حبل مرسل من أعلى السور يكاد يلمس الأرض فجذبه الجمال مرات فسمعت جرساً يدق في جوف الدير، وانتظرنا برهة طويلة ثم رأينا راهباً يطل من فتحة صغيرة في أعلى السور، ويسأل الطارق عما يريد.

ورأى الراهب «البواب» أمام باب الدير إنساناً في ثوب أفندي والجمل والجمال، فرد الكوة ونزل إلى الأرض وفتح الباب واستقبلني في ترحيب فيه معنى المبالغة والدهشة والتساؤل، ثم قادني والجمال إلى حجرة في الطابق الأول هي طبعاً المعدة لجلوس الرهبان وقت السمر، ولاستقبال الزائرين إذا وجد من يعنى بزيارة هذا الدير النائي عن العمران.

من عادة أهل الدير إكرام الضيف الطارئ حتى قبل معرفته أو تحديد زمن حضوره، فكل طعام في الدير يوزع على الجميع بالتساوي، ويخصص جزء منه للضيف، فإذا حضر وجد نصيبه ينتظره، وإذا لم يحضر أحد يوزع هذا المقدار على الرهبان. ويبدأ إكرام القادم للضيافة بغسل قدميه بالماء الساخن، وتناول القهوة ثم الطعام، وهكذا فعلوا معي. واجتمع فريق من الرهبان حولي بعد العشاء للسمر، ولاستطلاع السبب في هذه الزيارة الغريبة، ولم أكتم عنهم الحقيقة، وحدثتهم عن رغبتي في الترهّب وقضاء بقية الحياة في الدير.

لم يكن هذا غريباً لأنهم جميعاً كانوا من أهل الريف ونزحوا إلى الدير على هذه الصورة رغبة في الترهب والعيش وراء أسوار الدير، فليس الاختلاف في وسيلة طلب الترهب إنما الأسباب

التي دفعت كل واحد من هؤلاء الناس إلى طرق باب الدير للاحتماء وراء الأسوار العازلة بين الحياة الخارجية وبين سكان هذه المعازل الموحشة. ولحظت أثناء وجودي هناك، تلك الليلة أن الماء مالح يكاد يكون أجاجاً لا يستساغ طعمه ولا يروي من العطش، وعلمت أن القوم يستقون من بئر ماؤها مالح، فلم أقبل البقاء في الدير بسبب ملوحة مائه.

وسألت الربيتة «الرئيس المحلي للرهبان» عن الدير الذي أجد به ماء عذباً يصلح للشرب فدلني على دير الأنبا بشوى، وهو على بعد أميال من دير أبو مقار، فرجوت منه المعاونة لأبلغ إليه، ففعل. وانتقلت إلى الربيتة في دير الأنبا بشوى، شيخ طاعن في السن يدعى القمص عبد الملاك، طيب القلب، حسن النية، ومعه عشرة من زملائه جميعهم شيوخ ومن أرباب العاهات التي تعطل عن الحركة.

وحدثت الربيتة عن رغبتي في الترهب والبقاء في الدير، فأظهر الارتياح لطلبي واشترط علي الانتظار بدون رهبنة عاماً أو أقل لكي أتحقق من نفسي ومن عزمي هل يثبت على البقاء في الدير أو يتبدل رأيي فأنصرف عن حياة الزهد والحرمان من جميع ملاذ الحياة. قبلت رأي رب البيت وخلعت ثوبي وارتديت جلباباً أسود وتمنطقت بحبل وتحولت إلى طالب رهبنة لا يزال تحت الاختبار ونظام الدير وأساسه المساواة بين الجميع فتساويت مع جميع الرهبان في الحقوق والواجبات.

أعطاني القمص عبد الملاك غرفة تقع كمثيلاتها تحت سور الدير، وكونت لنفسي سريراً من الخشب مددته على قاعدتين، وهيأت من الخشب منضدة جعلتها للمصباح وللمطالعة، وزدت

على هذا المتاع إناء من الفخار للماء، فاكتملت لي حاجات المعيشة في هذه الغرفة.

وفي الدير حديقة كبيرة مهملة ليس بها ما ينتفع به سوى نخارت متفرقات وساقية تدار بحمار بدلاً من الثور ولكن من النادر اللجوء إلى الساقية لعدم وجود نبات في الحديقة يحتاج للماء. وقضى علي نظام الدير الاندماج في الجماعة لتأدية الوجبات، وهي الصلاة بعد العصر جماعة في فناء الدير، والصلاة في الكنيسة قبيل فجر ليلة الأحد، ثم قضاء الأعمال اليومية الضرورية للمعيشة، وهي الكنس والطبخ وخبز الخبز مرة في كل أسبوع.

وعملية الطبخ تحتاج إلى الوقود نحصل عليه من الصحراء، ولما كنت الشاب المفرد السليم البدن والنظر بين هؤلاء الرهبان ذوي العاهات، فقد فرض علي الاحتطاب من الصحراء ومعاونة الراهب المكلف بالطبخ، وتنحصر هذه المعاونة في إذكاء النار تحت الإناء بما أحمله للدير من الشجيرات المنتثرة في الصحراء.

كنت أخرج في الصباح إلى الفضاء على ظهر حمار الدير القوي الجبار، ومعي البلطة فأحتطب وأحمّل الحمار محصول النهار ثم نعود للدير ونقتسم العمل أنا للمشاركة في طهي العدس والفول، والحمار في الحديقة المخربة ليأكل ما بها الحشائش والطفيليات في حرية مطلقة. علمت من أحاديث الرهبان أنني أخطأت في اختيار طريقي إلى الدير، كان الواجب أن أصل إلى محطة الخطاطبة بالسكة الحديد، ثم أركب منها قطاراً ينطلق على سكة ضيقة إلى وادي النطرون مقر شركة إنجليزية هناك، وبين مقر الشركة والدير ثلاث كيلو مترات لا

أكثر، يقطعها كل الرهبان مشياً بدون عناء على طريق ممهد هيأته الطبيعة وسط الصحراء.

وعلمت أن هذا القطار يصل إلى وادي النطرون مرتين في الأسبوع ويحمل معه البريد للشركة وللعمال ولرهبان الأديار، ويرسل كل دير رسولاً إلى مكتب البريد لإحضار الرسائل، وقد نيط بي هذا العمل زيادة على الاحتطاب لأنني المفرد الذي يعاونه الحمار. حقق لي هذا العمل رغبتي في الاطلاع على أنباء العالم بواسطة الصحف، فكنت أحصل على جريدة الوطن وعلى اللواء مرتين في الأسبوع، والتجئ إلى مغارة بعيدة عن الطريق المطروق فأطالع الجريدتين في اطمئنان ثم أحرقها وأنصرف إلى الدير أحمل الرسائل لأهله إذا وجدت.

كان مصطفي كامل رئيس الحزب الوطني وصاحب جريدة اللواء مريضاً يلازم الفراش قبل رحيلي إلى الدير، وقابلته على فراش المرض للمرة الأخيرة في النهار الذي سافرت في عصره إلى كفر داود للقصد إلى الدير. وكان إلى جانبه وقت هذه الزيارة الأخيرة محمد بك فريد زميله وعضده القوي الحكيم. وكنت وأنا في الدير أتلهف إلى مطالعة الصحف عسى أن أجد فيما تنشره في أحد الأيام أنباء عن صحة ذلك الرجل الوطني العظيم تبعث على الاطمئنان ففوجئت في أحد الأيام بمطالعة نبأ وفاته بدلاً من البشرى بشفائه...

يعلم الله وحده، مقدار تأثير هذه الصدمة في نفسي وفي أعصابي، لأن أحداً لم يرني وأنا في المغارة أطالع النبأ المشؤوم الذي زلزلني وشبّع صدري بالحزن والضيق والسخط على الحياة ومفاجأة القدر المزعجة. تصرخ المرأة من تأثير الألم إذا صدمت

مثل هذه الصدمة، وتلطم خدها وتشق ثوبها، أما الرجل فيتألم في صمت وتجري دموعه غزيرة جهراً إذا أمكن الجهر وفي خفاء في مثل الظروف التي كنت فيها.

عدت إلى الدير محزوناً وقضيت النهار أؤدي بقية واجباتي مع الزملاء ثم آويت إلى غرفتي بعد تناول طعام العشاء أوصدت الأب من الداخل واستسلمت للانفعالات النفسية التي سببها موت ذلك الوطني الوثاب. ودفعتني هذه الانفعالات إلى الكتابة لتصويرها، فنظمت قصيدة في الرثاء لست أذكر شيئاً منها الآن. ونظمت في الليلة الثانية قصيدة أخرى، وخبأت القصيدتين في الكتاب المقدس وهو الكتاب المفرد الذي عندي أطالعه في أوقات الفراغ لأدفع عن نفسي ضيق الصدر والسآمة في ذلك القبر الفسيح.

لست أنكر أنه كان يزاملني فيه جماعة من الرهبان ولكنهم بدون معرفة وبدون قدرة على الفهم وعلى وزن أي شيء من أمور الجماعة في الهيئة الاجتماعية، وكل معرفتهم محدودة في تلاوة عبارات الصلاة، وحفظ مزامير داود، والتحدث في شؤون العمل اليومي في الدير. كنت إذن وحدي في خلوة مع نفسي وفكري فكنت أضني البدن بالعمل الشاق المتنوع في النهار ليرغمني الإجهاد والتعب على النوم ليلاً بدلاً من الأرق والملل من هذه الوحدة الدائمة.

وحدث في أحد الأيام وصول رئيس الدير «القمص بطرس» لزيارة ديره، جاء يحمل إليه الحاجات الضرورية من الزيت والشموع والحبوب والسكر والشاي كعادته من حين إلى حين، كان الرجل مقيماً في كفر داود في منزل ريفي يسميه الرهبان

العزبة، وإلى جانبه راهب شاب يعاونه في الأعمال الزراعية وهو في ثياب أهل الريف ومعه الخادم الخاص لذلك الرئيس.

وصل القمص بطرس إلى وادي النطرون في القطار الذي يقوم به من الخطاطبة في الصباح وجرت العادة أن يعود هذا القطار نفسه إلى الخطاطبة في نفس النهار، فيتحرك من محطة وادي النطرون بعد عصر النهار وهذه الظروف تجعل زيارة الرئيس لديره زيارة خاطفة لأنه يرغم نفسه على العودة إلى مقره الدائم في نفس القطار الذي جاء فيه.

كان يعلم من القمص عبد الملاك بالمكاتبة نبأ وصول غبريال إبراهيم إلى الدير والبقاء به بسبب رغبته في الترهب وعلم عنه بعض أوصافه التي كتبت عنه فلما وصل الدير سأل عن الشاب طالب الترهب ليراه ولكن غبريال إبراهيم كان غائباً في الصحراء للاحتطاب، ولم يسعده الحظ الحسن بالعودة إلى الدير قبل رجوع الرئيس إلى العزبة بكفر داود. وأراد الرئيس الاطمئنان على ما أعدّه الدير لراحة الشاب المتعلم طالب الترهب فقصد إلى الغرفة المخصصة له وكانت تغلق من الخارج بضبة من الخشب من السهل فتحها للرئيس الذي يدين له جميع الرهبان بالطاعة العمياء وبالاحترام.

رأى السرير والفراش والسجادة التي تغطيه، ورأى المنضدة، التي صنعها غبريال من الخشب الموجود في الدير تغطيها قطعة من القماش الأبيض ورأى الكتاب المقدس الموضوع عليها، إنما لفت نظره جزء من ورقة بيضاء بارزة من بين أوراق الكتاب، فتناولها فوجدها ورقتين أو قصيدتين في رثاء مصطفي كامل فقيد الأمة.

كان القمص الرئيس يحسن القراءة والفهم، وكان كغيره من المصريين في ذلك الحين يعجب بنشاط المرحوم مصطفي كامل لإحياء النهضة الوطنية، فلم يتكدر من اهتدائه إلى القصيدتين في غرفة طالب الترهب واعتزال العالم بقطع جميع الأسباب التي تصله به وبالأحياء فيه، ارتاح لعثوره على القصديتين فأخذهما وعاد إلى كفر داود بعد التوصية الحارة على غبريال إبراهيم الشاعر...

٣

كفر داود كانت قرية كسائر القرى ليس بها منزل يصلح الاجتماع به وقضاء السهرة فيه سوى عزبة الدير، ففي الطابق الأرضي مكان يسهر فيه رئيس الدير ويزوره كل ليلة ضابط بوليس النقطة، وناظر المحطة ووكيل التلغراف لأنهم جميعاً من الأقباط. فلما عاد القمص من زيارة الدير عرض على أصدقائه الزائرين قصيدة طالب الرهبنة غبريال إبراهيم، وأظهر إعجابه بالمرثية وبالشاعر فشاركه الجماعة في الإعجاب بالشعر وبالفتى الشاعر الذي اختار لنفسه حياة الترهب مع توفر نصيبه من العلم والمعرفة والقدرة على كسب الرزق في الحياة بدلاً من طلبه في الأديار كعادة العاجزين والكسالى.

لم تكن الطائفة القبطية في ذلك الحين ١٩٠٧ قد بدأت نهضتها للتعلم في جد ونشاط، كان المتعلمون الأقباط عدداً قليلاً لا يتناسب مع الارتقاء الذي نلاحظه الآن. وكان جميع الرهبان ورجال الدين منهم ريفيين لجأوا إلى الدير بدون علم أو معرفة أو ثقافة، وكان المفروض على هؤلاء جميعاً تعلُّم القراءة والكتابة للتمكن من المطالعة وحفظ المزامير باللغة العربية، وحفظ

التراتيل والقداس عن ظهر قلب باللغة العربية، وحفظ التراتيل والقداس عن ظهر قلب باللغة القبطية.

ومن هؤلاء يتم اختيار البطريرك والمطارنة والأساقفة، فيصير الفارق بين الإكليروس «رجال الدين» والشعب عظيماً من الناحيتين العلمية والفكرية، وكانت رغبة البارزين في الطائفة قوية للارتقاء برجال الكنيسة إلى أحد الذي يتماثل مع معرفة الناس وثقافتهم، ولا يتم هذا الارتقاء إلا بتعليم الشبان الرهبان تعليماً يؤدي إلى زيادة المعرفة والثقافة لتكوين الفكر الذي يناسب مؤهلات الشعب وحاجاته.

وكان اختلاف الوجهتين سبباً في استمرار الخلاف بين رجال الكنيسة «من الرهبان» وبين كبار الرجال في الطائفة القبطية. فلما وصلت قصيدة غبريال إبراهيم طالب الترهب لسمع هذا الفريق من الأقباط شملهم السرور لانصراف شاب متعلم عن العالم ورغبته في الترهب ليصير يوماً ما رجلاً من رجال الدين الذين يلجأ إليهم الشعب، فقالوا: إن أول الغيث....

واقترح أحد الحاضرين إرسال القصيدة إلى جريدة الوطن لنشرها لتكون دليلاً على وجود متعلمين في الأديار عسى أن ينبه هذا النشر بعض المتعلمين على الرغبة في الترهب والقصد إلى الأديار، ولم يعترض القمص بطرس على هذا الاقتراح فأرسلت القصيدة الأولى إلى جريدة الوطن تحت عنوان: «دمعة راهب»...

وأحدث نشر القصيدة ضجة بين الأقباط، عجب البعض لوجود راهب متعلم وشاعر في الدير، وانتقد البعض جرأة الراهب غبريال إبراهيم على رثاء زعيم سياسي لأن الرهبنة تقتضي اعتزال الراهب العالم جميعه بما فيه من أحياء وأحداث،

فمن المستنكر إذن على الراهب الشاعر اهتمامه بموت مصطفي كامل وتلهيه برثائه بقصيدة ثم بالاجتراء على نشرها.

ونشر واعظ من أسيوط اسمه حبيب رسالة في جريدة الوطن تحت عنوان (من الواعظ إلى الراهب) يذهب فيها مذهب الناقدين لتصرف الراهب، وذهب بعض أعيان الطائفة إلى البطريرك يسألونه ما يعرفه عن ذلك الراهب الشاعر، وأرسلت جريدة الوطن مندوباً إلى كفر داود فقابل القمص بطرس رئيس الدير وسأله عن الراهب غبريال إبراهيم: هل له وجود حقيقي أم هو رثاء من شاعر متنكر نشره بهذا الاسم المزيف؟ وأكد القمص لمندوب الجريدة وجود غبريال إبراهيم داخل الدير، وأنه هو ذاته الذي نظم الرثاء، وأعطاه القصيدة الثانية للدلالة على وجود الشاعر المترهب في الدير.

فعاد المندوب إلى القاهرة ونشرت الجريدة القصيدة فزادت على الدهشة الأولى ضجة وحركة عنيفة، في دار البطريرك ألح الجميع على غبطته ليأمر باستدعاء الراهب الشاعر إلى القاهرة، وبضرورة إرساله إلى أثينا ليدرس اللاهوت لتكتمل ثقافته ويصير صالحاً لتأدية الرسالة في المحيط الصالح للعمل. وغضب البطريرك لنشر الرثاء في الصحف وأرسل لرئيس الدير رسالة برقية يأمره بإرسال الراهب غبريال إبراهيم إلى دار البطريركية لمقابلته.

حدث كل هذا وأنا في الدير في جوف الصحراء لا يصل إليّ شيء من هذه الأنباء كنت في غفلة تامة عن مجرى الأحوال، وفوجئت في أحد الأيام بوصول راهب العزبة إلى الدير ومعه خطاب من الرئيس إلى القمص عبد الملاك يطلب فيه

إرسالي مع الرسل إلى العزبة بكفر داود فاستولت عليّ الدهشة والخوف من نتائج هذا الاستدعاء المفاجئ بدون سبب معروف.

ولكن الخطاب له قوة الأمر العسكري يجب أن يخضع له المأمور، فسافرت في نفس النهار مع الراهب الرسول إلى مقر الرئيس في تلك القرية، وكنت مضطرباً خشية من افتضاح سري ومعرفة شخصيتي الحقيقية. وجدت القمص بطرس في العزبة ومعه أصدقاؤه الثلاثة، فحدثني عن نشر القصيدتين في جريدة الوطن وعما أوجدا من الضجة في الجرائد القبطية وبين كبار رجال الطائفة، وعن الرسائل التي نشرت عني للإعجاب بالروح الوطنية أو لنقد تصرفاتي بسبب وجودي في الدير وزاد على هذا الشرح قوله:

«وقد أرسل صاحب الغبطة سيدنا البطريرك رسالة برقية يطلب مني إرسالك إلى القاهرة لمقابلته، وليس في مقدوري عدم تنفيذ هذا الأمر فيجب أن تسافر لمقابلة غبطته وسيعرضون عليك هناك فكرة إبقائك في مصر أو إرسالك إلى أثينا لإتمام الدراسة الدينية، فتذكر أن جميع الذين عادوا من أثينا اختلفوا مع الكنيسة الأرثوذكسية، وخرجوا على نظمها ومبادئها وتقاليدها فاعتبرتهم مهرطقين وجردتهم من رتبهم الدينية وعزلتهم عن الكنيسة».

وقال: «ولهذه الأسباب ومحاذرة عليك من مثل الحال التي انحدر إليها أولئك الكهنة الكبار أنصح لك برفض كل ما يعرض عليك، وبإعلان رغبتك في العودة إلى الدير وليس في سلطة أي إنسان منعك من البقاء في الدير، وحياتك بين زملائك الرهبان تحميك من شرور العالم ومن الأخطاء التي تهدد مستقبلك، ومن

المحقق أنك ستصل بعدى إلى رئاسة الدير أو إلى كرسي المطرانية في أوراق مكان يخلو من صاحبه».

أصغيت لهذه النصائح وأنا مشتت الفكر وفي اضطراب نفسي لأنني لا أجرؤ على الذهاب إلى دار البطريركية لمقابلة البطريرك كطلبه ففي تلك الدار سأرغم على مقابلة كثيرين من الأقباط يعرفونني من قبل معرفة تامة أمثال جندي إبراهيم صاحب جريدة الوطن، والأستاذ ويصا واصف وقد كان أستاذاً في مدرسة رأس التين يدرس لي الكيمياء والطبيعة والهندسة والحساب والجبر مدى ثلاثة أعوام، وكذلك كثيرون غيره معرفتهم بي وثيقة. فمن الجنون المجازفة بالذهاب لمقابلة البطريرك ولكنني تظاهرت بالخضوع وبالإطاعة.

كان ثوبي الإفرنجي باقياً في الدير لم أحتفظ منه إلا بالمعطف والنعل، فأعطاني رئيس الدير جلباباً أسود وطاقية وغطاء للرأس من الحرير وأعطاني جنيهاً واحداً من الذهب لأجرة السفر فسافرت في صباح النهار الثاني إلى القاهرة وإلى بيت المرحوم محمد بك فريد بدلاً من مقابلة البطريرك. واستاء المرحوم من قصدي إليه، وأنبني في غضب شديد بسبب نشر المرثيتين في الصحف وبسبب ما أحدثا من الضجة حول الراهب الشاعر، وقال:

«لقد ذهبت إلى الدير لتختفي فيه وتعتزل العالم وقتاً طويلاً لينساك الناس ولتصل من الدير إلى الهدف الذي تهدف إليه، فمن الحماقة التي لا تغتفر ما فعلت لأنه أحدث ضجة تمنعك من البقاء في الدير»...

وزاد غضبه علي بسبب ما سماه حماقة وطردني من بيته شر

طردة بدون أن يصغي إلي لحظة ليسمع دفاعي عن نفسي.

ما هو ذنبي في كل ما وقع مما سموه حماقة ؟ تألمت لموت رجل وطني اغتصب احترام الجميع ومحبة الأمة التي قضى في الدفاع عن حقوقها ضد الغاصب القوي صاحب السلطان، ودللت على التألم وعلى ما شعرت به من الخسارة بقصيدتين خبأتهما عن العالم وكشفت الصدفة هذا المخبأ لزائر طارئ أثناء غيابي عن غرفتي وعن الدير كله، وتولى هذا الرجل نشر المرثيتين بدون علمي وبدون إرادتي وعمله ضد مصلحتي ولكن جهل الناس الحقيقة والظلم الكامن في النفوس نسبا إلى الخطأ، وسمى الكثيرون هذا الخطأ حماقة.

انصرفت من بيت ذلك الزعيم الوطني الحكيم مطروداً مهاناً بدون سبب، وكان الواجب أن يؤثر فشلي في عزمه فيهدمه، أو تترك الإهانة أثرها في نفسي فتحملني على الذلة وقبول الهوان مع اليأس، ولكنني ألفت انصباب النكبات على رأسي وقرعتني الكوارث عشرات المرات فعودتني المقارعة في صبر وعناد وصار من طبعي المقاومة في حرارة تدفعني لمحاولة تحقيق غرضي والبلوغ إلى هدفي.

فأبعدت عن دار الغضبان الطارد وفي عزمي العودة إلى الدير باسم جديد ولكن أي دير ؟ من المستحيل عودتي إلى أحد الأديار في برية شيهات لأنها متجاورة وجميع الرهبان فيها يعرفون اسم غبريال ووجهه وقد بلغت إليهم كافتهم حادثته، فلابد لي من اللجوء إلى دير جديد بعيد عن تلك الصحراء النائية.

٤

دفعني الحنق والعناد إلى منزل القمص بطرس بحارة الساقيين مرة ثانية لأساله عن دير جديد. ولم يرحمني هذا الصديق ولامني على الحماقة التي دفعتني لنشر المراثي في الصحف. فصارت نتيجتها خروجي من الدير مشرداً مطارداً. ولكن القمص كان أرحب صدراً من غيره، فسمع دفاعي، أدرك أن الحظ السيئ هو سبب ما سموه خطأ مني وحماقة ورغب في معاونتي مرة ثانية، فدلني على مكان الدير المحرق. وعرفت منه أن القصد إليه يكون من ديروط، فأخطأ في الدلالة على الطريق القصير كما أخطأ في المرة الأولى.

وكتبت في القاهرة ردي إلى واعظ أسيوط أرسلته لجريدة الوطن بالبريد، وجعلت عنوان الرسالة من «راهب إلى واعظ» ونشرت الجريدة الرسالة، إنما بعد وصولي للدير المحرق، والجرائد تصل إلى هذا الدير، فطولعت الرسالة على مسمع مني وعلقوا عليها بحسب ظنونهم وفي غفلة عن الكاتب أنه بينهم وقصدت في قطار الليل إلى ديروط وقضيت بقية الليلة في المحطة، وركبت في الصباح الباكر حماراً إلى الدير

فقطعت على ظهر الحمار قريباً من ٢٥ كيلو متراً ولو وصلت إلى محطة نزالي جانوب لصار بيني وبين الدير نصف هذه المسافة الطويلة.

وصلت إلى الدير بعد ظهر النهار متعباً محطماً وسألني حارس الباب عن سبب حضوري للدير فصارحته بأنني جئت أبتغي الترهب فترك الباب وسار معي إلى ما يسمونه الوسية وهو المبنى الخاص بإدارة الدير ومسكن الأسقف ومخزن المؤنة. كان الراهب الشيخ في ابتهاج وفرح واضحين فلما وصل إلى الوسية قابل راهباً قصيراً يدعى القس تادرس يسألني عن بلدي وعن صناعتي وعن سبب رغبتي في الرهبنة.

واجتمع حولي جماعة من الشباب الريفيين في ثياب قذرة حفاة الأقدام وقالوا إنهم جاءوا إلى الدير مثلي للترهب وعجبوا للجلباب الذي أرتديه وللمعطف الثمين وللنعل الجديد المتين، فجعلوا يلمسون بأيديهم ثيابي ليتحققوا من نوعها، كانوا من الجهل وسذاجة البدائيين لا يحجمون عن أي تصرف.

ودخل الفناء ثلاثة رهبان في ثياب حريرية فاقعة الألوان وعليها عباءات من الجوخ أو الصرف أو الحرير الأسود تسمى فراجيات، وعلى رؤوسهم عمامات سوداء نظيفة منظمة الوضع والحبك، تقدم الثلاثة واحد منهم يختال في مشيته وفي إيمانه وحتى في حديثه، لفت نظره معطفي وحذائي... فسأل القس تادرس وكيل الوسية عني، قال:

«من هذا المسيو؟».

فانتصب الراهب أمامه في خشوع وأجاب بأنني طارق جئت إلى الدير ابتغى الترهب، فتحول إليّ وسألني:

«اسمك إيه يا مسيو؟».

فقلت: «إن اسمي غالي جرجس».

قال: «من أي بلد؟».

قلت: «من مدينة القاهرة».

فقال الراهب: «التعب واضح على الضيف، وهو جائع بالطبع فأعطه غذاء جيداً ليأكل»...

واتجه إلى الباب المؤدي للسلم وتبعه زميلاه فعدت إلى مجلسي على المقعد الخشبي، وانصرف القس تادرس ليحضر لي طعام الغداء كما أمر، فمرت برهة طويلة نزل إلي بعدها خادم شاب اسمه زكي وطلب مني الذهاب معه لمقابلة القس سيداروس فأطعت. صعدت إلى الطابق الأول فوجدت الرهبان الثلاثة الذين سبقوني مجتمعين على مائدة الطعام، وهي صينية من النحاس فوق منضدة من الصاج، وألوان الطعام: عدس وفول نابت ولفت مخلل.

وعرفت بعد ذلك أن أسماء الرهبان الثلاثة: سيداروس وهو المقرب من أسقف الدير ويتولى رئاسة الدير بصفة غير رسمية ويستمد سلطته غير المحدودة من عطف الأسقف عليه، والثاني اسمه القمص سلامة، وهو الآن وكيل المطرانية في الخرطوم، ورشح نفسه يوماً لمنصب البطريق في القاهرة ولم ينجح في محاولته، واسم الثالث القمص بطرس وهو الآن مطران سوهاج وأخميم، وكان معهم على المائدة أفندي علمت بعد ذلك أنه وكيل الدير في الأعمال الزراعية واسمه تاوضروس ميخائيل.

وقفت في تأدب أمام الجماعة، فسألني سيداروس:

«هل تعرف القراءة والكتابة؟».

قلت: «نعم».

فأشار إلى منضدة عليها كتب دينية وقال:

«هات كتاباً من هذه الكتب».

فتناولت كتاباً فإذا هو الكتاب المقدس في حجم كبير، فقال:

«افتحه... واقرأ..».

ففتحت الكتاب وقرأت سطوراً كثيرة، فقال:

«هل فهمت معنى ما قرأت؟».

قلت: «نعم».

فقال: «اشرح لنا ما فهمت».

وقع حظي عندما فتحت الكتاب على صفحة من رسائل الرسول بولس، وعباراتها بأسلوب فلسفي، فشرحت ما فهمته مما قرأت وكان القمص سلامة أكبر الجميع معرفة، فهز رأسه وقال:

«أنت تعرف أكثر من القراءة والكتابة».

وقال سيداروس: «اجلس معنا على المائدة».

فجلست وأكلت، وقصصت عليهم ما قاسيت من التعب في رحلتي من ديروط إلى الدير على ظهر الحمار البطيء الحركة العنيد، وقال سيداروس لخادمه زكي وهو في طريقه لغرفة نومه المجاورة لغرفة المائدة:

«خذ هذا الضيف إلى غرفة نوم بها سرير واحد لينام وليستريح فإنه متعب..».

وسرت في إثر الخادم إلى غرفة تقابل غرفة المائدة واستلقيت

على السرير فغلبني النوم ولم استيقظ إلا وقت الغروب وكان خادم القس في انتظار تنبهي من النوم ومعه طست وإبريق كبير به ماء ساخن فاغتسلت وذهبت لمقابلة سيداروس كما طلب.

وجدت القس الراهب في حديقة صغيرة خاصة به وفي يده مجرفة ثقيلة من الخشب يهوي بها على ثعبان ليقتله، فما انتهى من عمله حتى سار بي شوطاً طويلاً حتى خرجنا من باب الدير إلى الخلاء، وجلسنا في مزرعة بطيخ، قال:

«سأكون معك صريحاً لأنني أريد أن أصطفيك صديقاً لأنني في أشد الحاجة إلى صديق بين زملائي الرهبان».

وقال: «قد تعجب لأنني أصارحك هذه المصارحة مع أنك عابر سبيل مجهول جاء يبتغي الرهبنة لسبب قوي مجهول، ولكنني لحظت أن تعليمك ومعرفتك أعظم مما يظهره ثوبك هذا المزيف».

قلت مبتسماً: «ولماذا هو المزيف؟».

قال: «لأن المعطف الغالي الثمن وهذه النعل المختارة بعناية خبير لا يتفقان مع هذا الجلباب الأسود والطاقية فأنت إذن من طبقة أرقى بكثير من لابسي الجلابيب، أزيد على هذا أن مطالعتك في الكتاب المقدس وتفسيرك فلسفة بولس الرسول جعلتني أدرك أن لك نصيباً كبيراً من التعليم والمعرفة».

ثم قال: «لقد استدعيتك إلى هذا الخلاء لنكون بعيدين عن آذان الرهبان فقد عزمت على مكاشفتك ببعض أسرار الإدارة في الدير لتبدأ حياتك فيه وأنت في نور..».

«في الدير الآن فريقان من الرهبان الفريق الأول الرهبان الذين عاشوا هنا وترهبنوا من زمن قبل تعيين الأنبا باخوميوس أسقفاً

للدير، فألفوا الفوضى وعدم التقيد بما يحد من حريتهم كأفراد لا كرهبان: يقتضي نظام الرهبنة عزل الراهب وراء أسوار الدير عن العالم الخارجي لتقل المؤثرات النفسية في عقله وعاطفته وغريزته، ولكنهم خالفوا زمناً طويلاً هذا النظام فكانوا يخرجون من الدير للاتصال بالعالم الخارجي بما فيه من مؤثرات مادية وعاطفية بدون أن تحاسبهم رئاسة الدير على هذه الفوضى الخلقية لأن الرئاسة كانت من نوعهم».

«وزاد الطين بلة أن الرئاسة القديمة لم تمنع دخول النساء الدير فتغلغلن بين الرهبان في صوامعهم، وصارت مخازن أولئك النساء تلك الصوامع تخزن كل واحدة حاجاتها القليلة في صومعة الراهب الصديق، فتدخل الصومعة وتخرج منها كيف تشاء وحين تشاء بدون مبالاة عياناً بياناً، جهاراً ونهاراً، لأن الجميع في الفوضى الخلقية».

وكان هناك مولد تقام ساحته خارج أسوار الدير فتجمع الطبول والزمور الراقصات في القهاوي وينطلق الجميع الرجال والنساء لشرب الخمر وعرض شتى أنواع الرذائل في غير تهيب ولا حياء. فلما تولى الأنبا باخوميوس رئاسة الدير كأسقف منع هذه الفوضى منعاً تاماً، حبس الرهبان داخل الدير، ومنع خروجهم منه إلا لسبب مشروع، وحرم دخول النساء الدير ومنع إقامة المولد تحت أسوار الدير وعاقب الرهبان على شرب الخمور عقاباً شديداً فحرم الجميع من الفوضى التي ألفوها زماناً طويلاً.

فسبب هذا الحرمان آلاماً في النفوس التي اعتادت بالقوة على كبت العاطفة غير المقيدة بحبس البدن والنظر عن المؤثرات فيها

فضاقت الصدور بسبب الحرمان، وثارت النفوس على المنظم والنظام، وتحولت الثورة النفسية إلى تمرد بعض الأحيان. والفريق الثاني يتكون من الشبان الذين ترهبنوا أثناء وجود الرئاسة فبدأوا حياة الرهبنة خاضعين للنظام الموضوع، خضعوا له في إطاعة واحترام، وهؤلاء يريد الأسقف تكوينهم بالتعليم والتربية وبالثقافة العصرية التي تناسب عقلية الشعب وتجاري مؤهلاته العلمية والفكرية، لأن الأساقفة والمطارنة سينتخبون بعد زمان طويل أو قصير من هؤلاء الناشئين» وقال:

«أنت شاب متعلم وقد حضرت إلى الدير تطلب الترهب لأسباب لا يصح أن أسألك عنها، ومصلحتك تقتضي أن نكون أصدقاء، ولهذا حدثتك هذا الحديث لتطمئن إلى صداقتي وإلى الظروف التي سنعيش فيها معاً في الدير».

أعجبت بهذه الصراحة وعقدت العزم في سري على الإخلاص لهذا الراهب وتوثيق عرى الصداقة بيننا إلى أقصى الحدود، ونمت بعد السهرة نوماً عميقاً هادئاً بسبب الارتياح الذي شع في النفس من الاهتداء إلى رجل ينشد الصداقة.

تولاني سيداروس في النهار برعايته، أرسل لي ثياباً داخلية وخادمه الخاص ليهيئ لي وسائل الاستحمام، فصرنا أصدقاء نلازم بعضنا طول الوقت ولا ننفصل إلا عند النوم. كان الأسقف غائباً عن الدير فحضر بعد أيام، وخرج الرهبان بالأعلام والدفوف لاستقباله عند وصوله إلى باب الدير، وخرجت معهم طبعاً ونبه عليّ سيداروس بالاشتراك في حفلة الاستقبال بإلقاء كلمة صغيرة بين يدي الأسقف.

ووصل الأب باخوميوس إلى باب الدير وإلى جانبه على

جواد ضيف من كبار الأعيان في مدينة أسيوط يدعى الخواجا سيدهم إلياس...

فتولاني الفزع من رؤية الرجل!!!

٥

كان عمي قاضي الجنايات في أسيوط سنه ١٨٩٢، وكان والدي معاون بوليس طهطا ولم تكن بالمدينة مدارس أميرية حينذاك فأبقاني عند عمي لأتمم الدراسة الابتدائية بمدرسة أسيوط وكان الخواجا سيدهم إلياس وأخوه ناشد وحبيب زملائي من طلبة السنة الرابعة..

وقد عرفت الرجل من أول نظرة وسيعرفني طبعاً كما عرفته وقد سمع الضجات العالية التي قامت حول اسم حافظ نجيب، فماذا يفعل حين يراني في الدير باسم غالي جرجس طالب الترهب، من المرجح أنه سيعلن الحقيقة للأسقف في مواجهتي أو سراً عند الخلوة به..

زلزلتني هذه المفاجأة المزعجة وتركتني في اضطراب وخوف، فصرت أتحرك وراء صفوف الرهبان تحرك المحكوم عليه بالإعدام وهو يساق إلى المشنقة، وكانت أصوات الدفوف وترتيل الرهبان عالية، ولكنها وصلت إلى أذني كطنين الذباب لأنني فقدت كل قواي ومعها الشعور.

وصل الموكب إلى فناء، وهو فناء مكشوف واقع بين بناءين يتصلان في الطابق الثاني بغرفة نوم سيداروس وبغرفة المائدة، وجلس الأسقف على كرسيه قبل نهاية الفناء إلى جانبه الخواجا سيدهم إلياس. وانشطر الرهبان إلى شطرين أحدهما وقف إلى يمين الفناء والثاني إلى يساره واستمروا في الترتيلة الأخيرة حتى انتهت، فجاء دور خطب الاستقبال والترحيب، فبدأ هذا الدور القمص يوحنا سلامة فألقى خطبته، وتبعه القس سيداروس ثم القمص بطرس، ثم أشار إليَّ سيداروس يأمرني بإلقاء كلمتي...

لم يقع عليَّ نظر الخواجا سيدهم وأنا بين الرهبان لأننا جميعاً في ثياب سوداء ليس فيها ما يلفت النظر، ولكنه رآني حين خرجت من الصف ووقفت في منتصف الفناء، وسمعت الأسقف يأمرني بالاقتراب منه فأطعت، رأيت عيني الخواجا سيدهم تحدقان في وجهي، ولحظت علامات الدهشة ترتسم على وجهه فصرت أترقب صرخة تصدر منه رغم إرادته تفضح سري وتطلق عليَّ نعال أولئك الرهبان.

ولكن الصرخة لم تخرج من الرجل إنما انتصب وقال للأسقف:

«لقد تعبت من طول الشوط وأشعر بالحاجة إلى الراحة وسأصعد إلى الاستراحة لأستريح حتى تنتهي من هذه الحفلة».

واتجه الرجل مستنداً إلى البناء الذي على يمين مدخل الوسية ليصعد إلى القسم الخاص بالأسقف، فالتفت الأنبا باخوميوس إلي وقال:

«تكلم»...

عاد إليَّ بعض الاطمئنان بعد انصراف الضيف الذي

أزعجني، فألقيت كلمة رحبت فيها بعودة الأسقف، فصفق لها طويلاً ثم استدعاني بالقرب منه وأظهر لي عطفه علي وابتهاجه بحضوري إلى الدير. فقضيت الليل في اضطراب وقلق لا أدري ما سيفعله الخواجا سيدهم ثم غلبني النوم فنمت ومر الليل بسلام وكذلك النهار الثاني.

وسافر الخواجا عائداً إلى بلده بدون أن يظهر ما يشير إلى افتضاح أمري فاطمأننت وعاد لي الهدوء والتفكير في إعداد وسائل راحتي في هذا المكان الذي صار مستقراً لي.. ولكن هل عرفني الخواجا سيدهم إلياس وسكت عن فضح سري؟ هل غاب وجهي عن ذاكرته؟ هذا هو الواقع.

خصصت لي غرفة في الوسية في الطابق الأرضي تحت القسم الخاص بالأسقف فاستحضرت من محل صيدناوي بساطاً، وصنعت مكتباً، واشتريت من مكاتب مصر كتباً، وجمعت من صيدلية ومن مخازن الأدوية في القاهرة ما يحتاج إليه ساكن القفر من العقاقير الطبية الضرورية. وسترت النوافذ بستر من القماش الأبيض، وهيأت فراشي بصورة ترضي العين وتريح البدن، فاكتملت لي الحاجات اللازمة لإقامة طويلة.

ونظمت وقتي حتى أفيد منه، تركت الأوقات المخصصة للصلاة في الكنيسة على حالها لأنني لا أملك سلطة لاستبدالها بغيرها، وتصرفت في بقية الوقت كمقتضى الحال. خصص الأسقف عريفاً ضريراً ليعلمني القداس عن ظهر قلب، وآخر ليعلمني مطالعة اللغة القبطية لأتمكن من القراءة، وتعلم هذه اللغة أسهل الأمور على الذي يعرف لغة إفرنجية لقرب الشبه بين الحروف القبطية والحروف الإفرنجية في الشكل وبعضها في النطق

مع تحريف بسيط، فتعلمت القراءة في أيام فساعدتني على حفظ القداس.

وتعجّل الأسقف عملية الترهب، فذهبت إلى الكنيسة مع جماعة من الشباب فحضرنا الصلوات العادية حتى تمت، ثم رقدنا على الأرض في ضجعة الأموات وصلى علينا القس سيداروس صلاة الموتى، ومعنى هذا أننا متنا كأفراد بين الناس وانقطعت صلتنا بالعالم ووقفنا في الدير لنحيا فيه بالروح وحدها.

وما دام المفروض أن الموت قد تمّ فتكون النتيجة أن يصحب الوفاة الجسدية الاسم الذي كان يحمله في العالم صاحب الجسد الذي ناله الموت، ثم يختار الدير اسماً جديداً للراهب الجديد الذي انتقل من عالم إلى آخر ومن حياة إلى حياة جديدة، فاختاروا لي اسماً أطلق علي فصرت به الراهب فيلوثاؤس.

ونظام الدير يقتضي اجتماع الرهبان في الكنيسة كل ليلة عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل للاشتراك في الصلاة، وتنتهي عادة قبيل إشراق الشمس، ثم أعود إلى غرفتي فأنام إلى الساعة التاسعة، فأنتقل إلى المدرسة لأعلّم زملائي الجدد في الرهبنة: المطالعة والكتابة والحساب والتاريخ من الكتاب المقدس (التوراة).

كنت المدرس المفرد في تلك المدرسة الصغيرة. أتناول طعام الغداء مع القس سيداروس وزملائه في أوقات غير منظمة تنتهي عادة عند الساعة الثانية، واستريح إلى الرابعة، ثم اذهب إلى حديقة كبيرة مهملة داخل الدير فأصلح فيها جزءاً هيأته لزراعة بعض أنواع الخضر، وعنيت كثيراً بهذه الزراعة لأنني لم أحتمل

أكل العدس والفول والبصارة بحال مستمرة فصرنا نجد على المائدة هذه الخضر مطبوخة بالزيت.

ومكنتني الخلوة بنفسي في أوقات الفراغ الطويلة من المطالعات والإفادة منها، واستحضرت من القاهرة أدوات التصوير بالزيت فصرت أتلهى بها فرسمت صورة للبطريرك الأنبا كرلس وأخرى للأب انطونيوس أبي الرهبان من زمان بعيد.

طابت لي هذه الحياة الهادئة ووجدت أنواع التسلية في مصادقة القس سيداروس والقمص بطرس، وفي المدرسة والحديقة ثم في المطالعة، وكنت دائباً على حفظ القداس في عجلة بسبب رغبة الأسقف في ترقيتي إلى درجة قس، ولكن هذه الحياة كانت تتخللها مزعجات متنوعة لا يدرك غيري أنها مزعجات تبعثني على الفزع. كان الأسقف فخوراً بوجود شاب متعلم من نوعي بين رهبان ديره، فطاب له أن يعرضني على كل زائر وجيه يزور الدير لأتحدث إليه.

زار سيد بك خشبة الدير مرة (المرحوم سيد باشا خشبة بعد ذلك) فحدثه الأسقف عن وجود رهبان في الدير متعلمين يجيدون اللغة العربية، واستدعاني لمقابلة الزائر الوجيه وجعل سيد خشبة يسألني في قواعد اللغة العربية: متى تكسر إن ومتى تفتح همزة القطع فيها، وسألني عن نون التوكيد، وعن حروف العلة وما يطرأ عليها بعد النواصب والجوازم... و... و... و... فكنت مرغماً على الإجابة مع ضيق صدري من هذا التصرف.

وحدث مرة أن حضر إلى الدير باشمهندس التنظيم لمعاينة عملية في بناء القصر الذي يشيده الأسقف في الدير، وناط بي مرافقة الرجل، واستدعى الحال أن أعدل شيئاً في ملاحظاته لأنها

خاطئة، فحدثت بيننا مناقشة لجأت فيها لعلم الهندسة لإقناعه برأيي فاقتنع، ولكنه حملق في وجهي يتحقق منه ثم قال:

«من المدهش حقا أن تكون راهباً».

فتذكرت أنني أخطأت لأن مثل هذه المجادلة ربما تكون سبباً في كشف سري ولمت نفسي على اندفاعي في هذا السبيل ونسيان حقيقة أمري والظروف التي تقضي عليَّ بالتحصن من كل مظهر يفضح حالي. المعروف عن الرهبان أنهم في ذلك الزمان من طبقة تنقصهم المعرفة، فكان الواجب أن أبقى على مثالهم وأحبس لساني في حلقي.

ولم يكتف الرجل بما قاله لي فكرره للأنبا باخوميوس وجعل يسأل أين تعلمت؟ وكيف رغبت في دفن نفسي في الدير مع ما لي من المعرفة؟ ألح في السؤال عن الأسباب الهامة التي حدت بي للجوء إلى الدير...

وحدث مرة أن هيئة محكمة الجنايات انتقلت إلى قرية مجاورة للدير للمعاينة في جريمة قتل، ولم يسمح لها الوقت بالعودة إلى أسيوط بسبب نقص وسائل المواصلات المريحة حينذاك فأرغمت على المبيت في الدير وهو المكان المفرد الصالح لاستراحة هذه الجماعة فجاءوا إلى الدير ضيوفاً لليلة. وكان بين المستشارين قبطي ينتهي اسمه بلقب سميكة.

ورأى الأسقف زيادة في تكريم ضيوفه دعوتهم لزيارة الكنيسة في الليل لمشاهدة كيفية عبادة الرهبان وصلواتهم فلبوا الدعوة في ارتياح وانتقلوا إلى الكنيسة، وجلسوا بعيداً عن الرهبان على كراسي أعدت لهم. تولاني القلق منذ وصول هذه الهيئة القضائية إلى الدير محاذرة من أن يكون بينهم من

يعرفني. فعقدت العزم على الاحتراس من الظهور أمامهم. لزمت غرفتي وفراشي بدعوى المرض، وهذا العذر يقبله كل عقل سليم مبرراً لعدم ترك الفراش والذهاب للكنيسة. وكان هدف الأسقف من دعوة هيئة المحكمة إلى الكنيسة رغبته في حملهم على سماع وعظ الراهب فيلوثاؤس الخطيب القدير ليقتنع المستشار القبطي بأن بين الرهبان متعلمين من نوع ما في الطائفة من المثقفين.

ولكنه فوجئ بمرض ذلك الراهب الواعظ. ولكن المرض في اعتبار الأسقف صاحب السلطة المطلقة ليس عذراً يمنع المريض من تنفيذ رغبته والذهاب إلى الكنيسة والوعظ أمام الضيوف، فأرسل سيداروس ليبلغ إليَّ أمر الأب باخوميوس. وصاحبي هذا شاب درس في مدرسة الأقباط بالقاهرة حتى كاد يتم الدراسة الثانوية، وكوّن الاختبار عقله تكويناً يمكنه من الفهم والوزن وصدق الحكم في حدود معينة.

وقلت له إنني مريض أتألم ألماً حاداً من الكلية، فكيف أقوى على عدم الشعور بالألم لأتمكن من إلقاء موعظة؟ هل تريدون مني أن أقطع الوعظ في الكنيسة أمام الضيوف ثم أتلوى من شدة الألم وأصرخ، واقتنع القس سيداروس بوجاهة اعتذاري، ولكن الأسقف لم يقتنع فنزل إليَّ ووقف بجانب فراشي وقال:

«سلامتك يا بونا فيلوثاؤس...».

واضطررت للجلوس في الفراش احتراماً للأسقف الجليل ومثلت في جلستي دور الموجوع المتألم ولكنه لم يعبأ بألمي وقال:

«عندنا ضيوف محترمين يا بونا فيلوثاؤس . وفيهم مستشار مسيحي زينا وعاوزين نفهمه إن الدير عمار وأن بين الرهبان

كهنة متعلمين زي الشعب وأكثر مما في الشعب... فيجب أن تتولى الوعظ في هذه الليلة...».

قلت: «مما يؤسف له ويزعجني أنني مريض والمغص الكلوي سبب لي آلاماً لا تطاق، فليسامحني سيدي الأسقف إذا اعتذرت عن تلبية أمره لأن آلامي الشديدة هي التي تمنعني من تأدية هذا الواجب».

فلم يتحول الرجل عن رأيه وقال:

«المسيح سيباركك ويقويك على احتمال الألم حتى الوعظ».

قلت: «المسيح الحكيم الرحيم لا ينكر نوع تأثير الآلام التي لا تطاق لمجرد الرغبة في إلقاء موعظة أمام ضيوف، لقد عجز المسيح نفسه عن احتمال الألم وهو يعذب وتأوه وغاب عن صوابه».

قال في إصرار:

«آلامك من المغص الكلوي لا تضارع آلام المسيح على خشبة الصليب، وأنا على يقين من أن المسيح سيقويك على احتمال الألم لأنك ستؤدي عملاً لخدمة الكنيسة وخدام يسوع».

أدركت أنني بين أمرين أحدهما مرّ فإما أن أصر على ملازمة الفراش بسبب مرضي فأخالف أمر هذا الرئيس الديكتاتور وأنفره مني. وإما أن أتحامل على نفسي وأذهب إلى الكنيسة وألقي العظة في مجازفة قد تكون سبباً في فضح سري. ورأيت الأسقف يتناول فراجيتي من المشجب ويمد يده بها إلي مع ابتسامة حلوة صادرة من نفس طيبة وقلب نقي ليس فيه من العيوب سوى سلامة النية والصفاء.

خذلت بتأثير هذه الطيبة الصادقة وقبلت يد الكاهن الكبير

للدلالة على تأثري بعطفه وارتديت ثوبي، ولففت رأسي بلفافة سوداء من الحرير «شال» وسرت إلى جانب الأنبا باخيوموس إلى الكنيسة فانحرف هو إلى المكان الذي به الضيوف وسرت إلى مكان الرهبان وجلست بينهم.

كانت الكنيسة القديمة مفروشة بالحصر فنجلس عليها، وكانت مضاءة بقناديل يغذيها الزيت، فكان ضوؤها ضعيفاً في ذلك الفناء الكبير، وكان الرهبان جميعاً في ثياب سوداء متماثلة فلا يمكن التمييز بينهم إلا برؤية الوجوه أو سماع الأصوات، فمن المتعذر على عين الغريب أن تميز حافظ نجيب المتنكر بين زملائه الرهبان، لأن تماثل الثياب في الشكل واللون يجعل المشهد قطيعاً تتماثل غنمه في العين.

ولكن تنبه المتهيب المحاذر يسلط عينه على الوجوه الغريبة ليتحقق منها رغبة في الاطمئنان من ناحيتهما إذا ثبت له أنها لا تعرفه، وهكذا فعلت. قضيت برهة تخترق أشعة عيني الظلمة الخفيفة في الركن الذي جلس فيه الضيوف لأفحص وجوههم، فكانت النتيجة الفزع الأكبر...

٦

رأيت إلى جانب المستشارين رئيس النيابة مصطفي بك حلمي فعرفته رغم مرور أعوام طويلة على آخر مرة تلاقينا فيها، كان عمي المرحوم حسن كامل قاضياً في محكمة أسيوط الكلية، وكان مصطفي بك حلمي زميلاً له ويسكن بجواره، وكان القضاة في ذلك الزمن من ذوي الأخلاق الحسنة والاتزان ومن المحافظين على الآداب العامة والتقاليد فكانوا يزورون بعضهم بعضاً في المساء ويقضون وقت الزيارة في منادر.

وكان مصطفي بك هذا يزور عمي وأجلس معهما طول السهرة في المندرة. وقد عرفت الرجل من أول نظرة، فهل تعجز ذاكرته عن أن تعرفني من أول نظرة؟ والرجل رئيس نيابة من ذوي الشرف والأمانة في تأدية واجبات عمله. وقد حلف اليمين ومن واجبه إلقاء القبض عليّ إذا رآني وعرفني. فهل يتذكر صداقته لعمي ويهمل واجبه إكراماً لتلك الصداقة؟ أو يضحي بالصداقة في سبيل الواجب؟ ليس في مقدوري ترجيح أحد الأمرين على الآخر لأن تصرف رئيس النيابة سيكون بتأثير عقله هو وبتأثير المؤثرات المتباينة في نفسه.

ولا مناص من صعودي إلى المنصة لإلقاء العظة المفروضة علي، والمنصة تنصب عليها أضواء شموع كثيرة تبدد الظلام وتنير كل ما حول الواعظ وتمكنه من المطالعة إذا شاء الرجوع إلى الكتاب المقدس لقراءة بعض الآيات لتعلن بنصها الثابت في التوراة أو الإنجيل. وكثرة الضوء تمكن رئيس النيابة من رؤية وجه الواعظ، وذاكرته لا يمكن أن تخونه فتنسيه الوجه الذي انطبع من زمان على لوحة ذهنه، فموقفي إذن خطير ومهدد بنتائج سيئة، ولكن لا مفر منه ولا وسيلة للإفلات.

وحان وقت الوعظ وصعد فيلوثاؤس إلى المنصة الموضوعة إلى يسار الحجاب الذي يعزل الهيكل عن فناء الكنيسة حيث يجلس المصلون، صعد الراهب متمهلاً وهو تحت تأثير هذه المؤثرات التي تبعث على الرعب، ولكنه استجمع قواه وبدأ خطبته، وتعمد أن يلفت إليه أولئك القضاة فجعل موضوع العظة: مبادئ الدين المسيحي هي مبادئ الثورة الفرنسية «حرية ـ مساواة ـ إخاء»، وضمن الموضوع بعض آيات من الكتاب المقدس.

تحوَّل نظر رئيس النيابة إلى وجه الواعظ كما فعل غيره من الحاضرين، وسمعه يلقي عظته أو يخطب بصوت وديع أولاً ثم علا هذا الصوت شيئاً فشيئاً، وانتصب رئيس النيابة ووقف برهة يصغي إلى الخطيب وهو متكئ على ظهر الكرسي، ثم حدَّث جماعته بصوت خافت وخرج من الكنيسة وعين الواعظ لا تفارقه وتحصي عليه حركاته.

قال حافظ نجيب في سره:

«من المحقق أن الرجل عرفني».

وقد جعلته الدهشة ينتصب واقفاً، بتأثير الارتباك والرغبة في

استقرار عقله على حال واحدة: هل هو رئيس نيابة؟ هل هو صديق المرحوم حسن كامل؟

كان عقل حافظ منصرفاً إلى النزاع القائم بين الواجب والصداقة في نفس رئيس النيابة، بينما لسان الواعظ تتدفق منه العبارات بليغة والمعاني واضحة سامية، وبينما الآذان تصغي لنوع جديد من الوعظ العصري يلقى من منصة رجل دين راهب في دير أهله في عزلة عن العالم وعن الأحياء وعن السياسة والساسة. زاد فزع حافظ بعد خروج رئيس النيابة، وجعل يعلل الدافع الذي دفعه لترك زملائه مبارحة الكنيسة أثناء وعظ الواعظ القادر الجاد في خطبته. هل خرج ليجمع قوة من الخفراء ليلقي القبض على الشقي الهارب من العدالة المتنكر في زي راهب؟ هل يحضر القوة ويحصر الكنيسة، ثم ينتظر خروج الرهبان بعد إتمام الصلاة ليتمكن من القبض على الشقي خارج الباب؟.. هل؟ وهل؟ وهل؟

تتوالى هذه المشاغل على فكر حافظ بينما الواعظ يوالي عظاته وتتدفق معانيه وعباراته حتى انتهى من خطبته ونزل من المنصة يريد الجلوس بين زملائه الرهبان ولكن خادماً انحنى على أذنه وأسر إليه أمراً من الأسقف يدعوه للحضور لمقابلته. لابد من الإطاعة في الحال وتنفيذ الأمر، فذهب الراهب لمقابلة رئيسه الأسقف وهو إلى جانب ضيوفه، فقابلوه مقابلة حسنة، وأظهروا إعجابهم بالنظريات والمبادئ التي ذكرت في العظة التي ألقاها.

نفذ الأسقف رغبته في إسماع ضيوفه عظة الراهب الواعظ، وسمع منهم الثناء عليه، لقد أثبت لهؤلاء المثقفين أن في الأديار

متعلمين ومثقفين، فلم يعد هناك حاجة لبقائه معهم في الكنيسة فدعاهم للانتقال إلى مسكنه الخاص.

وأرغمت بالأمر على مرافقتهم لتناول الطعام معهم وظنوا أن هذا تكريم لي أما أنا فزادت مخاوفي من نتيجة هذا التصرف بسبب وجود رئيس النيابة، لأن الظروف ستجيء به إلى هذا المجلس وتجمعه به ولو على المائدة. وسأل المستشارون عن زميلهم فقال لهم الخادم إنه نام بسبب التعب وأوصى بعدم إيقاظه لأي سبب، فاطمأننت وهدأ اضطرابي، وعلمت في الصباح بعد تيقظي من النوم أن الجميع رحلوا عن الدير مبكرين...

وحدث أن جماعة من الرهبان الجزويت زاروا الدير في يوم قائظ فناط بي الأسقف مرافقتهم لمشاهدة الكنيستين والبرج وسائر ما يريدون رؤيته فسرت معهم كدليل وكان بينهم من يجيد اللغة العربية فجعل يحدثني بها كلما أرادوا الاستفهام عن شيء. كانوا يرون الرهبان يتكلمون القبطي فاعتقدوا أنه لا يوجد بينهم من يعرف لغة من اللغات فلجأ بعضها إلى اللغة العربية وهي المفردة التي يجوز أن أفهمها، وصرت أجيب على الأسئلة بنفس اللغة فسلطوا ألسنتهم في ملاحظات صادقة على ما تقع عليه عيونهم مما لا يوصف بأنه نظافة أو نظام، وسمعت أحدهم يقول:

«أنا شديد الظمأ... ولكنني أفضل الموت ظمأ على شرب قدح ماء من هذا المكان القذر».

ولما انتهى الطواف عدت بالجماعة إلى الوسية وفتحت لهم باب غرفتي الخاصة فاستولت عليهم الدهشة لأنها كانت عظيمة ومنظمة واندفعوا إلى آنية الماء المبرد فشربوا منه أقداح نظيفة.

ولاحت من أحدهم لفتة إلى المكتب فرأى عليه كتاباً باللغة الفرنسية مفتوحاً ومثبتاً بثقل من البلور فتناول الكتاب وتحقق منه قال لزملائه في تعجب:

«كتاب في اللاهوت باللغة الفرنسية».

ثم سألني: «لمن هذا الكتاب؟».

قلت: «لي».

قال: «وهل تعرف الفرنسية؟».

قلت: «نعم».

قال: «وقد سمعت كل ملاحظاتنا عن عدم النظافة؟ إذن نحن نعتذر لأننا كنا نجهل أنك تفهم حديثنا»...

قلت: «لقد كانت الملاحظات وصفاً صادقاً لما وقعت عليه العيون، وقائل الحق لا يفرض عليه الاعتذار ولو كان للحق مرارة».

فجعلوا ينظرون إلى بعضهم كأنهم يتشاورون ثم أشار إليهم أحدهم بيده وجلس فجلسوا جميعاً متربصين لما سيكون بيني وبين زميلهم من الحديث. كان الرجل في أول الحلقة الخامسة صبوح الوجه ذا عينين صافيتين براقتين وله لحية خفيفة ظللت ذقنه وصدغيه. وله صوت عذب واضح له موسيقى تدل على الرجولة وعلى قوة العزم.

نظر إلى وجهي طويلاً يتحقق منه ثم قال:

«أنت أرثوذكسي؟».

قلت: «نعم».

قال: «كيف يتمكن العقل من إدراك ما قررته الديانة المسيحية

من أن الأب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم في جوهر واحد هو الله؟»

قلت: «كان الله موجوداً من الأزل قبل وجود الكون والكائنات وهو الذي خلق ويدلون على الله في هذه الفترة بكلمة أب فأب يقصد بها الإله الخلاق. وجاء الابن للتكفير عن خطيئة الإنسان ليستحق الغفران والرحمة فعمل الابن وصفه الرحمة، وصفة الابن أنه الرحيم».

«ولما اكتمل خلق الكون والكائنات والقوانين الطبيعية صار عمل الإله في هذا الكون الحكمة ووصفه أنه الحكيم الرحيم... فهذه الصفات للجوهر الواحد لا أجزاء مجتمعة في هذا الجوهر».

أصغى إلي الرجل في انتباه تام وسكون، فلما انتهيت من الإجابة على سؤاله حملق في وجهي وهز رأسه ثم قال:

«يلوح لي انك تفكر بعقيدة المسلمين»...

قلت: «هذا ما يقرره العقل والمنطق ويقرب الذهن إلى فكرة الوحدانية التي يسلم بها الجميع».

وانصرف الزائرون بدون مقابلة الأسقف فحمدت الله لأن إجابتي المنطقية قد لا ترضي أحداً إذا شرحت لغير ذي معرفة أو حرية في التفكير، وعلمت بعد ذلك أن الذي وجَّه إلي هذا السؤال هو الأب كرتيه رئيس الجزويت...

٧

خرجت يوماً مع الأسقف إلى الفضاء الواقع أمام باب الدير، فجعل يتحدث عن الرمال التي تجيء بها الرياح من الصحراء فتغطي هذا الفضاء الفسيح وتعطل الانتفاع به، قال:

«لو أمكن منع الرمال من تغطية هذه الأرض يكون في المقدور غسلها وإزالة الطبقة الرملية السطحية عنها فتنكشف الأرض وتصلح للزراعة وتستثمر وتحسن مدخل الدير؟».

قلت: «الأمر سهل جداً».

قال: «هل يمكن وقف الرياح التي تحمل الرمال؟».

قلت: «إنما يمكن منع الرمال من الوصول إلى هذا المكان».

فضحك الرجل وقال:

«هل تريد تثبيت الرمال في أماكنها فلا تنقلها الرياح؟».

قلت: «لا إنما يمكن منع الرمال المكتسحة من غمر هذا الفضاء من الأرض بعملية بسيطة يقام سور من الطوب النيئ على ارتفاع قليل على طول الضلع الغربي للأرض فإذا حملت الرياح الرمال تجد أمامها هذا السد فتقف عنده».

فوقف الرجل يفكر برهة في صمت وسكون ثم عاد إلى الدير، وفي النهار الثالث لهذه الحادثة رأيت كتيبة من العمال والبناءين يتولون بناء السور فأدركت أن الأسقف الجليل رجل عمل حازم قوي الإرادة.

وسافر القمص سيداروس إلى أسيوط لمعالجة أنفه ثم انتقل إلى القاهرة، وكتبت إليه مرات لأطمئن على صحته فلم يعن بالإجابة على كتبي وكتب لغيري فاستأت من استخفافه بي، وعاد بعد أيام من سفره فخرج الرهبان لاستقباله بالأعلام والدفوف والتراتيل كما يفعلون في استقبال الأسقف نفسه ولم أكن على علم بموعد حضوره للدير، وكنت في الحمام وقت وصوله فلم تتح لي فرصة الخروج معهم لاستقباله فتوهم أنني قصرت فيما يظنه واجباً علي له.

وحاولت مقابلته في ذلك النهار مرات فلم يمكنني من ذلك حتى جمعتنا الصدفة في النهار الثاني فاعتذرت وبينت أسباب اعتذاري، ولكن الأسباب التي ظننتها معقولة لم تمح من نفسه تألمه مما يعده ترفعاً مني وتعالياً عليه، فلم أعبأ به... وبدأت المعاكسة في اضطراب مواعيد تناول الطعام على المائدة التي تجمعنا، أدركت انه يتعمد ذلك، فنظمت مطبخي ومواعيدي وصرت أتناول غذائي في غرفتي، فزاد هذا التصرف في الحنق علي.

واستحضرت من العاصمة أجراساً كهربائية لأتمكن من استدعاء خادمي أو الطاهي بدون السعي إليهم وأرغمتني الكياسة على وضع مثلها في حجرات الأسقف والقمص سيداروس والقمص يوحنا سلامة وفي غرفة الكتبة ليدعوهم الأسقف حين يشاء.

وجعلت البطاريات في زاوية من غرفتي ولم يرض سيداروس عن هذا التصرف وطلب مني أن أضع هذه البطاريات في القسم الخاص به. وصارحني بأنه يخشى أن أعطل أجراسه إذا حدث بيننا خلاف، فكانت هذه المصارحة الوقحة سبباً في امتناعي عن تنفيذ رغبته، وزاد الامتناع في حنقه.

ظهرت في تلك الأيام رسالة الشيخ عبد العزيز جاويش «الإسلام غريب في بلاده».فزلزلت البلد وتركت أثرها السيئ في نفوس جميع الأقباط وانفض شيوخهم وشبابهم عن الحزب الوطني وانقسمت الأمة إلى فريقين يتجافيان بل يتخاصمان، فاشتدت المعركة ورأيت من التعقل أن ألطف من غضب الشيخ عبد العزيز واندفاعه في هذا السبيل الذي يهدم وحدة الأمة، فكتبت إليه بتوقيع الراهب فيلوثاؤس ألطف من ثورة نفسه وأنبهه إلى نتائج هذه الحملة القاسية.

وفعلت كتبي في نفسه فعل المرطبات، ارتاح للأسلوب اللين اللطيف ووزن الأسباب التي ذكرتها ليكون مقتضاها وقف المخاصمة ونشر الرسائل القاسية التي تفعل النار في الهشيم. وكتب إليَّ الرجل وهو لا يدري أنني حافظ نجيب أحد معارفه المعجبين بقلمه وخطبه بعد خروجه من وزارة المعارف مغضوباً عليه، كتب إليَّ في لين ورفق وتعقل، ورددت عليه مرات فتوثقت مودة جديدة بين الراهب في ديره والكاتب في جريدته. ونشر «اللواء» مختارات من تلك الكتب التي تدعو للسلام والائتلاف.

أما السياسة الداخلية في الدير فقد وجهها القمص سيداروس إلى ناحية عدائية رأى جماعات من الزائرين يحضرون إلى الدير

من نواحي شتى لرؤية الراهب فيلوثاؤس لأن الإشاعات والمبالغات صوّرته أنه يشفي من الأمراض... وسبب هذا الوهم أنني كنت أملك أنواعاً من القطرة والمراهم والملينات وبعض العقاقير الطبية الضرورية لأنني معزول عن العالم فإذا لجأ إلي من يحتاج للقطرة له في عينه أو من يحتاج للملين سهلت له حاجته، أو... أو...

فضاعفت الإشاعة هذه الإسعافات البسيطة وحولتها إلى معجزات تشفي المرضى من أدواء مزمنة... وكنت أغلي الماء ثم أرشحه لأشربه فحولت الإشاعة هذه العملية الغريبة على الجهلة والساذجين إلى أعمال كيميائية للحصول على الذهب... ووجدوا بعد خروجي من الدير كؤوساً مدرجة وأنابيب اختبار ومبرداً بردت به بعض المعادن، فقالوا إنني أبرد به ذهباً أخلطه بالرمل ثم أستخرجه منه لأوهم رئاسة الدير بأنني اكتشفت الذهب في الصحراء.

كان الجهل يعلل تصرفاتي الطبيعية في حدود إدراكه الخاطئ ويطلق هذا التعليل إشاعة، وتولت السذاجة أو الخبث هذه الإشاعات فضاعفتها وأرسلتها خرافات لها عند الأغبياء وناقصي المعرفة قوة الحقائق. أنا رجل متعلم أعرف أن الذهب لا يوجد برادة في الرمل إنما يوجد في بطن الأرض ويستخرج بوسائل عملية معروفة لكل متعلم تثقف فليس من المعقول أن ألجأ إلى خلط ذرات الذهب في الرمل لأخدع العقول بأنني اكتشفت الذهب.

كنت أعلم يقيناً أن الأسقف على اتصال بالأستاذ توفيق دوس وبجماعة من كبار رجال الأقباط الحاصلين على المعرفة

والثقافة لو حاولت خدعه بحيلة يتحتم أن أختارها عملية مدعمة بكل ما يؤيد صحتها حتى لا تجد اعتراضاً عليها من العقول السليمة يكشفها ويفضح أمرها أنها خدعة أو حيلة.

فالجهل هو الذي خلق إشاعة حكاية خلط برادة الذهب بالرمل لاستخراجه للإيهام بأنه اكتشاف لم يدع الأسقف هذا الادعاء في حياته، وكذب تكذيباً قاطعاً هذه الخرافة ونفي عني أية محاولة للحصول على نقود من الدير سوى الريال الذي يصرفه لي كمرتب شهري. ولكن تكذيب الأسقف للذين سألوه في مجالسه الخاصة لم ينشر في الصحف التي نشرت حكاية الذهب وبالغت فيه وفي غيرها من الاتهامات الباطلة.

غاب الأسقف عن الدير واستقر في القاهرة أياماً طويلة بدار البطريركية بسبب مرضه وحاجته للعلاج. وبدأ القمص سيداروس تصرفات متنوعة لتنغيص حياتي فاستخففت به وبوسائله الريفية المكشوفة. لأنني على يقين من مركزي في الدير وأنه قوي لا تؤثر فيه الصبيانيات.

وكنت أتصل بالجهة السياسية التي نصحت لي باللجوء إلى الدير بالمراسلة، أرسل كتبي بعنوان رجل مسيحي كاتب بمكتب إسماعيل الشيمي المحامي، وكانت الإجابات ترسل إلي وعليها توقيع عمتي المسيحية، ولكن مكتب البريد موجود في القوصية وهي على بعد ١٠ كيلو متراً تقريباً من الدير، فيقصد إليه الساعي موفداً من القمص سيداروس ليسلم المراسلات، فتوضع في كيس له مفتاحان أحدهما في الدير والثاني في مكتب البريد فيستلم سيداروس جميع الرسائل ويوزعها على الرهبان.

ولو خطر لهذا الخصم الحانق إخفاء رسالة من رسالتي وفضها

يكون في مقدوره الاطلاع على أسرار غاية في الخطورة لأنها في الأيام الأخيرة كانت تلح علي بترك الدير والعودة إلى القاهرة لتنفيذ أغراض سياسية لتلك الجهة. اختمرت في رأسي فكرة اختياري مطراناً للحبشة وكان من الميسور تحقيق هذه الأمنية إذا خلا ذلك الكرسي من صاحبه الشيخ الطاعن في السن وكانت جميع ظروفي تؤهلني لهذا المنصب الديني الكبير، ولي سند قوي من نفوذ الأنبا باخوميوس أسقف الدير المحرق ورغبته في الارتقاء بي إلى أسمى منصب يخلو كرسيه من صاحبه.

وقد شق عليّ ترك الدير والعودة إلى خضم الحياة المضطربة بعد الهدوء الذي ألفته في عزلتي وراء أسوار الدير، وبعد الجهود التي بذلتها أثناء إقامتي هناك لحمل الجميع على الاعتقاد بأنني راهب زاهد في الدنيا على جانب عظيم من التقوى والصلاح أتعبد حباً في العبادة لاكتساب رضا الإله، لا رغبة في الإعلان عن النفس ولا طمعاً في المراتب الكهنوتية.

وقد عارضت الجهة التي تطلب مني قطع صلتي بهذه الحياة الهادئة والعودة إلى العالم المضطرب الحافل بشتى الأخطار والمنغصات، وصارحت تلك الجهة بأنني هانئ في عزلتي وقد أفدت منها الاطمئنان والسكون وتحررت من أنواع الضعف الخلقي والغريزي التي كانت تدفعني لشرب الخمر وإلى شتى مزالق الانحدار.

وحدث في أحد تلك الأيام أنني أرسلت خادمي الخاص ليشتري حاجات مطبخي من القرية فلما عاد من السوق منعه بواب الدير من الدخول بأمر القمص سيداروس، فحرمني من طعام ذلك النهار. وأرسلت تاوضروس أفندي ميخائيل وكيل

الدير الزراعي لسيداروس يسأله عن سبب هذا التصرف فأبى، فصرت أمام حالين فإما أن أخضع لديكتاتورية راهب ليس له سلطة رسمية يستغل غياب الأسقف لينغص حياتي، وإما أن أثور على سيداروس أقابل تحديه بمثله وأحدث ثورة في الدير بالاستعانة عليه بخصومه من الرهبان وهو مكروه من الجميع. كان إلى جانبي في غرفتي في ذلك الوقت القس بطرس (مطران سوهاج الآن) فجعل يلطف من غضبي ويضرب الأمثال بتصرفات سيداروس مع غيري وصبر الجميع على استبداده وغطرسته.

ولكن هذه النصائح لم تكف لإسكات غضبي لأنني كنت في فورة الشباب العصبي المزاج ثائراً على كل تصرف ظالم، فعقدت العزم على ترك الدير في الحال، أغلقت غرفتي الخاصة وودعت صديقي القس بطرس وقصدت إلى الباب الخارجي للدير، وصادفت في طريقي صبياً من الخدم يدعى مرقص راكباً فرساً، فركبت الفرس وبارحت الدير متجهاً على الجسر لناحية القوصية.

لم يعلم أحد من أهل المكان بالمشادة التي حدثت بيني وبين سيداروس، ولو علموا لمنعوني من الخروج مداجاة للمتغطرس، ولكن الخبر وصل إليه بعد انصرافي بوقت قصير، فأرسل في إثري خفيراً يدعى «بسل» مشهوراً بالقوة والفتوة ومعه جماعة من أنصاره يحملون النبابيت، لحق بي المطاردون وبسل على ظهر فرس سريعة فاعترضت طريقهم على سطح قنطرة فوق الجسر الذي يفصل بين المزارع المنخفضة.

سألت الجماعة عما يطلبون. وتولى الإجابة عنهم الخفير

بسل، قال إنه بأمر القس سيداروس رئيس الدير يأمرني بالعودة معهم بدون مقاومة، وكان اعتراضي: أن القس المذكور ليس رئيساً للدير، وأنه راهب ككل الرهبان ليس من حقه الأمر وليست علينا الطاعة، فقال:

«إذن سنأخذك إليه بالقوة».

وهمّ بالهجوم عليّ وهو يشرع نبوته الطويل، ولكنه فوجئ بمسدسي يصوب لناحيته وسمع صوتي يحذره من الاقتراب مني أو أطلق عليه النار، فكبح جماح فرسه وارتبك... عقدت العزم على إطلاق النار على كل من يحاول الاقتراب مني لأن من عادة أولئك الريفيين الاعتداء بعصيهم الغليظة في كل معركة، ولم يكن في مقدوري احتمال ضربة واحدة من أي نبوت، فإطلاقي النار لحماية النفس تصرف مشروع، فقال بسل الشجاع:

«أنت إذن وشانك، إنما يجب أن ترد لنا الفرس لأنها ملك الدير».

قلت: «سأركب الفرس حتى أصل إلى نقطة البوليس بالقوصية ثم أتركها هناك فترد إلى الدير، أو ترافقني على فرسك إلى نقطة البوليس فأسلمك الفرس هناك».

ومر بنا في تلك اللحظة الشيخ حنا منصور عمدة السراقنة فأوقف دابته وحاول إقناعي بالعودة إلى الدير فرفضت فأشار إلى الخفير بمرافقتي إلى المحطة بنزالي جانوب واستلام الفرس هناك وخضع الخفير لهذه المشورة مرغماً وصرف جماعته ولكنني رفضت أن يسير خلفي وأمرته بالسير أمامي لأتقي غدره وأذى نبوته.

وصلنا إلى القوصية فوجدت ضابط البوليس محمود أفندي الشناوي جالساً مع بعض أصدقائه أمام باب نقطة البوليس، فسلمت الفرس للخفير فعاد بها إلى الدير. وقصصت الأمر على الضابط فأضافني في بيته تلك الليلة، وسافرت نهاراً إلى القاهرة.

قصدت إلى دار البطريركية حيث يقيم الأسقف كنت أريد أن يعلم السبب الذي حداني إلى ترك الدير محاذرة من تشويه الحقيقة عندما يروى له الحادث ولكنه عمد إلى منع اتصالي به منفرداً. كان يخلو بنفسه في القسم الخاص به ويكتفي باستدعائي وقت تناول الطعام فأجد على مائدته غيره رجال الكنيسة وكان ينصرف عنا قبل انتهائنا من تناول الطعام فلا أتمكن من محادثته.

كان غرضه من هذا التصرف انتظار كتاب سيداروس يشرح فيه سبب نجوعي عن الدير، فحملني هذا التصرف بمكاشفته على المائدة برغبتي في ترك الدير والرهبنة، قال:

«يحسن أن تنتظر حتى يتم علاجي فنعود معاً إلى الدير لأفحص هذه الحادثة بنفسي».

قلت: «إنني في ضيق من بقائي كل الوقت محبوساً في غرفة ضيقة في هذه الدار».

قال: «في مقدورك الذهاب إلى دير الأنبا أنطونيوس بناحية بوش والبقاء به، وسأدعوك بكتاب لمرافقتي في السفر يوم عودتي إلى الدير».

وكنت أخشى أن يراني أحد معارفي في دار البطريركية فيفتضح أمري، ارتحت لفكرة الاختفاء في دير بوش بعيداً عن الأنظار، وتعجلت في القصد إلى ذلك الدير، فرحب بي الأنبا

مرقص الأسقف وأضافني في القسم الخاص به. ولم تكن للرجل أخلاق الأنبا باخوميوس ولا حزمه إنما كان رجلاً طيب القلب إلى أقصى حدود الطيبة، فترك الرهبان يعيشون في الدير كما يعيش كل قروي في ضيعة من ضياع كبار الملاك في مسكن خاص به جميع حاجات المعيشة الريفية.

وجاء موعد الصلاة في الكنيسة في فجر يوم الأحد، والكنيسة خارج الدير إلى جانبه، وكانت للجميع للرهبان وللأهالي من أبناء الطائفة فأمرت بأن أتولى الوعظ إلى ذلك النهار ففعلت. أدرك السامعون أنني أعظ بأسلوب يغاير ما ألفوه من حافظي الآيات، وأضمن كلمتي شيئاً عن الأخلاق والفضيلة وأهدف إلى غايته فهرعوا إلى الأسقف يرجون منه استبقائي في الدير، واندفع الأسقف لتحقيق رغبة الجماهير فكتب رسالة إلى الأنبا باخوميوس أسقف الدير المحرق ينبئه بعزمه على ترقيتي لدرجة قمص ورجا منه أن يشرف بوش بزيارته ليحضر حفل رسامتي.

وثار غضب أسقف الدير المحرق لأنه حريص على استبقائي في ديره فشكا إلى البطريرك من اعتداء الأنبا مرقص عليه ومحاولته اغتصاب الراهب فيلوثاؤس منه، وصاحب الغبطة البطريرك يحترم الأنبا باخوميوس كل الاحترام فأرسل رسالة برقية إلى أسقف بوش يأمره بإرسال الراهب إلى البطريركية في أول قطار، واستاء الرجل من تصرف زميله أسقف الدير المحرق، ولكن أمر البطريرك يجب أن يطاع فأمروني بالعودة إلى مصر لتتم هذه المقابلة ففعلت مكرهاً.

وقابلت البطريق. رأيته رجلاً طاعناً في السن هدمت

الشيخوخة بدنه، توجز صفاته في كلمات قليلة: كان رجلاً طيب القلب، حسن النية، صالحاً، ونسب إليه المعجبون به أنه كان من أصحاب الكرامات...

أرسل الرجل الصالح بعض الكهنة إلى أثينا لدراسة اللاهوت، وعينهم في مناصب كبيرة بعد عودتهم ، ولكن الغرور حدا بأحدهم إلى نشر أفكار وآراء دينية تخالف عقيدة الأرثوذكس أو ظنها البعض هرطقة فغضب عليه البطريرك وجرده من رتبه الدينية الكبيرة وفصله من الكنيسة وتركت هذه الحادثة أثرها في نفس الأنبا كرلس فصار حانقاً على أي راهب له نصيب من المعرفة والثقافة، لأنه اعتقد أن التعليم يفسد العقيدة ويحول الإنسان المتعلم عن مبادئ الدين المسلم بها وعن العقيدة التي يتحتم الإيمان بها دون بحث ولا فهم ولا اقتناع.

وضعني البطريرك في صف الذين يحنق عليهم لأنه سمع أن لي نصيباً من المعرفة والثقافة والقدرة على الوعظ بصورة حملت الجميع على الإعجاب، فقابلني مقابلة خشنة، وفاجأني بهذه العبارة قال:

«انت يا مسيو تعرف فرنساوي وإنكليزى وغلباوي.... لا يدخل الراهب ملكوت الله بالغلبة إنما بالإيمان والصلاح ومن المستحيل أن تنال منصباً دينياً كبيراً وأنا على رأس الكنيسة الأرثوذكسية.... امش يا مسيو اخرج من قدامي».

فخرجت من غرفة الرجل ومن دار البطريركية، وعقدت العزم على التجرد من ثوب الرهبنة في الحال لأن الضجة التي حدثت بسبب مشادة الأسقفين لفتت إلي الأنظار ومركزي الحرج يستدعي الاختفاء والتستر وعدم الظهور.

٨

ظننت أن خلع ثياب الرهبنة واستبدالها بملابس عادية أمر سهل ميسور، فلما صرت في الطريق تولتني الحيرة لأن ثوب الرهبنة يحرمني من الجلوس في القهاوي، ويمنعني من النوم في الفنادق، ويلفت إلي النظر إذا تناولت الطعام في مطعم محترم. وليس في المقدور دخولي محل تجاري لشراء ملابس إفرنجية وخلع ثياب الرهبنة في ذلك المكان لأن العملية تبعث على الشك في صاحب هذا الثوب.

لم تبعثني مطاردات البوليس على الحيرة والارتباك في أي حين ولكن حيرني ذلك الثوب الأسود المفروض له الاحترام وعليه القيود والتقاليد التي تستبقي له هذا الاحترام بين الناس. وأخيراً ركبت القطار إلى المنيا، فصادفني في عربتي محام شاب من الأقباط اسمه عازر جبران... وعرفت منه أنه يقيم في مغاغة.. (هو الأستاذ عازر جبران عضو مجلس الشيوخ الآن).

تبادلنا الحديث فأظهر تعجبه من وجود راهب مثقف في الأديرة القبطية، وعجبت من هذا التعجب. قلت:

«من المستحيل استغناء الطائفة القبطية عن رجال الدين ورؤساء الكنائس، فلماذا لا تنشط الهمة لتعليم هذه الفئة وترقية مداركها بالمعرفة والثقافة لتصير يوماً ما في مستوى ثقافة الشعب؟».

وكان جوابه: «هذه أمنية الجميع ولكن الأديرة القبطية مستقلة يتولى إدارتها مطارنة أو أساقفة لا يرون هذا الرأي بسبب نقص المعرفة وعدم إدراك وجوب الارتقاء بالتعليم، فهم العقبة الكأداء في ترقية رجال الدين بينما الشعب ناهض في نشاط إلى تحصيل العلوم والمعرفة للارتقاء، فنشأ من هذا الخطأ الفارق العظيم بين الإكليروس والشعب».

ولم يخف ارتياحه لاتجاه أمثالي المثقفين إلى الرهبنة، وزال هذا الارتياح عندما صارحته برغبتي في ترك الرهبنة بسبب التصرفات الخلقية التي نغصت حياتي في الدير، وأكدت له أنني قاصد إلى المنيا لخلع ثوب الرهبنة ورده إلى الدير، فنزلنا في فندق واحد، وجاء لزيارته هناك سكرتير نيابة المنيا وهو قبطي فاستعنت به على شراء ملابس إفرنجية، وعلى استدعاء شيال من المحطة سلمناه ثوب الرهبنة والعمامة وأرسلناه إلى الدير ليسلم الملابس إلى القمص سيداروس.

وأرسلت رسالة إلى جريدة الوطن شرحت فيها الأسباب الكاذبة التي دفعتني لدخول الدير والأسباب الصحيحة التي أرغمتني على ترك الدير والرهبنة، وذكرت بها أسفي لحرماني من رعاية الأسقف وعطفه، ومن الرهبنة التي ظننتها سبيلاً لاطمئنان النفس وارتياحها في عزله عن العالم وعما فيه من المنغصات.

واستغل جندي إبراهيم هذه الرسالة فأعلن عنها قبل نشرها

لينال شيئاً من مال الأسقف، وظن هذا الرجل الطيب أنني بتأثير تألمي من سيداروس ومن تصرفاته كتبت ما يسوئ سمعة الدير، فساوم صاحب جريدة الوطن للاطلاع على الرسالة قبل نشرها، وأسف على ما دفعه لأنني كتبت ما ترتاح له كل نفس حتى نفس سيداروس...

تركت رسائل الشيخ عبد العزيز جاويش أثرها السيئ في رجال الطائفة القبطية فانفصلوا عن الحزب الوطني... واستاء رئيس الحزب من هذه النتيجة لأن ذلك الزعيم الوطني النزيه كان أول مصري فكر في لمّ شمل الأقباط والمسلمين في اتحاد لحمته الجنسية المصرية والروح الوطنية، ولم يكن من الحكمة في ذلك الحين معارضة الشيخ عبد العزيز جاويش لعدة أسباب منها: أنه كان المحرر الأول في جريدة اللواء وأنه أشد الناس سخطاً على وزارة المعارف بسبب فصله من عمله فيها.

وأنه بسبب حملاته الشديدة على الحكومة تمكن من اكتساب ثقة الرجال وإعجاب الشباب فصار معبود الجماهير والوطني الأول في اعتبار الجميع، فالمعارضة التي تسبب غضب الشيخ تؤدي إلى خروجه من الحزب الوطني ونفور أنصاره، فتكون النتيجة انقسام الحزب وضعفه بدلاً من تقويته ليجمع الشطر الأعظم من الأمة إلى صفوفه. أراد الزعيم الرشيد تفادي هذه النتيجة، وتلطيف ثورة الشيخ جاويش بالملايينة واكتساب مودة الأقباط وثقتهم بالحزب الوطني والرضا عن أهدافه، فعمد إلى حيلة.

طغى عليّ اسم راهب الدير المحرق فحماني من السؤال عن عائلتي وبلدي وكانت الصحف القبطية تهاجم في عنف الأديرة

القبطية بسبب خروجي من الدير فصار اسم الراهب حديث الجميع. واستغل محمد بك فريد هذه الضجة فدفع لي مالاً لأنفق منه لتحضير حفلة عشاء أدعو إليها جماعة من عظماء الطائفة القبطية ورئيس الحزب الوطني والشيخ عبد العزيز، فتمت الحفلة في فندق ناسيونال بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٠٨، وكان من بين المدعوين المرحومان الأستاذان مرقص حنا وويصا واصف.

خطبت أرحب بالزعيم الكبير وبالشيخ جاويش الكاتب ولفتُّ نظر الجميع إلى التضحية في سبيل الوطن فالواجب يقتضي التآلف والمؤازرة وهما لا يتوافران إلا في الجو الهادئ وفي إخلاص النفوس الطيبة المطهرة من كل بواعث الاستياء والتذمر. ووضعت أمام الشيخ جاويش قدراً كبيراً من المال وصارحته بأنه إعانة مني كقبطي للمعاونة في مشروعي عين زمزم وتقوية الجيش العثماني وكان يتولى جمع الإعانات للمشروعين...

كان الشيخ جاويش سريع الغضب ولكنه طيب القلب، فأثرت فيه هذه المجاملة وانطلق يخطب بدافع الانفعال النفسي، فذكر الأسباب التي أرغمته على كتابة رسالته: «الإسلام غريب في بلاده» دفاعاً عن الدين الإسلامي الذي عدا على كرامته كاتب صحفي من الأقباط، ثم قال:

«إن سكوت الغضب وهدوء الأعصاب جعله يعتبر ذلك الاعتداء قد وقع من فرد واحد، كاتب نكرة لم يشاركه في حماقته غيره من أبناء الطائفة الشقيقة، فهو إذن يعتذر للأبرياء من ذلك الجرم ويصافح الراهب فيلوثاؤس أو الخواجا غالي جرجس دلالة على التسامح والرغبة في التقوية بين شطري الأمة.

ونشر الشيخ المحترم في جريدة اللواء بتاريخ ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٠٨ تحت عنوان «الرجال بالأعمال» كلمة عن الخواجا غالي جرجس وعن روح التسامح التي دفعته كقبطي للاشتراك في معاونة مشروعي عين زبيدة والجيش العثماني، ونجح محمد فريد في خطته وبدأت علاقات ودية جديدة بين بعض إخواننا الأقباط المثقفين والحزب الوطني، وهدأت الأفكار الثائرة والأقلام الجامحة على صفحات الجرائد.

لقد مات محمد فريد العظيم مشرداً بعيداً عن وطنه، ولست أعرف أحداً من أهله، ومن حق ذلك الوطني الصادق الوطنية أن أعلن عن رأيي فيه بأعلى صوت.

عشت بعد الإدراك التام والتمييز نصف قرن تمير بي الأحداث ويزن ميزاني المستقل تصرفات الذين ظهروا في عالم السياسة طول ذلك الزمن، ولكنني لم أجد بينهم من تصح مقارنته بمحمد فريد، لا في الأخلاق، ولا في الرجولة، ولا في النبل ولا في الوطنية البريئة، فالمقارنة بينه وبين أي إنسان آخر فيها غبن على ذلك الوطني العظيم منَّ الله عليه برحمته...

٩

كان جندي إبراهيم صاحب جريدة الوطن صحفياً يكاد يكون أمياً، ولكنه كان جريئاً ومغامراً، فشقّ عليه أن يتبرع الخواجا غالي جرجس ببعض المال لمشروعي عين زبيدة والجيش العثماني، وتوهم أنني سفيه يمكن استدرار المال منه بسهولة كما يستدره من رؤساء الأديار فعقد العزم على الاتصال بي بدافع من الغباء والطمع.

كان يعرف أن خليل حداد صديقي ويتصل بي فحاول الوصول إليّ عن طريقه، وخليل على يقين من استحالة الأمر لأن جندي إبراهيم يعرفني معرفة شخصية دامت طويلاً، فصارح الرجل بتعذر هذه المقابلة لأنني كراهب ترك الدير أرفض بتاتاً الاتصال برجال الصحافة محاذرة نشرهم ما لا أريد نشره حرصاً على كرامة رجال الدين من اعتداء الأقلام السفيهة.

ولكن الطمّاع لم يقتنع بهذا العذر فعمد إلى مضايقتي في فندق ناسيونال، كان يحضر مرات في اليوم الواحد يطلب مني هذه المقابلة، ويلح على الخدم ليعرف منهم مواعيد خروجي أو

حضوري ليتمكن من مقابلتي مفاجأة، فذهبت مساعيه هباء، بسبب حرصي منه.

عدت إلى الحياة الصاخبة متحرراً من ثوب الرهبنة ومن حبس الحرية، فامتد بصري إلى ما في الحياة من المشاهد البديعة وأنواع الحسن المعروض للأنظار فصادفت فتاة يونانية شريكة دجال فرنسي يدعي أنه منوم مغناطيسي، كانت حسناء رشيقة لها جاذبية فارتحت لمجالستها، وسافرت مع الدجال إلى الصعيد فرحلت معها حتى أسيوط، فكنا لا نفترق إلا في الوقت المخصص لعملها.

وكنت أطلب إلى المنوم تنويمها في غرفتي لأسالها عن أسرار خاصة بي، ثم اغتنم فرصة نومها الكاذب لأسألها عن أسرار فؤادها ونوع عاطفتها فتجيب إجابات تدعي أنها صادقة صريحة وأجزم في سري أنها كاذبة للاحتيال والسلب، ولكنني كنت راضياً عن دفع ثمن المسرات التي أشعر بها في مؤانستها.

وحدث في سهرة أننا كنا نحن الثلاثة في مقهى على مقربة من المحطة نشرب خمراً وألعب البلياردو مع زوجها، وكان بين الدكتور علي إبراهيم حيكمباشي مستشفى أسيوط (علي باشا إبراهيم) وبعض وكلاء النيابة والمحامين يشاهدون اللعب، فدخل الخواجا متري بشارة أحد الأعيان، وكان في انتشاء تجاوز حد احتمال العقل فاندفع بيننا يعبث بكرات البلياردو وقتاً غير قصير يتعمد منعنا من الاستمرار في اللعب.

ونبهته إلى تصرفه أنه تجاوز حدود الأدب والدعابة التي تحتمل من سكران، فحدثت بيننا مشادة كلامية انتهى تأثيرها إلى الأعصاب فظهرت المسدسات لتتكلم بدلاً من الألسن، ونهض

بعض الجالسين إلى الخواجا متري يلطفون من ثورته، ونشط إلي بعضهم يعتذر عنه بأنه سكران، وحدث في هذه اللحظة أن مترى بشارة انفلت من الذين حوله وحملق في وجهي وقال:

«أنا اعرف الوش ده... أنا عارفك تمام... عارف الوش ده من غير دقن».

وهذا صحيح فالخواجا متري بشارة كان زميلي في مدرسة أسيوط الأميرية سنة ١٨٩٢، وكنا متلازمين في أوقات الفراغ نلعب معاً لعبة اسيوطية بالكرة والمضرب تسمى «اللقم» وقد عرفته من اللحظة الأولى فليس من المستغرب أن يعرفني، ولكن السكر، واللحية ضللاه عني وقتاً قصيراً ثم تنبهت ذاكرته واستخرجت الصورة من تلافيف الماضي البعيد ثم أعجزه فقدان الوعي الكامل عن إضافة اسمي إلى الوجه الذي اهتدى إليه وعرفه.

وخشيت أن يتذكر بقية المجهول من شخصي، وعقدت العزم على الانصراف بسرعة لأتحاشى الخطر الذي يهددني بالفضيحة، فأخذت زميلاي وانصرفت لا من المقهى وحده إنما من أسيوط كلها، لأنني حاذرت من تنبّه ذاكرة متري بشارة في الصباح فيتذكر اسم صاحب الوجه الذي قرر في حالة السكر أنه يعرفه..

كان علي باشا إبراهيم زميلاً لي في المدرسة الخديوية وكان في تلك الليلة في المقهى فشاهد الحادث بدون الاشتراك في الضجة التي حدثت، ولكنني عرفت منه في سنة ١٩٣٠ أنه عرفني في تلك الليلة..

١٠

يقولون إن الجاني يحوم بدافع نفسي حول المكان الذي ارتكب فيه الجريمة ويلوح لي هذا الرأي قريب من الحقيقة، لأن رغبة قوية كانت تدفعني لزيارة النواحي التي فيها الدير، فسافرت إلى نزالي جانوب وزرت المرحوم الخواجا حنا شحاتة في قريته التمساحية وبت ليلة هناك. والتمساحية تجاور الدير، وأهديت الجميع هدايا متنوعة تناسب حال كل واحد منهم ومزاجه. فكان نصيب الضابط مهمازاً وعصا، ووكيل البريد الكتاب المقدس مجلداً تجليداً فخماً، والخواج حنا شحاتة صندوق كونياك وتاوضروس أفندي ميخائيل خاتماً مرصعاً بالبرلنت والزمرد.

كنت محتفظاً على الدوام بالغرفة ٢٣ بفندق ناسيونال في القاهرة من سبتمبر ١٩٠٨ إلى ١٨ يناير ١٩٠٩، وهي المخصصة للمكتب ولاستقبال الزائرين، وكانت الغرفة ٢٢ للمائدة، و٢٤ للنوم، وكنت معرضاً في كل لحظة لخطر اهتداء البوليس إلي مصادفة أو بخطأ من أخطائي، فصار من واجبي تحصين هذا القسم الخاص بي تحصيناً يمكنني عند الضرورة من

دفع الخطر الفجائي، وكان من عادتي الخروج من الفندق عند منتصف الليل مع هرجر صاحب الفندق للتمتع بما في الليل من مسرات ومتع.

وهرجر كان ضابطاً ألمانياً من قبل له جسم رياضي قوي وقوة ونشاط وجرأة نادرة المثال، وله ذكاء خطر على قليل من الحذر ودقة الملاحظة، درست الرجل ووزنت جميع نواحيه فعرفته وحرصت منه كل الحرص، أدركت أن عملية تحصين حجراتي يكشفها ذكاؤه إذا بدأت بها أثناء وجوده في الفندق، فعقدت العزم على إبعاده عن القاهرة أياماً أتم فيها عملي سراً.

عرفت أن الرجل من عشاق المحاسن فإذا وجدت الحسن الذي يلفت نظره وينبه رغبته أجعله وسيلة لإقصائه معه إلى أقصى الأرض، فجعلت أبحث في كل مكان عن هذا حتى اهتديت إليه... كانت الفتاة فرنسية إسرائيلية سائحة كل ثروتها حسنها، والحسن عملة صعبة ينفق منها صاحبها في كل مكان، بدون محاذرة وبدون الخوف من نقص الرصيد.

عرفتها وغمرتها بكل أنواع الإجلال وبتقديم الذبائح والقرابين بوسائل جعلتها تنسب إلى العبط أو السفه وتزيد فيها قوة الطمع والرغبة في الاستغلال الطامع على الملاينة والمطاوعة، كانت تطمع في رحلة إلى أسوان على النيل واعتذرت بكثرة أعمالي في القاهرة، وعرضت عليها تحقيق هذه الرغبة على نفقتي بشرط أن أضع إلى جانبها صديقاً لي ليتولى خدمتها أثناء الرحلة بسبب عجزي عن تأدية هذا الواجب، فقبلت الاقتراح راضية مبتهجة.

وعرضت الأمر على هرجر مع صورة الحسناء، صارحته بأننا

أخوان في السراء والضراء وقد نلت نصيبي منها، ولكن صاحبتي تطمع في رحلة إلى أسوان في النيل وسأدفع نفقات الرحلة إذا قبل مرافقتها لينال نصيبه مما نلت. وفحص هرجر محاسن «روجين»، ووزن قوة تأثير الجاذبية على نفسه ثم قبل الاقتراح شاكراً، فهيأت لهما جميع وسائل السفر، وودعتهما على ظهر الباخرة. وعدت إلى الفندق في ارتياح وهدوء لأتم عملي في غيبة ذلك الصديق الخطر.

أخطأت مرات وروجين معي في القاهرة، ذهبت معها مرة إلى الأهرام، وركبنا جملين لأنها رغبت في تجربة ركوب الإبل في الصحراء، وضايقنا الأعراب ضيقاً شديداً فنشط عسكري بوليس لدفع هؤلاء الفضوليين عنا فبذل مجهوداً ولاقى عناء. ورغبت الحسناء في عمل صورة شمسية لها وهي إلى جانب أبي الهول فصورتها هناك وتركت عنواني بفندق ناسيونال لترسل إلي الصور ورافقنا العسكري حتى ركبنا السيارة فتذكرت ما لاقاه بسببنا من التعب والعناء وأردت مكافأته فأعطيته جنيهين من الذهب «عملة ذلك الزمان» وكان هذا التصرف خطأ له نتائجه..

حضر إليَّ مدير الفندق بعد يومين ونبأني بأن ضابطاً إيطالياً من محافظة مصر حضر وطلب الإذن له بمقابلتي فلم أتردد في استقباله في الغرفة ٢٣ لأن من الحماقة التهرب من هذه المقابلة، كنت مرتبكاً أخشى نتائج هذه الزيارة أحاول تعليل سببها فلم اهتد إليه، ولكنني أعددت وسائل الدفاع عن نفسي إذا احتاج إليها الأمر. ودخل الرجل في تأدب، وذكر لي أن العسكري الذي كان في الأهرام يوم زيارتنا بلغ ضابط نقطة بوليس الهرم

أنني منحته اثنين جنيه، وبلغ الضابط مأمور القسم، وهذا بلغ سعادة الحكمدار ليستأذن منه في قبول هذه المنحة...

وسألني اليوزباشي «رنده» عن سبب منح العسكري هذا القدر من النقود، فذكرت له ما لاحظته من الجهود التي بذلها الرجل في حمايتنا من وقاحة الأعراب وحمايتنا من مضايقاتهم، والشوط الطويل الذي قطعه إلى جانبنا ونحن على ظهور الجمال، فكان من الواجب علي الشكر ومكافأة العسكري على حسن صنيعه معنا. وشكرني الضابط على اعترافي بما بذله العسكري من الجهد في تأدية الواجب، وصرح بأنه لم يكن في مقدوره قبول المكافأة بدون إذن من رئيسه، وأنه اقتنع الآن بأن السبب الذي ذكرته يبرر الإذن العسكري بقبول مكافأة.

كان تصرفي خطأ أدى إلى تحرك البوليس للسؤال عن شخصي من إدارة الفندق وسبب طلب مقابلتي وسؤالي، وكان من الجائز كشف تنكري والاهتداء إليَّ لولا غباء ذلك الإيطالي.. لقد أسفت على هذا الخطأ ولكنني لم أمنع نفسي من الوقوع في غيره بسبب استهتاري أو بسبب الرعونة.

كان معي في الفندق سائح أجنبي هادئ طيب القلب وديع في بساطة، وكنا نجتمع قبيل تناول طعام العشاء في قاعة البلياردو فنجلس للمسامرة أو للمطالعة، وعلمت من حديثه أنه يشكو من رئتيه وأن الشتاء في مصر يفيد صحته، عرفت أن اسمه ماير وأنه من السويد، ورأيته مرات إلى جانب الموقد يطالع أكثر من مرة كتباً وصلت إليه من زوجه التي تقيم بواشنطن، وكان يقبل صورة ابنته الصغيرة وولده ويلصقهما

على صدره فتبدو عليه دلائل الراحة، فأدركت أنه زوج وفيّ ووالد له حنان.

وسعل في ليلة سعالاً حاداً وبصق دماء ووهنت قواه، فطلبت من الفندق استدعاء طبيب، وحضر الرجل وأسعف المريض ونصح بنقله في الحال إلى المستشفي فتوليت هذه العملية لأنها واجب إنساني مع أجنبي غريب عن البلاد، وزرته في النهار الثاني لأطمئن على صحته، فصارحني بأن العلة ستقضي عليه حتماً وأن من الواجب عليه كتابة وصيته وهو في وعيه لحماية زوجه وأولاده من خصومهم بعد وفاته.

وعلمت منه أنه يحمل لقب بارون وأن له ثروة كبيرة ومراكب صيد ويختاً ورصيداً كبيراً في المصارف، ولكنه تعس وشقي في الحياة لأنه بتأثير الحب الطاغي تزوج مغنية فرنسية عرف السعادة والهناء إلى جانبها، وأنجبت له ولدين وقد تمّ ذلك الزواج في باريس حيث أقام مع زوجه وطرأت عليه ظروف خطيرة تستدعي اقترانه بفتاة من العائلة المالكة في السويد، وتم هذا القران هناك زواجاً دينياً لأن أحداً لا يعلم بالزواج الأول فكان الأول بدافع الحب والثاني بدافع المصلحة.

وفضحت الظروف سر الزواج الأول ووجدت الأدلة التي تثبت صحته، فصار الزواج الثاني الشرعي باطلاً في اعتبار الكنيسة فألغوه وثارت ثورة العائلة المالكة على البارون فوجهت إليه الحكومة تهمة الزواج باثنتين، وتأجلت المحاكمة بسبب مرضه، وطلبت الزوجة الثانية التعويض لها بسبب الخدعة التي صارت فريسة لها، وبسبب التضحية التي ضحتها كزوجة شرعية، ثم ظهر بطلان ذلك العقد الشرعي فخسر كثيراً جداً..

وسيحكم لها بالتعويض مع المبالغة في أرقامه نكاية فيه، فلهذه الأسباب يرى من الواجب عليه كتابة وصيته في الحال لينقذ ثروته من الضياع وليوفرها لزوجته الوفية ولولديه.

عرفت الرجل مؤدباً وديعاً له كياسة الأمراء وظرف الأدباء، ورأيت بعيني مقدار ولعه بكتب زوجته وبصورة ولديه، فاكتسب احترامي له كزوج وفيّ وكوالد له حنان. وزاد عطفي عليه بسبب مرضه الخطير وابتعاده عن مقر أسرته المحبوبة حيث يحاط بالحنان والرعاية. وتحت تأثير هذه الظروف عقدت العزم على معاونته لكتابة الوصية في الحال بوسيلة مشروعة تمنع كل اعتراض عليها في المستقبل.

وقابلت في عجلة المحامي المشهور الأستاذ فاتيكا وذكرت له الظروف التي تستدعي الإسراع محاذرة من طروء ما يفقد المريض وعيه أو قدرته على الكتابة. وأدى الأستاذ المحامي واجبه كرجل قانون فجمع في الحال الشخصيات الرسمية لتكتب الوصية أمامهم، انتدبت هذه الجماعة اثنين من كبار الأطباء للكشف على البارون المريض فشهدا كتابة بأن يملك بدنه وعقله سليمين، وشهد الجميع بأنه في نفس هذه الظروف كتب الوصية بخطه وبإرادته المطلقة بدافع من رغبته وبدون وجود أي مؤثر أجنبي في نفسه.

كتبت الوصية بخط المريض من صورتين وقع عليهما الشهود جميعاً ثم انصرفوا فسلمني إحدى الوصيتين ورجا مني أن أسلمها لزوجته يداً بيد إذا قدر له أن يموت وكتب إلى إدارة الفندق لتسلمني حاجاته التي تركها في غرفته وزرت المريض في النهار الثاني وكان في حالة ضعف، فصارحته بأن الضرورة

تقتضي أن يكتب لي كتاباً بخطه يأذن لي فيه بعمل جميع الوسائل التي تمكنني من استخلاص ثروته أو بعضها لأسلمها لها مع الوصية للتمكن من استخلاص الميراث فكتب العبارات التي أمليتها عليه ووقع الكتاب.

ولست أدري كيف أصغى لمشورتي وكتبها في غير احتراس، لأن الأيام القليلة التي عاشرته فيها لم تكن كافية لحمله على الثقة بي كرجل غريب لا يعرفه حق المعرفة، ثم عللت هذا التصرف غير الحكيم بأنه تمّ والرجل في حالة ضعف أثرت في عقله تأثيراً منعه من وزن الأمر بعناية قبل كتابة الكتاب الخطير.

ومات الرجل بعد ثلاثة أيام من زياراتي الأخيرة له، ونبأني المستشفي بموته فدفنت الجثة تحمل الاسم الذي تنكر به وساح سياحته الأخيرة، لأنني أردت أن تجهل حكومته نبأ موته حتى تصل الوصية إلى زوجته، وعدت من المقبرة بعد دفن الجثة لأبدأ مغامرة جديدة ففتحت حقائب الميت وفحصت جميع أوراقه لأستعين ببعضها عند الضرورة، فوجدت بين هذه الأوراق ما عاونني على تنفيذ الخطة الجريئة التي وضعت تصميمها.

نزلت في مينا هاوس باسم البارون شنيدر، وهو الاسم الحقيقي للمرحوم المسيو ماير، وأرسلت رسالة برقية إلى مصرف كبير في كرستيانيا آمره بدفع مبلغ إلى قومندان يختي لابالين ورد المصرف على رسالتي برسالة برقية بعنواني يقول فيها:

«كرر الطلب»

وغرض المصرف من هذه الرسالة الاطمئنان على الرسالة الأولى أنها صادرة مني، فنفذت رغبة البنك وأرسلت في الوقت نفسه رسالة برقية إلى قبطان اليخت آمره باستلام ذلك المبلغ من

المصرف ثم السفر إلى لندن بيخته وانتظار أوامري هناك، وقصد القبطان لي البنك فلم يتردد في صرف المبلغ له كأمري المكرر، وزاد في الاطمئنان أنه يسلم المال إلى شخص معروف للبنك بالذات وله معه معاملات، وانتقل اليخت إلى لندن ونبئت بوصوله، فأمرت القبطان بالكشف على الباخرة في الحوض وتقوية مواضع الضعف فيها ثم دهنها باللون الأبيض، فإذا انتهى من هذه العملية ينتقل باليخت إلى مرسيليا أكبر ثغر فرنسي في البحر الأبيض المتوسط.

لم يكن في مقدوري ركوب هذا اليخت لأن قبطانه يعرف وجه البارون معرفة تامة وكذلك الشطر الأعظم من الموظفين والملاحين، ولأنني لا أعرف كلمةً واحدة من لغة السويد، فلا بد من حيلة تمكنني من إبعاد الجميع من الباخرة واستبدالهم بغيرهم، قابلت سفير فرنسا في مصر مسيو لابونيير باسم الخواجا غالي جرجس نائباً عن البارون شنيدر، وأبلغته رغبة البارون في اختيار قبطان ليخته «لا بالين» من رجال البحرية الفرنسية ثم يترك له الحرية في استبدال جميع موظفي الباخرة وعمالها بغيرهم من الفرنسيين بسبب العزم على سياحة حول العالم.

وقبل الرجل هذا الرجاء بارتياح وكتب إلى وزير البحرية في باريس ينبئه برجائي ويفوض له اختيار القبطان الصالح لهذه الأسفار واختيار الملاحين والمهندسين وجميع الموظفين الذين يرتاح لهم القبطان الجديد.

١١

لم ييأس جندي بك إبراهيم من مقابلتي فلبث يتردد على فندق ناسيونال مرات كثيرة في كل أسبوع، يسأل عن موعد عودتي إذ غبت ويطلب الإذن له بالمقابلة إذا علم بوجودي في مصر، فخشيت هذه المطاردة لأنها ربما تبعث على الشك في أمري وخاصة من صحافي جريء، فعقدت العزم على التخلص من هذا المتنطع الخطر أردت أن استدعيه لمقابلتي في الفندق لأتفق معه على طبع مجلة في مطبعته، وأدفع له سلفاً قدراً من النقود يصرف له قبيل خروجه من مكتب مدير الفندق بإذن كتابي، فينصرف عامر الجيب قوي الأمل في استغلال عبطي، فيصادفه القدر في الطريق..

واعتمدت على زميلي خليل حداد في التمهيد لهذا الاتفاق لتحديد وقت المقابلة، ظن جندي بك أن صيده قارب الوقوع في الشرك، فقبل الشروط التي عرضت عليه وحضر صورتي العقد، وحددت له تاريخ المقابلة ووقتها. أرسلت خليل قبيل ذلك الوقت بقليل لمرافقة جندي بك إلى غرفتي بالفندق. وهنا بدأت الحماقة تهدم كل ما بنيت لتكوين شخصية الخواجا غالي جرجس.

وتوهم الأحمق أنني سأكشف حقيقة شخصيتي لذلك الصحفي كثير الطمع، واعتقد أن اتفاقه معي سينيله شيئاً من المال، ورغبة في الانتفاع ترغمه على السكوت وعدم فضح حافظ نجيب المتنكر في شخصية غالي جرجس.. وارتقى خيال الأحمق إلى أكثر من هذا الحد، فبنى على هذه المقدمة الخاطئة نتيجتها الخاطئة، ظن أن ظنونه هي الحقيقة التي لابد من وقوعها، سيعرف غالي جرجس جندي إبراهيم حقيقة شخصيته عند المقابلة، فما الضرر من كشف هذه الحقيقة له قبل ذهابه لمقابلة حافظ نجيب؟..

لم يكن خليل حداد صديقاً خائناً ولكنه كان يقدر نفسه فوق قدرها فيمتلئ بالغرور والزهو ولكن الغرور في هذه المرة دفعه إلى تصرف خاطئ خطير. تأبط ذراع جندي إبراهيم واستقر به في خلوة وجلسا يشربان منبهات للشهية، ومدار الحديث في ذلك المجلس راهب الدير المحرق الأنبافيلوثاؤس ثم شخصيته الجديدة: غالي جرجس..

لعبت الخمر برأس خليل لأنه قليل الاحتمال. وكان يعتقد أن صاحبه الصحافي يكاد يكون أمياً لأن تعليمه لم يتعد معرفة القراءة والكتابة ولكنه مغرور وجريء يعتمد على جريدته كسلاح للاستغلال، فهاجمه خليل لينال من غروره قال:

«لقد نشرت رثاء راهب الدير في جريدتك، فهل تعتقد أن بين الرهبان الأقباط شعراء؟»

وقال: «وقد سمعت عن نصيب الراهب فيلوثاؤس من المعرفة والثقافة، وعن مقدرته في الوعظ والخطابة، فهل تصدق أن بين الرهبان من له هذا النصيب من التعليم والاطلاع؟».

وأدرك جندي إبراهيم أن وراء تلك الأسماء أسرار، وأن الخمر أدارت رأس رفيقه وأطلقت لسانه، ورأى من مصلحته كصحافي ينتهز الفرص أن يدفع السكران دفعاً للاعتراف فتحرش به وقال:

«عندنا الدليل الواضح على وجود رهبان متعلمين في الأديرة، ألم يكن الراهب فيلوثاؤس واحداً منهم؟».

فضحك خليل مقهقهاً وقال:

«اذكر اسم واحد غير هذا الذي تفخرون به!».

فقال جندي بك: «عندنا كثيرون من نوعه ووزنه، ولكن حياة الترهب تمنع الرهبان من الدلالة على معرفتهم بالإعلان عن النفس».

وقال محتداً: «أؤكد لك أنك واهم فلم يترهب متعلم مثقف ثقافة عالية سوى الراهب فيلوثاؤس ومع هذا فليس الشاب مسيحياً ولا قبطياً ولا راهباً... وهذا الذي فخرتم به أيها الغبي هو حافظ نجيب صديقكم القديم... وستراه الليلة بعينك»...

فوجئ جندي بك مفاجأة مزعجة بهذا النبأ، وأدرك في الحال أن دعوته لتناول العشاء مع الخواجا غالي جرجس «حافظ نجيب» تخفي وراءها خطراً مجهولاً، لم يخف الرجل اضطرابه، ولم يتحكم في أعصابه لأنه أسرع إلى التليفون وبلغ المحافظة بصوت مرتفع بأن الخواجا غالي جرجس المقيم في فندق ناسيونال هو طريد البوليس والعدالة حافظ نجيب.

أدرك خليل حداد أنه اخطأ، وقللت الصدمة من تأثير الخمر في رأسه فخاف عليَّ أن يدهمني البوليس مفاجأة وأنا في غفلة لا تمكنني من الدفاع عن نفسي أو الإفلات قبل وقوعي في

الشرك، فركب عربة وجاء لمقابلتي ولإنذاري...

وفي ١٨ يناير ١٩٠٩ قابلت سفير فرنسا في غرفة استقبال خاصة في السفارة، فنبأني بأن وزير البحرية المسيو دلكاسيه وفّق لاختيار القبطان، فأرسلت رسالة برقية إلى قبطان اليخت آمره بمقابلة وزير بحرية فرنسا وتنفيذ كل ما يأمره به. وكتب السفير للوزير يشرح له تصرفات القبطان الجديد.

يستدعي الوزير قبطان يختي ويأمره بتسليم الخزانة واليخت للقبطان الفرنسي، ويأخذ من المودع عنده مرتب سنة مكافأة له ويعود إلى السويد ليتولى قيادة مراكب صيد السمك والحيتان بزيادة في المرتب ويصرف من ذلك المال مرتب ثلاثة شهور لجميع موظفي اليخت وعماله مكافأة لهم، ثم يتولى توزيعهم على مراكب الصيد مع زيادة المرتبات، ولم يتردد القبطان في تسليم اليخت وخزانة المال لأن الذي يتولى عملية الاستلام وزير بحرية دولة كبيرة لا رجل من الطريق. وزاد في اطمئنانه وارتياحه لما كوفئ به من المال هو ورجال اليخت ثم زيادة المرتبات في مراكب الصيد.

تمت هذه الإجراءات بسهولة بوسائل تلوح لكل عقل سليم أنها مشروعة فشكرت السفير على هذه المعاونة وانصرفت لمقابلة زائر آخر حددت لمقابلته الساعة الرابعة بعد الظهر في فندق ناسيونال. وتمت هذه المقابلة في غرفة استقبال خاصة في الطابق الأرضي، وبينما نحن في هذه الخلوة فتح الباب بدون استئذان ودخل خليل حداد في عجلة واضطراب واضحين، وفوجئ ذلك الزائر معي فارتبك لحظة ثم سألني:

«هل يعرف صاحبك اللغة العربية؟».

فقلت: «لا.. تكلم».

قال: «لقد عرف جندي إبراهيم كل السر، وبلغ النبأ للمحافظة بالتلفون».

قلت: «اصعد إلى الغرفة رقم ٢٣ وانتظر بها».

فأطاع بدون تردد وانصرف، ولكن الزائر لاحظ في صمت على تصرفات خليل أنه خالف الأدب بسبب دخوله بدون استئذان، ولاحظ أنه كان في حالة تدل على الاضطراب، فصار لزاماً علي الاعتذار عن سوء تصرف الرجل وتعليل سبب اضطرابه تعليلاً يجعله نتيجة حتمية لحالة نفسية طارئة، ويجب أن أختلق سبباً يحدوني لترك الزائر في الحال قبل وصول رجال البوليس إلى الفندق للقبض عليَّ. فقلت:

«لقد كان الرجل الذي جاء لمقابلتي في اضطراب شديد أنساه الاستئذان قبل الدخول. لقد جاء يحمل نبأ وفاة عمي بالسكتة القلبية، وهذا النبأ المزعج يرغمني على الاستئذان لتركك الآن لكي أسرع لتأدية الواجب ولترحيل الجثة».

فبادر الرجل لتعزيتي، وتركته حيث كان ليتمم شرب الشاي وانصرفت ورددت الباب، وقد رأيت من النافذة، وأنا واقف أسمع عبارة التعزية، رجال البوليس من الفرسان ينتشرون في الشارع الذي يفصل الفندق من الناحية القبلية عن نادي سيروس (شارع كذا).

خلوت بنفسي في الردهة وفكرت في الوسيلة التي تمكنني من الوصول إلى الغرفة ٢٣ في الطابق الثالث بدون تعريض نفسي لأنظار المطاردين قلت لنفسي: سيحصر رجال البوليس الفندق من الخارج ليمنعوا الذين فيه من الخروج، ويحتلون

المصعد والسلم ثم يبدأون التفتيش علي، ولكنهم لن يفكروا في احتلال السلم الخاص بالخدم، فهو إذن آمن وسيلة للصعود إلى غرفتي.

دخلت غرفة التدخين انتقلت منها إلى غرفة المائدة واجتزتها إلى غرفة تليها كانت معدة لتحضير أدوات المائدة فاستولت الدهشة على الذين بها من الخدم، ولكنني عبرت مسرعاً إلى الردهة فإلى السلم وصعدت إلى القسم الخاص بي في الطابق الثاني، كانت الغرفة ٣٣ خاصة لمائدتي، و٢٣ للمكتب وللاستقبال ٢٤ للنوم. والغرفة ٢٢ في نهاية الضلع الواصل من الناحية البحرية إلى الناحية القبلية، وتبدأ الغرفة ٢٣ الضلع الواصل من الغرب إلى الشرق، وبسبب وجودها إلى الزاوية صارت مساحتها مساحة غرفتين، ولها ثلاث أبواب، الأول على الممشى والثاني يؤدي من الداخل إلى الغرفة ٢٢، والثالث يوصل من الداخل إلى الغرفة ٢٤، ولهذه باب آخر على الممشى.

ذكرت من قبل أنني رحّلت هرجر صاحب الفندق إلى أسوان على ظهر باخرة واغتنمت فرصة غيابه الطويل وحصنت الغرف الثلاث الخاصة بي فصارت معقلاً صالحاً للدفاع ولاستقبال من يهاجمني للقبض علي.

الغرفة ٢٣ طولها ٨ أمتار وعرضها ٤ متر، ولها في الناحية الغربية نافذة تطل على شارع خاص بين عمارتي رويال هاوس وفندق ناسيونال وهذا الشارع موصد من الناحية البحرية ببناء كان ملكاً للمرحوم عفيفي بك البربري، وله من الناحية القبلية سور مرتفع من الحديد وقد ترك أصحاب العقارات هذا الفضاء لإضاءة مبانيهم بالنهار وللتهوية. ولهذه الغرفة نافذتان أيضاً

تطلان من الناحية القبلية على الشارع «كذا» الذي كان به نادي سيروس.

وجميع نوافذ الفندق ترفع وتهبط بجهاز كهربائي خاص وكان مكتبي في الزاوية الغربية القبلية وفي وسط الغرفة منضدة كبيرة عليها أواني الزهور والكتب والمجلات التي أطالعها وإلى جانبها أربعة مقاعد لا أكثر وقد وضعت المنضدة بحيث يمتد طولها من الناحية الغربية إلى الشرقية متجهة مع طول الغرفة. فلما وصلت إلى قلعتي المحصنة بغرفة ٢٣ لعبت لعبة صغيرة في الباب ثم تركته يرتد وحده، وعاونني خليل حداد فوضعنا المنضدة بعرض الغرفة ورأسها لاصق بحائط الغرفة ٢٢، وأسدل الستار السميك، القطيفة على الباب الذي يوصل إلى الغرفة ٢٢ واختفي وراءه خليل ليؤدي عمله عند الضرورة.

١٢

دق باب الغرفة ٢٣ ثم فتح ودخل منه حكمدار البوليس والمسيو كارتييه رئيس البوليس السري، وجبران بك مسكات مأمور الضبط، ومحمود أفندي محمد مأمور قسم عابدين وهرجر صاحب الفندق.. وظن الجميع أنهم فاجأوني، ووضع المنضدة في ذلك الوضع قطع الطريق إلى المكتب إلا من الناحية القبلية وتقدم الجماعة خطوات والحكمدار يهز رأسه للتهديد أو للشماتة أو كان يعبر بهذه الهزات البطيئة عن معنى كلمة: «وقعت يا شاطر»، توهم الجميع أن الفأر صار داخل المصيدة ولا سبيل لإفلاته من الشرك، ففوجئوا بصوت انفجار شديد فوق رؤوسهم بعثهم على الرعب لحظة، وكانت هي اللحظة التي أردت استغلالها لمضاعفة تأثير الرعب في نفوسهم.

سمعوا صوتاً عالياً يأمرهم برفع أيديهم في الهواء.

«Vos bras en l'air»

فرفعوا أيديهم لأنهم يعرفون يقيناً أن مخالفة هذا الأمر يتبعها

إطلاق النار، ووجهوا أنظارهم لناحيتي فوجدوني منتصباً إلى جانب المكتب وفي يدي قنبلة مصوبة لناحيتهم، وقلت:

«حتى لو أطلقتم عليَّ النار سنموت جميعاً».

ووزنت العقول المضطربة عبارتي وأدركت أنها الحقيقة، لأن سقوط القنبلة على الأرض يحدث الانفجار والإصابات والموت، فاقتنع الجميع بوجوب عدم المهاجمة وعدم المقاومة لتفادي خطر الموت.. وخرج خليل حداد من وراء الستر وجعل يفتشهم واحداً بعد الآخر ويحمل إلي مسدساً بعد مسدس ويضعها على سطح المكتب، فلما اطمأن لخلو الجميع من السلاح قلت له:

«من عادة هرجر حمل مسدسين في سهراتنا الليلية، واحد منهما يضعه في جيبه كعادة الناس، ويخفي الثاني عند بطن ساقه اليسرى.. ففتش الساقين محاذرة من هذا الشجاع الحريص»..

ونفذ خليل الأمر ولكنه لم يجد المسدس الثاني.. فأمرت الجميع بالوقوف صفاً واحداً بجانب الحائط فأطاعوا، واستند هرجر عليه ويداه خلف ظهره وهو ينظر إلي نظرات فيها دلالات الدهشة والغضب والرغبة في الافتراس، فلم أعبأ به والحقيقة أنني لم أحول نظري عنه لأنه الرجل المفرد الذي كنت أخشاه بين هذه الجماعة بسبب قوته ونشاطه وخفة حركته وجرأته. قلت:

«لقد اقتحمتم غرفتي.. فماذا تريدون؟».

وهمّ مأمور عابدين بالكلام فمنعه جبران بلك محاذرة من فلتات اللسان وتولى هو المحادثة معي قائلاً:

«لقد عرفنا أنك حافظ نجيب الصادرة ضده أحكام غيابية لا

الخواجا غالي جرجس كما تدعي، وقد جئنا للقبض عليك».

قلت: «وأنا أعترف بأنني حافظ نجيب وها أنا ذا أمامكم فتقدموا للقبض علي.. أدوا الواجب المطلوب منكم إذا استطعتم».

قال: «أنت مسلح بقنبلة قد تحميك دقائق منا ولكنها لن تحميك من بقية القوة التي معنا. الفندق محصور وجميع منافذ النجاة موصدة في وجهك».

قلت: «وكيف تستنجد بتلك القوة لتحميكم من سلاحي ولتمكنكم من القبض علي؟».

قال: «إذا طال عليهم غيابنا يجيئون»..

قلت: «لقد تركتم باب الغرفة مفتوحاً كما كان، وأنا أسمح لك بالخروج للاتصال بالقوة التي تهددني بها... اخرج ولا خوف عليك».

واتجه الرجل إلى الباب يريد النجاة من الخطر المفاجئ الذي لم يفكر فيه، فوصل إليه وحاول فتحه فوجده موصداً بالمفتاح، فقال في ارتياب:

«لقد تركنا الباب مفتوحاً وها هو الآن موصد، وهذا دليل على أن لحافظ نجيب شركاء أغلقوا الباب من الخارج!»..

قلت: «أمامك النوافذ فافتح واحدة منها واتصل برجالك»...

فقال هرجر: «إنه لا يعرف كيف يرفع النوافذ»...

قلت: «اذهب أنت وافعل ما شئت».

فاتجه هرجر لناحية النافذة بدون اكتراث، ثم حاول فتحها بالوسيلة التي يعرفها فوجد الجهاز الكهربائي لا يؤدي عمله

وبقيت النافذة موصدة، فعض على شفته من الغيظ وعاد إلى مكانه الأول بجانب الحائط وقال:

«لقد أتلف الجهاز الذي يرفع غطاء النافذة»..

قلت: «وأزيدك علماً يا سيدي بأنكم الآن فوق ألغام تكفي لنسف الفندق، لم يكن من العقل مهاجمتي في معقلي حيث أقمت شهورا لأنني أعددت فيه وسائل الدفاع عن نفسي ضد كل قوة تقتحم علي هذا العرين.. اسألوا هرجر ينبئكم بأنني سكنت في زوايا هذا الطابق الأربع، وقد أعددت في كل مكان حللت فيه لغماً يتصل بهذه الغرفة.. انظروا إلى هذا الزر المثبت في الحائط.. إن ضغطة واحدة عليه تطلق الألغام وتنسف البناء جميعه.. تقولون إن لكم في الشارع جنوداً حول الفندق، ولكم حراس في الداخل. وأقول لكم إن في الفندق خدماً نصفهم الآن في الخدمة، والنصف الآخر في غرف النوم استعداداً لاستلام عملهم في الليل.. وأقول إن في الفندق ثمانين سائحاً وسائحة الشطر الأعظم منهم الآن في الفندق يتناولون الشاي».

«فإذا نسفت الفندق يموت هذا العدد الكبير من الخلق وتموتون معهم وأنا معكم، فيكون ثمن حياتي عشرات من الرجال والسيدات لأرسلكم جميعاً إلى العالم الثاني.. لو كانت لكم حكمة في تصرفاتكم كنتم تتربصون لي بعيداً عن هذه القلعة الصغيرة، أما اقتحامها علي فإنه خطأ بعث عليه الغرور والاستخفاف، وستدفعون الآن ثمن هذا الخطأ».

«سأموت معكم. ولكنني لا آسف على الحياة التي تبددونها مني بما تكرر من أخطائكم وأخطاء غيركم، فهل فيكم رجل

يستطيع أن يستخف بحياته ويضحيها في سبيل الانتقام كما سأفعل الآن؟».

بنى جبران بك مسكات عمارات في شارع وجه البركة ! كانت تؤجر غرفاً مفردة للأرتيست بأجور مرتفعة فصار دخلها رقماً كبيراً، وقارب الرجل سن الإحالة على المعاش فلم يبق بينه وبين الراحة سوى شهور قليلة، وحياة الغنى الممتع أقل عنده من الفقير البائس الساخط على الخط والبيئة والناس، فشق على حضرة مأمور الضبط أن تضيع حياته هباء بيد مغامر جريء أو مجنون.

فذكر أن له زوجة وأولاداً ومالاً موفوراً ودخلاً محترماً ومرتباً كبيراً يحل له بعد إحالته على المعاش، وستضيع جميع هذه النعم بضغط المغامر المجنون على زر قريب من إصبعهم. تحول الرجل تحت تأثير الموقف الحرج الذي زجّ فيه إلى والد ورب أسرة ضنين بحياته، ونسي أنه مأمور الضبط الذي جاء مع رئيسه وجماعة من رجال البوليس لإلقاء القبض على الشقي الخطير الذي تطارده العدالة.

ظن أن المسألة تتم بسهولة بمجرد حصر حافظ في غرفته فانقلبت إلى معركة خاطفة جعلت قوة الهجوم تقع في الشرك المهيأ لها من زمن بعيد، وقد يدفع اليأس والحماقة ذلك الشيطان إلى تصرفات أكثر جراأة وخطورة، فلابد إذن من اللجوء إلى الملاينة والحكمة بدلاً من التهديد بالقوة رجلاً يثور بالعنف والقوة ضد القوة. فقال:

«ليس من المعقول يا حافظ تضحية العاقل المتزن بحياته بتأثير الغضب مادام المقدور إنقاذ هذه الحياة».

قلت: «ليس للحياة قيمة في اعتباري».

قال: «جميع الأحكام التي صدرت ضدك غيابية تسقط بمجرد القبض عليك ثم تعاد إجراءات المحاكمة من جديد. وفي مقدورك الدفاع عن نفسك والحصول على البراءة فتربح حياتك وحريتك».

قلت: «في مقدوركم إصدار أحكام ضدي، ولكن ليس في مقدور أية قوة تنفيذ هذه الأحكام، فلماذا إذن أزعج نفسي بإجراءات المحاكمة وباستجداء البراءة والحرية؟».

قال: «في مقدورك أن تقاوم وقتاً ما. وأن تفلت ممن يريدون القبض عليك مرات، ولكن قوة المفرد أضعف من قوة الجماعة، إذن سيجيء اليوم الذي تعجز فيه عن المقاومة وعن الإفلات من الذين يطاردونك في جد ونشاط».

قلت: «لن تصل إليّ القوة وأنا حي.. ولكنني سأتقاضى ثمن حياتي غالياً وأقرب الأمثلة التي تقنع العقل الوضع الذي نحن فيه الآن نحن محصورون في هذه الغرفة، أنتم تريدون القبض علي وأنا سأدافع عن نفسي وعن حريتي أمام هذه القوة.. وستكون النتيجة عجز الجميع عن النجاة من النتائج المحتومة التي ينتهي إليها هذا الوضع».

قال: «هذا دليل على اليأس واليأس اعتراف بالضعف والعجز. وقد ألقي القبض عليك مرات ولكنك تمكنت من الهروب بوسائل تدعو إلى العجب والدهشة، فلماذا تيأس من إمكان الهروب إذا قبض عليك هذه المرة!».

قلت: «لست عاجزاً عن تكرار الهروب مرات أخرى من أي سجن ومن أي حراسة، ولكنني سئمت الحياة فليس فيها ما

ترتاح له النفس، فلن أمكنكم من القبض علي الآن للتخلص من هذه الحياة التي تبعث على الملل والسآمة».

«وأنا أتمنى في هذه اللحظة أن تبدر من أحدكم كلمة نابية أو حركة مريبة تبعثني على الغضب أو على الدفاع عن نفسي فتختم المأساة، ستلقى القنبلة على الأرض فيحدث انفجارها انفجار الألغام فينسف الفندق وننتقل جميعاً إلى العالم الجديد المجهول»..

قال: «لم تكن طول حياتك رجلاً يسفك الدماء، بل كانت حوادثك شبه مداعبات تبعث على الإعجاب وتفكه الناس، وليس في تصرفاتنا اليوم معك ما يعتبر اعتداء عليك أنت رجل محكوم عليك يطاردك البوليس، وقد أخطأت في تصرفاتك فمكنت رجال العدالة من معرفة شخصيتك والمكان الذي تختبئ فيه، فجاء هؤلاء الرجال لتأدية واجبهم المفروض عليهم، لقد أخطأت والخاطئ يتحتم عليه دفع ثمن خطئه، فالحكمة تقتضي أن تذعن لمقتضى الظروف التي وضعت نفسك فيها بدلاً من المقاومة التي تؤدي إلى مأساة وخاتمة دموية».

فقلت: «في قولك تعقل وحكمة، وقد نشطت رغبتي لاستبقاء الحياة، ولطلب حريتي من جديد بالهروب من المطاردين فأضيف إلى المداعبات الماضية مداعبة جديدة تكون حديث الناس وتسليتهم على حسابنا وقتاً ما».

قال: «لقد زال عنك تأثير الغضب واليأس وعدت إلى الصواب، والعودة إلى حكم العقل قد وفرت لك حياتك وربما تيسر لك الحرية المنشودة أيضاً، فيحسن أن تخضع لمقتضى الظروف وتسلم نفسك لرجال العدالة».

حولت نظري لأحد الحاضرين وتظاهرت بأنها النظرة الأولى إليه، وقلت له:

«هل من الأدب أن تبقي قبعتك على رأسك وأنت في غرفتي؟».

كانت أمامي مسدسات الجماعة الموضوعة على مكتبي ولكنني لم أحاول لمسها وأخرجت من جيبي مسدساً سددته إلى رأس حامل القبعة وقلت له بصوت الأمر:

«ارفع هذه القبعة عن رأسك أو أطلق عليك النار».

ولم يتردد الرجل في الإطاعة ووضع القبعة على المنضدة التي كانت إلى جانبه في صمت وفي حنق مكبوت، فقلت لمأمور الضبط:

«يلوح لي أنك أعقل هؤلاء الناس فقد أقنعني بوجوب تسليم نفسي وسأفعل، إنما يجب رفع اللغم الموجود في أرض هذه الغرفة قبل التسليم محاذرة من انفجار بخطأ مخطئ».

قال: «سيتولى هذه العملية رجل أخصائي طبعاً».

قلت: «بل يتحتم رفع اللغم في الحال بمعرفتي أنا فليست لي ثقة بأي إنسان. فاذهبوا جميعاً إلى نهاية الغرفة لترفعوا البساط وتكشفوا الأرض»..

كانت الأرض في الغرفة ٢٣ يغطيها بساط من النوع السميك، وحوافه مثبتة بجانب الجدران بمسامير طويلة من النحاس يتكون كل مسمار من جزأين ذكر وأنثى. أما الأنثى فثابتة في خشب الأرضية. ويدخل الذكر في كبسولة في البساط نفسه ويمر منها إلى فجوة الأنثى فيحشر فيها إلى عمق ٧ أو ٨

سنتيمتراً ضاغطاً على طرفي البساط فيلتصق بالأرض. قلت لهرجر:

«علم الجماعة كيف ينزعون المسامير»..

فانحنى الرجل لينزع المسمار الأول أمامهم، وفي هذه اللحظة نفسها سمعوا صوتاً غريباً في الزاوية التي كنت فيها.. ضغط على الزر الذي أوهمتهم بأنه يحدث انفجار اللغم، فانفتح باب من الصاج كان مختفياً وراء الورق الملصق على الحائط الغربي، وحركة الباب عند فتحه مزقت الورق على شكل زاوية قائمة بمقدار عرض الباب وطوله.. سمع القوم صوت تمزيق الورق فرأوا الباب السري مفتوحاً واندفاعي وراء خليل حداد في تلك الفجوة، ورد الباب من الداخل بمزلاجين من الحديد السميك، فتمت هذه العملية بسرعة.

ورأى هرجر هذا الحادث الفجائي فوثب في خفة النمر لناحية الباب ليحاول فتحه فاستعصى عليه، فتناول مسدساً من سطح المكتب وجعل يطلق الرصاص على الحائط الصناعي الذي فصل في غيبته جزءاً قليلاً من مساحة الغرفة عن الشطر الباقي منها.. ركبت هذا الحائط المصنوع من الصاج وغطيت الحيطان جميعها بورق جديد لأخفي هذا الحائط، وتركت الستر مسدولاً على المكان الذي يجب أن تكون فيه النافذة، ولم يلحظ أحد هذا التصرف لأنني لا أسمح لأحد من خدم الفندق بدخول القسم الخاص بي وتركت الخدمة فيها لخادم خاص من أتباعي.

ولكنني لم أجرب من قبل مقدار احتمال هذا الصاج للرصاص الذي يطلق عليه، فلما دخلت هذا القسم الضيق

المعزول عن الغرفة ورقدت على الأرض ومعي صديقي خليل محاذرة من الرصاص أن ينفذ من الحائط ويصيبنا، فقاوم الصاج الرصاص الذي ينهال من المسدسات فاطمأننت وبدأت عملية الهروب من الفندق جميعه.. فتحت النافذة المطلة على الشارع الخاص الذي يفصل بين بناء الفندق والرويال هاوس، وتناولت من تحت النافذة سلكاً رفيعاً كان مثبتاً في مسمار وجذبت السلك حتى انتهى فجرَّ إلي سلكاً آخر أقوى منه.

وجر السلك الثاني ثالثاً متيناً سميكاً «Cable» فثبتُّ طرفه في المكان الذي أعددته له في قلعتي الصغيرة بعد أن وضعت عليه بكرتين كبيرتين من الحديد، في نهاية كل بكرة من الاثنين «في مركزها» سلسلتان تمسكان مقعداً ليناً من الجلد المتين، وعلى هذا المقعد تمكنت من الانحدار بسرعة إلى المسكن المقابل لغرفتي في بناء الرويال هاوس، وقد وجد هذا الانحدار لأن طبقات فندق الناسيونال ترتفع عما يقابلها في البناء الآخر نحو متر.

تحركت البكرة يحملها بسرعة فوق الحبل «السلك» بسبب الانحدار، وكانت نافذة ذلك المسكن مفتوحة ليلاً ونهاراً للوصول منها إلى الرويال هاوس، ثم نزعت الحبل من المكان المثبت فيه لأمنع غيري من الانتفاع به ونزلت مع خليل إلى باب البناء، وكانت هناك سيارة تنتظر على الدوام وصول الهاربين إليها.

كان رجال البوليس الخيالة منتشرين في هذا الشارع بين نادي سيروس وفندق الناسيونال يراقبون بانتباه نوافذ الفندق محاذرة من خروج الشقي منها، وليست لهم أية علاقة بالذين يخرجون من الرويال هاوس فأفسحوا الطريق للسيارة، اندفعت بينهم

ووصلت إلى شارع سليمان باشا، فاتجهت إلى حيث أريد.. كتبت في مخبئي الأخير كتاباً إلى محافظ مصر قلت فيه:

«حضرة صاحب السعادة

انتقلت قوة من البوليس إلى فندق ناسيونال للقبض عليّ لأنهم عرفوا أنني أقيم هناك في الحجرات ٢٢ - ٢٣ - ٢٤، وقد دهموني في الغرفة ٢٣، ولكنني تمكنت من حجزهم فيها والهروب منهم بوسائل ستعرفها من محضر التحقيق. والجماعة محبوسون الآن في تلك الغرفة ويتوهمون أن القنبلة التي تركتها على المكتب قنبلة زمنية ستنفجر بعد زمن معين ولكنها قنبلة فارغة بها آلة متحركة لقياس الزمن فلا خطر منها على الإطلاق. والأبواب الثلاثة والنوافذ موصدة فليس في مقدورهم الاتصال بالخارج وقد أفلت منهم فلا ضرورة لبقائهم هناك. وها أنا ذا أرسل إليك في جوف هذا الغلاف مفتاح الغرفة ٢٣ لتفتحها لهم وأرجو أن تأمر بالاحتفاظ بمسدسي الذي نسيته فوق المكتب لأنه من نوع نادر وهدية من عزيز من الواجب عدم التفريط فيها، ويسرني أن أجده حين أحتاج إليه».

كما أرجو التكرم بقبول احترامي المخلص.

١٨ يناير ١٩٠٩

حافظ نجيب

غلّفت الكتاب وعنونته وانتقلت بالسيارة إلى منزل المحافظ وسلمت الكتاب إلى باشاويش كان جالساً على الباب فأوصله إليه، ولم أنتظر الإجابة على كتابي طبعاً انصرفت.. وصل الخطاب والمفتاح إلى المحافظ فظن أنني أمزح معه، فسأل المحافظة بالتليفون فعلم أن الحكمدار وقوة من الضباط والجنود يحاصرون

فندق ناسيونال للقبض على شقي هناك.

وسأل إدارة الفندق عن الحكمدار فقيل له إنه في الغرفة ٢٣ مع بعض رجاله وصاحب الفندق، فوثق بما في كتابي أنه جد لا مداعبة فركب إلى الفندق ووصل إلى الغرفة ٢٣ وفتح بابها بالمفتاح ودخل.. ورأت الجماعة المحافظ يدخل الغرفة فصاحوا به يطلبون منه الابتعاد خوفاً عليه من القنبلة الزمنية التي ستنفجر، ولكنه لم يصغ للنصيحة لأنه على يقين من أنني لم أخدعه، وصل إلى المكتب وتناول القنبلة وهزها في يده ثم ألقاها على الأرض فتدحرجت حتى استقرت. ثم جلس على كرسي المكتب في دهشة لأنه رأى القوم راقدين على الأرض حول المكتب!

وقال أحدهم يفسر له السبب بأن القنبلة حين تنفجر تطير شظاياها بقوة دفع البارود فتحدث بين مكان الانفجار وموضع سقوط المقذوفات زاوية تسمى الزاوية المتينة، والبقاء في هذه الزاوية يحمي من الإصابة.

زال الخوف من خطر القنبلة فبدأ رجال البوليس كتابة المحضر، وتحديد التهم التي توجه إلي بسبب تصرفاتي في هذا الحادث هددتهم بالقنبلة فثبت أنها خالية من البارود والمقذوفات فالتهديد لا يكون جريمة، ولكنهم وجدوا مسدسي على المكتب محشواً بالرصاص، وقد هددت به أحدهم تهديداً مصحوباً بطلب فعملي إذن جريمة وصفها أنها جناية، فوضعوا الرصاصات الست في حرز وختموه بالشمع، وهكذا فعلوا بالمسدس. وثبت من الفحص أن الانفجار الذي حدث فوق رؤوسهم مباغتة نشأ من وصول هواء مضغوط إلى كيس من المطاط السميك كان مخبأ تحت غطاء النجفة المدلاة وسط الغرفة ؛ ووجدوا الآلة التي

كان بها الهواء المضغوط وراء ستر باب الغرفة. وزال العجب من إيصاد باب الغرفة ٢٣ بالمفتاح بعد دخولهم منه، تركوه وراءهم مردوداً ثم وجودوه موصداً.

فكشفت المعاينة السر في هذه العملية التي لاحت لهم شاذة عجيبة ثم ظهرت بسيطة سهلة، استبدلت قفل الباب بآخر من نوع قفل أي باب من أبواب السجون.. في ذلك القفل من مظاهره زر سميك ناتئ، فإذا ارتد الباب بقوة أي دفع يضغط صدغ الباب على هذا الزر فيحرك اللسان فيدخل في الفجوة الموجودة في المكان المخصص له في حلق الباب. ولم يتحرك اللسان قبل دخولهم من الباب لأنني وضعت بينه وبين الفجوة المخصصة لدخوله قطعة معدنية رقيقة حجزت اللسان من الولوج في الثقب المفتوح، فلما فتحوا الباب سقطت القطعة المعدنية الملونة باللون الأحمر على البساط الملون بهذا اللون فلم يسمع لها صوت.ولم ينتبه لها أحد لأن رؤوسهم خالية لا تفكر في هذا النوع من الاحتياط والحيلة.

وعرضت هذه القضية في سنة ١٩١٣ على محكمة الجنايات دائرة كانت برئاسة المرحوم محمد توفيق رفعت باشا وبحضوري وكان ممثل النيابة المرحوم محمد زكي الإبراشي أفندي حينذاك (الباشا بعد ذلك) وبشهادة الشهود ثبت أنني هددت بالمسدس المحشو بالرصاص واحداً من رجال البوليس، والتهديد كان مصحوباً بطلب.. فهو جناية تمت أركانها جميعاً.. فتحتم الإدانة والعقاب.

وكان المحامي الذي تطوع للدفاع عني حينذاك في هذه القضية وغيرها المرحوم محمود بك أبو النصر، فبنى دفاعه على

تصرفي أنه كان للإيهام بإطلاق النار مع عدم وجود النية على التنفيذ في حالة عصيان أمري ورأيت المحكمة غير مقتنعة بهذا الدفاع لأن القانون يعاقب على التهديد نفسه لا على النية المستوردة المجهولة من الذي وقع عليه التهديد، فالتمست من المحكمة الإذن لي بالدفاع عن نفسي فأذنت لي بشرط عدم تكرار ما ذكر في دفاع المحامي.

قلت إن جسم الجريمة هو المسدس والرصاصات التي كانت فيه، ومن حقي أن أرى المسدس لأعترف بأنه هو الذي كان معي أو استبدل بغيره، ففتشوني قبل تسليم المسدس، ففحصته ثم رددته للمحكمة واعترفت بأنه مسدسي. وطلبت فحص الرصاصات فسلمت لي ففحصتها فحصاً دقيقاً ثم رددتها وقلت:

«المسدس والرصاصات هي التي كانت معي وهددت بها رجل البوليس ولكن دفاعي عن نفسي سيكون بعيداً عن الجريمة وارتكابها، لأنني أعتمد في الدفاع على أساس يهدم الجريمة وجميع أركانها. إنني رجل عمل.. ضعوا الرصاص في المسدس وأطلقوه علي.. فتهدم الجريمة».

وظن رئيس المحكمة أنني قد فقدت صوابي، فقال:

«هذا مستحيل لأن إطلاق الرصاص عليك يسبب القتل فتنهدم الجريمة بسبب موتك!!».

فقلت: «لا إن إطلاق النار من هذا المسدس بهذه الرصاصات لا يسبب الموت فهذه الرصاصات جميعها خالية من البارود الذي يحدث عند النهاية فعل المقذوف، فإذا ثبت بالتجربة أن الرصاص لا ينطلق من المسدس تكون جريمة فتكه بالغير مستحيلة

فينهدم الاتهام الموجه إلي من أساسه ويصدر الحكم بالبراءة لاستحالة الجريمة».

كان الدفاع غريباً بعيداً عن عقول الحاضرين وتفكيرهم وأمرت المحكمة بإخراج الرصاص من ظروفه النحاسية فثبت لها أنها خالية من البارود إطلاقاً، واقتنعت المحكمة باستحالة الجريمة وصدر الحكم بالبراءة.

١٣

تركت فندق ناسيونال هارباً قبل المغرب يوم ١٨ يناير ١٩٠٩ أرغمت على هذا الهروب إرغاماً لإنقاذ نفسي من طالبي القبض علي فلا يسلم أي عقل سليم بأن الذي هرب في مثل تلك الظروف يكون في مقدوره العودة إلى ذلك الفندق لأي سبب وقد خسرت بهذا الهرب جميع حاجاتي التي كانت في حجرتي نومي ومكتبي وخسرت شخصية الخواجا غالي جرجس بعد إنفاقي لتكوينها جهوداً ومالاً كثيراً وخسرت مع غالي جرجس شخصية راهب الدير المحرق الأنبا فيلوثاؤس وعرف الجميع أنه حافظ نجيب.

ولكن إدارة الفندق لم تعتبر هروبي إعلاناً لها بقطع علاقتي بالفندق فادعت أنها لم تخل الغرف الثلاث فظلت على حسابي أياماً بعد هروبي وكونت حساباً لم يدفع بعد ١٨ يناير ثم قدمت الشكوى للنيابة ونسبت إلي تهمة الاحتيال بتنكري بشخصية غالي جرجس الثري الوجيه فكونت النيابة جريمة احتيال سأتحدث عنها في المكان المناسب لها في هذا الكتاب ليعرف الناس حقيقة الاتهامات التي أسندت إلى جرائم الاحتيال الكثير.

تركت مرغماً الشخصيات التي عرفها البوليس والناس وتنكرت في شخصيات جديدة منها شخصية المسيو توندور وانتقلت من شارع سليمان باشا خطوات فصرت في شارع قصر النيل وسكنت في عمارة الكونتنتال القديمة مع هارفي باشا وكان مفتشاً في وزارة الداخلية في ذلك الحين.

قالوا «قليل البخت يلقي العظم في الكرشة» وقد وجدت في البنسيون عظمة خشنة جداً صورتها الطبيعة في صورة حسناء فتانة تحوم حولها جماعة من الشباب المثقفين وبعض رجال المال وكان لها شأن خطير في حياتي لأنها خلقت لي مغامرة جديدة سأحدث الناس عنها في الكتاب الثاني من اعترافاتي بإذن الله، لأن الحوادث الخطيرة توالت علي بسرعة بعد ١٨ يناير ١٩٠٩ ودفعتني بعنف في خضم الأخطار.

انتهى

حافظ نجيب واعترفاته

تبدأ النسخة الأصلية من «اعترافات حافظ نجيب» بكلمة قصيرة بتوقيع سعدية الجبالي تقول فيها:

«أرغمت الأستاذ حافظ نجيب على نشر اعترافاته في حياته بدلاً من نشرها بعد مماته لأمكن الناس من تكذيب ما لا يصدقونه ولأمكنه من الرد عليهم فلا ينهشون لحمه وهو جثة كما نالوا منه بنشر الأكاذيب والخرافات وهو مطارد عاجز عن الدفاع عن نفسه. وإن جلجلة صوت الحق تدفع الباطل وتفزع الجبان».

ولا يتوفر من معلومات عن سعدية الجبالي سوى أنها خريجة كلية التربية الرياضية (البدنية) وكانت وقت نشر الاعترافات «معهد عالي»، وتحت عنوان «الإهداء» كتب حافظ نجيب بعد ذلك مباشرة:

«إلى ابنتي العزيزة المحترمة سعدية الجبالي لم أنهج في تربيتك مناهج الناس فلم تسمعي مني إرشاداً بصوت الأمر، ولم أقيد حرية عقلك وسلوكك إنما تركت لك الاستقلال التام فأصغيت

لنصائحي بدافع من الرغبة وأطعت إرشادي بباعث من الثقة وحسن الظن».

وتفيض المقدمة الرقيقة بعبارات يكسوها حنان أبوي ظاهر يجعلنا نميل إلى أن علاقة إنسانية وثيقة وطويلة نشأت بين «حافظ» و«سعدية» كان فيها في موقع الأستاذ والأب وكانت هي في موضع التلميذة والابنة. وقد سطر حافظ هذا الإهداء في ١٩٤٦/٤/١٢ وفارق الحياة في ١٩٤٦/١١/٢١ وقبل ظهور الكتاب للنور. وقد دون حافظ نجيب في اعترافاته ما مرّ به أحداث حتى مطلع عام ١٩٠٩ أي حتى سن الخامسة والعشرين، لأنه حسب منشور وزارة الداخلية الذي وزع سنة ١٩١٦ كان سنه ٣٣ سنة.

أي أنه سافر لتركيا وفرنسا وهولندا، وقبلها الجزائر، وعمل بالتجارة، ودخل إلى الدير وخرج منه، كل هذا وهو دون الخامسة والعشرين. وقد وافته المنية وهو في الثالثة والستين. وقد احتفظ معه بأحداث أخرى مثيرة أشار إليها في نهاية اعترافاته عاقداً النية على نشرها في جزء ثانٍ، وهو ما لم يمهله القدر لإتمامه.

وإذا كان من معلومات عنه غير ما سجل في اعترافاته فإننا نذكر مقالاً هاماً نشرته مجلة «الهلال» القاهرية عدد شهر أغسطس ١٩٩٤ للكاتب الأستاذ أحمد حسين الطماوي جاء فيه:

«حافظ نجيب كان مثقفاً وشاعراً ومتفلسفاً فصيحاً، نافذاً إلى النفوس، عارفاً بالأديان، ولديه القدرة على إرسال نظرات فاحصة في عديد من الموضوعات، وفي هذا المقال نستعرض شخصيته في كل أطوارها، والكتابة عن حافظ نجيب لا تعني تمجيد

الاحتيال والمجرمين، وإنما تهدف إلى الكشف عن فصل طريف في الأدب، وعن رجل مزدوج الشخصية له وجهان: وجه فيلسوف أخلاقي صاحب مؤلفات، ووجه محتال أفاق».

«وهو ليس صورة مفردة في تاريخنا الأدبي أو الاجتماعي. بل له نظراء وأشباه، فصعاليك الجاهلية كانوا لصوصاً وشعراء ونوابغ، ومن الدارسين من اهتم بأمثال هؤلاء لما خلفوه من آثار أدبية ومنهم من صرف عنايته إلى دراسة ظاهرة التلصص والاحتيال من منظور اجتماعي».

«وبعض الكتاب العرب وجه اهتمامه إلى هؤلاء وجميع نوادرهم وأفانينهم فتجمعت لدينا عدة كتب تحكي أخبارهم وأسرارهم ورموزهم منها كتاب «اللصوص» للجاحظ، «والفتوة» لابن المعمار، «والفرج بعد الشدة» للتنوخي الذي تضمَّن جملة من أفانين اللصوص، وغيرها من كتب الأدب والتاريخ التي حوت حكايات الشطار والعيارين والمحتالين الذي يعوقون الطرق»،

«وقد يظن بعضنا أن اللصوص والمحتالين جهلاء بالعلوم والآداب، ويعتمدون على ذكائهم الفطري فقط، والحقيقة أن منهم المثقف المتبحر في العلم، وقد نقل الشيخ عبد الغني النابلسي في «الرحلة الطرابلسية» عن الشيخ السبكي في طبقاته محاورة في صميم الفقه بين قاض ولص، ورجحت فيها كفة اللص».

ويتعرض الطماوي في مقاله لجانب مهم جداً من حياة حافظ نجيب لم يرد ذكره في اعترافاته فيقول في مقاله سالف الذكر «الفيلسوف المحتال»:

«ففي الأيام الأولى من عام ١٩١٢ تقدم رجل مسن نائباً عن سيدة تدعى وسيلة محمد، إلى نجيب متري صاحب دار

المعارف، وعرض عليه مخطوط كتاب ترجمته السيدة المذكورة عن شارل وانير يحمل عنوان «روح الاعتدال» وطلب منه النظر في نشره، ولم يمض وقت طويل حتى وقع صاحب دار المعارف مع وكيل السيدة وسيلة عقد نشر الكتاب لتعذر حضورها. وطبع الكتاب عام ١٩١٢ ولاقى نجاحاً كبيراً، وأقبل عليه طلاب المدارس وعلقت عليه الصحافة والمجلات».

ومما قالته جريدة «المحروسة»، في ١٩١٢/٣/٢٧:

«بين الإفراط والتفريط درجة هي الاعتدال والمثل يقول: خير الأمور الوسط.. فلا غرو أن الاعتدال فضيلة وحسنة.. ولذلك ترى المجتمع الإنساني يتذمر من حاله لأن هذه الحسنة قليلة بين أفراده، سواء في ذلك أهل الشرق والغرب، وقد رأى ذلك الكاتب الاجتماعي شارل وانير، فألف كتاباً تحدث فيه عن روح الاعتدال، فأبدع وأجاد، وهدى وأفاد، فأرادت حضرة السيدة وسيلة محمد أن لا يُحرم أبناء الشرق من جني ثمار الانتفاع من روض ذلك السفر النفيس. فألبسته من العربية ثوباً أنيقاً بسيطاً، وزاهراً في وقت واحد...».

وقالت عنه مجلة «الملاجئ العباسية ومكارم الأخلاق الإسلامية» عدد جمادى الثانية ١٣٣. هـ (١٩١٢)

«كتاب روح الاعتدال.... أثبت أخيراً أن لروح الاعتدال نفوذاً قوياً وسلطاناً فعالاً في تقويم الأخلاق، وتلطيف الأمزجة الحادة، والطباع الغليظة، وفي إيجاد السلام بين الأنام، والكتاب يقع في نحو ١٦٠ صفحة، متين الأسلوب عالي التعبير مما يدلنا على مقدار غزارة المادة عند حضرة المعربة وقد اعتمدنا في وصف مضمون الكتاب على أقوال الصحف والمجلات لعدم

وقوفنا عليه بدار الكتب».

ويكمل الناقد المؤرخ الأستاذ أحمد حسين الطماوي رسم ملامح هذا الجانب من حياة حافظ نجيب يقول:

«وقد شجع هذا نجيب متري على طبع الكتاب الثاني «غاية الإنسان» المنسوب إلى الفيلسوف جان فينوت وتعريب وسيلة محمد، وقد أمكنني الحصول على هذا الكتاب المصنف بدار الكتب تحت رقم ٤٦٦ ـ فلسفة، والكتاب يدخل إلى نادي الفلسفة بنفس البطاقة التي تدخل بها الكتب التي تتناول الفلسفة الخلقية، إذ يتحدث عن الحق والواجب والحرية والأنانية والفضيلة والقيم من خلال «غاية الإنسان» من الحياة في هذه الدنيا وهي السعادة».

«ويقرر المؤلف أن السعادة موجودة في الحياة وأن عدم إدراكها لا يعني عدم وجودها، يقول: إن محو الرابطة بين الحال ومقتضاه محال، قد يوجد الحال ولا يتم مقتضاه، ولكن الرابطة بينهما موجودة بوجود الاقتضاء، وقد توجد الرغبة في السعادة ومقتضاها السعادة فبتحقق وجود الرغبة فيها ليس دليلاً على عدم وجودها وإنما على وجود السبب المانع من تحقيق الرغبة، وأدان الفلسفات التي تمعن في تشويه جمال الحياة وتخفض من قيمتها».

«وينفي المقولات الذاهبة إلى أن إغفال الهناءة في الحياة الدنيوية يحقق السعادة في الدار الآخرة»، وفي هذا يقول: «ولست أدري ما الذي يؤدي الإنسان إذا هو نال السعادة في الدارين، ولا الذي يضير الأديان إذا اغتبط المخلوق على الأرض، وفي الدار الآخرة ما دام يحرص على مبادئ الفضيلة والإيمان»،

ويمضي في ترسيخ المبادئ الخلقية والحد من الشطط الإنساني فيقول: «الأساس الثابت لنيل السعادة هو تسلط العقل على العواطف»، ويربط السعادة التي يتوق المرء إليها بمعرفة كل شخص لحدود حريته الشخصية وحقوقه من المنافع نحو نفسه ونحو الجماعة. وكل هذا وغيره يبين أن السعادة التي يتحدث عنها المؤلف وينشدها الإنسان لا يجب أن تحقق على حساب الدين والمجتمع».

«هذان الكتابان اللذان نسب الأول منهما إلى شارل وانير والثاني إلى جان فينوت، ونسبت ترجمتهما إلى وسيلة محمد كانا في الحقيقة لمؤلف اشتهر في ذلك الوقت بالنصب والاحتيال هو «حافظ نجيب» وقد أخفي اسمه لأنه مطارد من الشرطة».

«والسؤال المحير هو هل اتخذ نجيب متري قرار طبع الكتابين بمفرده أو أنه أشرك معه مواطنيه من اللبنانين مثل خليل مطران وأنطون الجميل وشبلي شميل وفرح أنطون وطانيوس عبده وغيرهم ممن يعرفون الآداب والفلسفات الفرنسية؟ ثم إنه كيف تقرظ جريدة المحروسة كتاب «روح الاعتدال» وكان يتولاها حينئذ إلياس زيادة ومعه ابنته مي زيادة، إنه حتى بعد تكشف الأمر لم يقل أحد أن أفكار الكتابين مسروقة أو مقتبسة؟ فلقد استطاع حافظ نجيب أن يخدع الوسط الثقافي والصحافي كله».

«كان حافظ نجيب قد قام منذ نهاية القرن التاسع عشر أو مستهل القرن العشرين بأعمال نصب واحتيال على أفراد وهيئات منها الفرنسيسكان واستحوذ على أموال بطرائق غير مشروعة وحررت ضده المحاضر والبلاغات في أقسام الشرطة، وقبض عليه مراراً وسجن. وفي كل مرة يعلن توبته، وبعد خروجه من

السجن يعود إلى الاحتيال، وقد أوتي قدرات عجيبة في تمويه شخصيته، وإخفاء نفسه بوسائله الذكية، وحيله البارعة. ومن هذه الحيل أنه عمل خادماً عند أحد وكلاء النيابة والشرطة جادة في البحث عنه، وكانت وزارة الداخلية تذكر أوصافه في نشراتها الإدارية ليساعدها الجمهور في القبض عليه، تقول إحدى هذه النشرات عنه:

مسلم
مصري الجنسية من رعايا الحكومة المحلية
صناعته: مدرس.
إقامته: عابدين
عمره: ٣٣ سنة
متوسط القامة والجسم
قمحي اللون
أسود الشعر
مستطيل الوجه
متوسط الجبهة
مفتوح الحاجبين
عسلي العينين سليمهما
كبير الأنف
واسع الفم
خفيف الشارب
حليق اللحية
في وجهه آثار الجدري
في شفته العليا من الجهة اليمنى أثر النحام

(جريدة المحروسة في ٩ ــ ٤ ــ ١٩١٦)

«وما كان أيسر على حافظ نجيب من أن يغير من هذه الأوصاف. على أن الصحف انتقدت هذه النشرة وقالت إن عمره أكثر من ذلك وأنه تغير في كل شيء».

«وكان حافظ نجيب مادة صحفية خصبة، إذ تسابقت الصحف في تتبع أخباره وتسجيل حوادثه، وإجراء التحقيقات الصحفية معه عند القبض عليه، وعقد موازنات بينه وبين المحتالين العالميين مثل النصاب الباريسي الماير (المحروسة في ١٤/٧/١٩١٩)، وهناك من طالب بتشديد عقوبة المادة (٢٩٣) من القانون لردع النصابين».

«وربما طول الصحفيون وهولوا ونسبوا إليه ما لم يفعله، فما من حادثة نصب وقعت إلا وقرن بها اسم حافظ نجيب، ووصل الأمر إلى حد أن الصحفي اللبناني جورج طنوس وضع عنه كتاباً أطلق عليه «الراهب المسلم» صدر عام ١٩١٠ جمع فيه نوادره وأشارت إليه مجلة الهلال عدد يوليه ١٩١٠».

«وفي عام ١٩١٢ وهو عام نشر هذين الكتابين، كان يسكن بمصر القديمة، وكانت ترعاه سيدة اسمها «وسيلة محمد» أثناء مرضه، وتطور الأمر فتزوج منها، وكان قد اشتهر في هذه الناحية بالتلقي والورع وأطلق لحيته وحمل اسم الشيخ عبد الله المنوفي. وهذه السيدة هي التي حملت اسمي كتابيه المشار إليهما، وكان هناك كتاب ثالث تحت الطبع عنوانه «الناشئة» لم يرَ النور».

«والسبب في ذلك أن أحد عارفيه وشى به عند الشرطة، فجاء الضابط كارتييه وتحدث إليه وعندما تحقق منه ألقى القبض عليه، وتمت مساءلته ومساءلة زوجته، وتكشف أمر الكتب التى طبعت أو التي قيد الطبع، وعرف الناس الحقيقة،

أما نجيب متري فقد أدلى بحديث صحفي لمجلة عدد ١٥/١٢/ ١٩١٢ شرح فيه ظروفه وملابسات طباعة الكتابين، وذكر أنه بذل عدة محاولات ليلتقي بوسيلة محمد فلم يستطيع وعند تسليم حقوق المؤلف أو المعرب حضرت إليه وسيلة محمد نفسها مدعية أنها من طرفها.

وقد اعترف حافظ نجيب نفسه بتأليف هذه الكتب وذلك أثناء حديث صحفي:

- سمعت أنك أصدرت كتابين باسم وسيلة محمد؟

- نعم.

- الناشئة

- وهل أنت الذي كتبت الكتابين الماضيين ؟

- نعم لأنني كتبت ما أعتقد[١]

وفي مقال مهم نشر بعد تصاعد الضجة التي أخذت بعداً دولياً حول مسلسل «فارس بلا جواد» المقتبس عن «اعترافات حافظ نجيب» كشف الصحافي المصري المعروف الأستاذ صلاح عيسى عن جانب غير معروف من حياة حافظ نجيب فقال بعد استعراض سريع لمحتوى الرواية: «وبفضل ذلك كله أصبح حافظ نجيب شخصية شهيرة يتداول الناس اسمها، ويضيفون إليها من خيالهم وقائع نصب واحتيال وجرائم سرقة لم تحدث حتى تخلقت صورته في ذهن الجيل الذي عاش خلال العقدين الأولين من القرن الماضي باعتباره نصاباً عالمياً».

ويستطرد صلاح عيسى: «وظل الحال كذلك ، إلى أن قرر

(١) جريدة المحروسة ١٩١٢/١٢/٣.

حافظ نجيب في عام ١٩١٣ أن يحسم موقفه وأن يسلم نفسه للشرطة ليصفي ما تراكم ضده من أحكام غيابية بالحبس في قضايا لفقتها له الأميرة الروسية. و«المؤكد أنه قد عاود الظهور على شاشة الحياة المصرية العامة منذ بداية العشرينات ليحاول إعادة بناء حياته مستثمراً شهرته المدوية ، فأنشأ فرقة مسرحية كانت تتجول في الأقاليم وصحيفة أسبوعية استمرت تصدر أربع سنوات، وشارك في تحرير غيرها. بل أصدر سلسلة روايات بوليسية باسم (روايات حافظ نجيب)، كان يتخذ من نفسه بطلاً لها ، وينسب لنفسه في سياقها أعمالاً خارقة في مقاومته الشرطة وفي فضح الجواسيس، مقلداً بذلك الشخصيات الشهيرة التي قامت ببطولة الروايات البوليسية مثل شرلوك هولمز».

ويصف صلاح عيسى هذه الروايات بقوله: «ولعلها من الأعمال الرائدة التي لا تزال بعيدة عن اهتمام دارسي تطور الرواية العربية، وقد وجدت منها في مكتبتي واحدة منها بعنوان (كنوز السلطان عبد الحميد) صدرت في عام ١٩٣٧ يشير إلى أنها السادسة من السلسة ذاتها التي يبدو أنها كانت تصدر أسبوعية أو نصف شهرية»[١].

وعلى صفحات «جريدة البيان» الإماراتية كتب المؤلف الدرامي المعروف الأستاذ محفوظ عبد الرحمن مقالاً من حلقات ثلاث بعنوان: «حافظ نجيب الذي لا يعرفه أحد» مر فيه على قضايا عديدة في سيرته وتناول جوانب من شخصيته بالتحليل، ومما جاء فيه: «كنت دائماً أشاكس الدكتور يونان لبيب رزق

(١) جريدة القاهرة مقال: التاريخ على واحدة ونص، بقلم: صلاح عيسى ـ العدد ١٣٥ (١٢ ـ ١١ ـ ٢٠٠٢) ص ٢٤.

أستاذ التاريخ الحديث وأرفض رفضه للكرة أن التاريخ يعيد نفسه، وأظن أن كلينا على حق. من ذلك كله أرى التاريخ بناء هائلاً ترى منه حسب الموقع الذي تقف فيه، ولقد لفت نظري بعض (التواريخ) إذا صحّ التعبير التي تكون ملء السمع والبصر ثم تذوب مع الوقت فلا يبقى منها».

«وربما كانت هذه المقدمة مدخلاً لأحدثك عن حافظ نجيب ولا تقل لي إنك تعرف حافظ نجيب فهذا سيصيبني بدهشة كبيرة، فلقد ذكرت اسمه حتى بين بعض المهتمين بالتاريخ، فلم يذكره من بين العشرات إلا قلة أحدهم صاح قائلاً: لقد كان صديقاً لوالدي، وآخر قال لقد سمعت حسن إمام عمر يتكلم عنه، وثالث قال: لقد مرّ اسمه علي مرات وأنا أعد كتاباً عن تاريخ الشرطة. ولم يكن الحال هكذا منذ سنوات، أذكر أن والدي أخذني معه في زيارة إلى إحدى القرى، لا أذكر اسمها، وأظن أنني كنت في العاشرة أو بعدها بعام، وكانت الجلسة كلها عن حافظ نجيب، ولا أذكر من هذه النزهة إلا اسم حافظ نجيب».

ويستطرد محفوظ عبد الرحمن: «سألت والدي عن حافظ نجيب فقال لي بإعجاب إنه أعظم من أرسين لوبين. وكنت أعرف أرسين لوبين وعرفته أكثر فيما بعد، لقد كان البطل الشعبي في زماننا، اللص الشريف الذي يسرق من أجل الخير، ويحقق العدالة ويقوم بمغامرات لا يصدقها العقل. ولم يكن ينافس أرسين لوبين إلا شرلوك هولمز وهو شخص ذكي يكشف أصعب الجرائم».

«المهم أن حافظ نجيب غاب من الذاكرة العامة حتى اختفي

تماماً بعد أن كان ينافس أرسين لوبين في الشهرة، وقد يدهشك أن تعرف أن حافظ نجيب كان أيضاً ناشراً ومترجماً، أي أنه كان سهلاً عليه نشر كتاب[1].

وهو يقارن في الحلقة الثانية من مقاله بين حافظ نجيب و«سفاح اللص والكلاب» محمود أمين سليمان، فيقول: «لقد كنت متابعاً لأحداث من سمي في زمنه بالسفاح، وكان اسمه محمود أمين سليمان وقيل إنه ادعى في فترة من الفترات أنه محمود أمين العالم الناقد والمفكر الكبير، وهناك ما يجعلنا نصدق هذا فلقد كان محمود أمين (السفاح)، ناشراً قبل أن يصبح سفاحاً، ولا أدري العلاقة بين المهنتين؟! وكان مكتبه في بناية شهيرة في وسط القاهرة تسمى (عمارة ستراند)، وكان لمجلة (الشهر)، التي عملت فيها فترة مكتب في هذه البناية، فأصبحت جار الجيران محمود أمين سليمان يحكون لي عنه وعن أخباره، وتشاء الصدفة أن يكون ذلك مع بدء مغامرات محمود أمين سليمان وكيف أنه سطا على هذا القصر فتصرف كأي جنتلمان». وكيف أنه اقتحم هذا المكان رغم الحراسة المشددة عليه. وكيف أنه هرب من قصر العيني رغم حصاره. كيف أن الشرطة وصلت إلى مقره فعلاً. فأخذت بعض ملابسه ووضعتها أمام أنوف الكلاب البوليسية، لكي تتابعه حيث هو، لكنه أفشل هذا العمل قبل أن يبدأ، ذلك أنه أغرق ملابسه قبل الهرب بالعطور مما ضلل الكلاب. ولأن رئيس تحرير مجلة (الشهر) وصاحبها كان سعد الدين وهبة، وكان آنئذ قريب عهد بعمله في الشرطة، فكان على اتصال بالداخلية

(١) جريدة البيان الإماراتية، ٨ مارس ١٩٩٨.

لمعرفة أخباره، وكلما عرفنا أنه محاصر أصابنا الانزعاج الشديد، وكلما عرفنا أنه هرب من الحصار، أحسسنا بالراحة، ولقد أدهشتني هذه الأحاسيس».

ويستطرد: «وربما كانت لأننا كنا نرى في محمود أمين سليمان البطل الذي يحتج باسمنا، ولم يفسد هذه الصورة أبداً، فلم يعتد على ضعيف، ولم يستغل أي فرصة، ولم يسرق أكثر من حاجته، وأحياناً أكثر من حقه، وكان أذكى من مطارديه، وأكثر جرأة. ويوم طاردت الشرطة محمود أمين سليمان إلى مغارات الصحراء، ثم قتلته بالرصاص، بكينا جميعاً، وفيما بعد كتب عنه نجيب محفوظ (اللص والكلاب)، ونشرت (أخبار اليوم) الخبر في مانشيت يقول: (مصرع السفاح)، أما المانشيت الثاني فكان تحته مباشرة وهو (عبد الناصر في الباكستان)، فأصبح المانشيت كما لو كان: مصرع السفاح عبد الناصر في الباكستان!!».

وهو كذلك يقارن بينه وبين «فتوة الحسينية» فيقول: «وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فلقد استمتعت بمذكرات أملاها يوسف أبو حجاج «فتوة الحسينية» في الفترة نفسها التي يتحدث عنها حافظ نجيب تقريباً، وقد حكى فيها يوسف أبو حجاج بين ما حكى مشاركته في ثورة ١٩١٩، وهذا يذكرنا بحديث حافظ نجيب عن دوره في الحزب الوطني وخلطه هذا الدور بمغامراته، فهل كانت هذه المغامرات احتجاجاً فردياً على الاستعمار البريطاني؟!».

أما تجربة دخول الدير فيصفها قائلاً: «مغامرة حافظ نجيب في دخول الدير وعدم كشفه أكبر مغامرة قرأت عنها»، ورغم

اضطراره لترك حياة الرهبنة: «ولكن تفكيره في هذا، ومحاولته، يجعلانه في الصف الأول من المغامرين».

وعندما يصل إلى محطة زواجه من الكونتيس سيجريس يسجل محفوظ عبد الرحمن ملاحظة ذكية هي أنها: «المرة الوحيدة التي يشير فيها حافظ نجيب إلى الزواج في مذكراته التي اعتقد أنها أغرب مذكرات نشرت في هذا القرن»، وهو ينتقل من مضمون الاعترافات لطبيعة أسلوب كاتبها، فيقول محفوظ: «وحافظ نجيب كاتب ليس له منطق محدد، فأحياناً يروي أدق التفاصيل عن البيت الذي يعيش فيه أقاربه، وأحياناً يفعل ذلك في كيفية هروبه من السجن، أو خداعه لوكيل النائب العام، ولكنه في المقابل يلخص الأحداث تلخيصاً مخلاً».

ويرصد أيضاً ملامح نفسية للكاتب من خلال استنطاق سطور النص فيعلق على ما كتبه بعد وفاة الزعيم الوطني مصطفى كامل قائلا: «وتبكي مصر كلها هذا الشاب الوطني. ولأول مرة نجد حافظ نجيب يصف مشاعره. فيما قبل كان يقول: أعجبت، تضايقت، أحببت. أما الآن فهو يكشف عن مشاعره بالتفصيل. بل كتب قصيدة رثاء للزعيم الوطني».

حافظ نجيب: محاولة للاقتراب أكثر

وتبقى في حياة حافظ نجيب محطات لا مفر من الوقوف عندها، فالكتابان اللذان ألفهما في الفلسفة يدفع إلى القبول بنسبتهما إليه أن اعترافاته مليئة بالملاحظات التي لا تصدر إلا عن ذهن متأمل متفلسف وإن حنت عليها الطبيعة المثيرة للاعترافات. ففي كلمة تسبق الاعترافات تحمل عنوان «كلمة صريحة» يقول:

«في ماضيّ كثير من الأخطاء وقليل لا يشرف ذكره ولا

يفيد الناس عرضه وحب الذات يقتضي كتمه ونسيانه».

وهو يقارن بين الراقصة التي يرمز لها برمز (ن) في رغبتها امتلاك طلاب المدرسة الحربية وامتلاك البرنسيس فيزنسكي إياه فيقول:

«اعتمدت الراقصة (ن) على الأنوثة والخلاعة لامتلاك كتائب من الشباب ارتاحت نفسها للحصول عليها... واعتمدت هذه الأميرة على العقل والصبر والمال والحيلة لتمتلك شاباً واحداً رغبت في الحصول عليه..».

«هدف المرأتين واحد: هو الرغبة في الامتلاك، والباعث واحد: هو الارتياح في الاشتهاء، إنما تنوعت الوسائل بسبب اختلاف العقليتين والمدنيتين والثروتين. يدفع كل إنسان ثمن ما يرغب فيه، لا بنسبة ما تساويه قيمته الذاتية، إنما بنسبة مقدار الرغبة فيه والإصرار على تحقيق هذه الرغبة، وتصدق هذه النظرية في تحديد أثمان شراء المعادن النفيسة، والحجارة الكريمة، والحيوان، والإنسان أيضاً. وبقدر قوة الرغبة في السلعة المختارة يكون مقدار المعزة والعناية بالاحتفاظ بها سليمة».

ويحلل علاقة الحب تحليلاً يثير الإعجاب لما فيه من معرفة بطبيعة النفس الإنسانية، فهو يقارن بين حب الشباب وحب الكهول فيقول:

«كل خيبة في الحب تبعث في النفس الألم، وفي الأعصاب زلزلة وفي العقل ما يثير الغضب الشديد والحنق ولكن هذه الحال يزول تأثيرها عند الشباب بسرعة وتدوم في الشيوخ كما يدوم الحب».

«يحب الشاب حباً خاطفاً يتأثر بالحسن أو الجاذبية فيندفع

إلى حد الولع بالأنثى التي أحدثت في فؤاده هذا التأثير فإذا ارتوى الظمأ بنيل الأمنية تفتر فورة الشوق وتقل الرغبة حتى تتلاشى، لأن قوة الحيوية ونشاط العاطفة يبعثان على التوثب لا على الاستقرار على قياس رعونة الصغار ونشاط الشباب وبطء حركات الكهل أو الشيخ فالحالة العاطفية في الشباب والشيوخ تماثل الحالة البدنية من النشاط والهدوء ذاتها وغاية الحب عند الشباب المتعة ولكنها عند الشيوخ غاية الحياة ونهاية الأمل لأن الشيخ يركز فيها بقية حياته وكل أمانيه فإذا صدمته الخيبة تصدم مع عاطفته حياته».

«والحب الخاطف الذي يجيء مصادفة أو بتأثير رؤية محاسن ليست له قوة الحب الذي تغذيه الرغبة في زمان طويل بالمعاشرة والعناية والرعاية والاعتياد لأن جذوره تتغلغل في الفؤاد جذور الشجرة في الأرض مع طول الزمن واطراد النبات».

ومما يلفت النظر أيضاً في الاعترافات حديث حافظ نجيب الغامض عن الجهة السياسية التي أمرته بتنفيذ خطة بعينها في حياته داخل الدير، ومراسلات كانت تتم بينه وبينها من خلال وسيط وهو السر الذي لا تكشف عنه الاعترافات. ومن المؤكد أن الضجة التي أثيرت حوله كمحتال هارب قد غطت على هذا الموضوع المهم. وهناك حديث صريح عن علاقة خاصة ربطته بزعماء الحزب الوطني، وبخاصة مصطفي كامل ومحمد فريد.

وإذا كان من ملاحظة أخيرة على هذا العمل الممتع فهي صعوبة التأريخ الدقيق، ففي المراحل الأولى بصفة خاصة تتكرر عبارات مثل «دامت حياتي على هذا المنوال زمناً لا أعرف مداه»، «ولست أدري كم من الوقت....» فلم تبدأ الأرقام

تتحدد بشكل قريب من الدقة إلا عندما أصبح مشهوراً مطارداً.

ويبقى أن هذا العمل يحتاج إلى عودة أخرى في عمل بحثي ربما يكون قريباً.